الروس فى بلد الأهرام

رحالة، وعلماء، وهواة جمع التحف



المشروع القومى للترجمة

تأليف

جالينا ألكسندروفا بيلوفا

تاتيانا ألكسييفا شيركوفا

1024

ترجمة: على فهمى عبد السلام

مراجعة: أوليج إيفانوفيتش فومين

الروس فى بلد الأهرام

رحالة، وعلماء، وهواة جمع التحف

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٠٢٤
- الروس فى بلد الأهرام
رحالة ، وعلماء ، وهواة جمع التحف
- جالينا ألكسندروفا بيلوفا، و تاتيانا ألكسييفا شيركوفا
- على فهمى عبد السلام
- أوليج إيفانوفيتش فومين
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب

РУССКИЕ
В СТРАНЕ ПИРАМИД
ПУТЕШЕСТВЕННИКИ, УЧЕНЫЕ, КОЛЛЕКЦИОНЕРЫ
Г.А. Белова
Т.А. Шеркова

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

المشروع القومى للترجمة

الروس فى بلد الأهرام

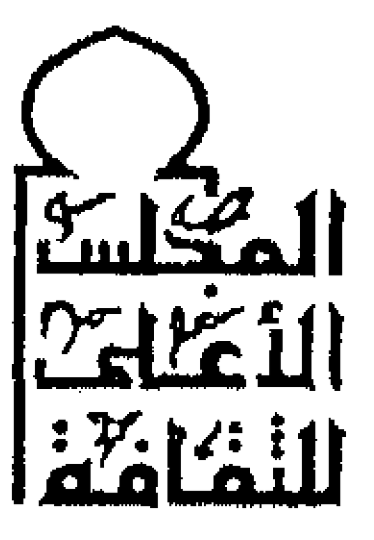
رحالة، وعلماء، وهواة جمع التحف

تأليف : جالينا ألكسندروفا بيلوفا

تاتيانا ألكسييفا شيركوفا

ترجمة : على فهمى عبد السلام

مراجعة : أوليج إيفانوفيتش فومين



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

بيلوفا، جالينا ألسكندروفا . وشيركـــوفا، تاتيانا ألكسييفا

الروس في بلد الأهرام: رحالة، وعلماء، وهواة جمع التحـــف/

تأليــف : جالينا ألسكندروفا بيلوفا ، وتاتيانا ألكسييفا شيركـــوفا، ترجمة: على فهمى عبد السلام ، مراجعة: أوليج إيفانوفيتش فومين ، ط ١ – القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧

٣٠٤ ص ، ٢٤ سم المشروع القومى للترجمة

١- مصر – العلاقات الخارجية – روسيا.

٢ – روسيا – العلاقات الخارجية – مصر.

أ- عبد السلام، على فهمى (مترجم)

ب- فومين، أوليج إيفانوفيتش (مراجع)

رقم الإيداع : ٣٤٩٧ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977- 437 - 192 - 5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجم

ترجع العلاقات المصرية الروسية إلى ماض بعيد، فمن المعروف أنه بعد انهيار "الإمبراطورية البيزنطية" فى القرن الخامس عشر أخذت روسيا على عاتقها العناية بالديانة "الأرثوذكسية". بدأ الروس يتوجهون لزيارة الأماكن المقدسة فى شبه جزيرة سيناء، التى كانت تدخل فى نطاق السيادة المصرية منذ زمن بعيد. على سبيل المثال، كان أول روسى يزور أقدم دير على أرض سيناء "دير سانت كاترين" هو "الأرشمندريت جريفينى" (سنة ١٤٠٠) من مدينة "سمولنسك"، بعد ذلك زار هذه المنطقة الشماس"زوسيما" قادما من دير "ترويتسى- سيرجيفوى". ونُشر كتاب فى مدينة "سان بطرسبورج" فى روسيا، أصبح دليلا للحجاج الروس الذين سافروا إلى سيناء بعد ذلك. كان عشرات الآلاف من الروس يسافرون فى ذلك الوقت إلى الأماكن المقدسة متحملين المشقات والتعب، وكان بدو سيناء يستقبلونهم بالعطف وبالصداقة.

كُتِبَ الكثير عن العلاقة بين "الكنيسة الأرثوذكسية الروسية" وسيناء، وهى تمثل جزءًا بسيطًا من العلاقة بين حضارتين عظيمتين: الحضارة الروسية والحضارة المصرية.

يجب الإشارة إلى أنه بدأت فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين علاقات لا يمكن نسيانها بين مصر وروسيا، فقد حضر بلا استثناء إلى مصر كل سفراء روسيا الذين اعتُمِدوا فى ذلك الوقت فى الإمبراطورية العثمانية.

أدت العلاقات السياسية النشطة ومن بعدها العلاقات التجارية مع مصر إلى تطور هذه العلاقة، ولعبت دورا كبيرا فى جذب انتباه الأدباء والفنانين الروس إلى

مصر. يمكن أن نستدل على ذلك من مؤلفات "بوشكين"، و"ليرمنتوف"، و"جريبايدوف"، و"دوستويفسكى"، و"دوبرولوبوف"، و"جومتشاروف"، و"تولستوى"، و"تشيخوف"، والعديد من الكتاب والشعراء والصحفيين والعلماء وصفوة رجال المجتمع الآخرين فى القرن التاسع عشر. وقد انتشرت الأعمال والمذكرات المختلفة عن الرحلات إلى مصر فى الجرائد والمجلات المختلفة مثل "مذكرات وطنية"، و"الإنسان المعاصر"، و"نشرة بحرية"، و"مقدم الأخبار الروسى"، و"مكتبة للقراءة"...إلخ. وقد درس الروائى الشهير "ليف تولستوى" فى جامعة "كازان" بقسم "الأدب العربى التركى" وتعلم اللغة العربية وتاريخ إفريقيا وتعرف على كتب عن الشعوب العربية وتاريخهم وثقافتهم.

كذلك زار الشاعر الروسى الشهير "ن.س.جوميليف" مصر عدة مرات (أعوام ١٩٠٨ و١٩٠٩ و١٩١٠ و١٩١١ و١٩١٣) وكتب عنها الكثير من الأشعار التى صدرت فى دواوينه المختلفة: "الشعلة" (١٩١٨)، و"الخيمة" (١٩٢١)، و"أشعار رومانسية" (١٩٠٨)، وقد تم نشر العديد من أشعاره التى تتحدث عن مصر فى الجرائد المصرية مثل "الضبع" (فوق عيدان قصب النيل البطىء...")، و"عدوى" (تقترب المركب من القاهرة...).

أدى اهتمام الروس بمصر إلى ظهور العديد من صفوة المجتمع الروسى وفنانيه وعلمائه الشغوفين بالحضارة المصرية القديمة، وقد أفنى الكثير منهم حياته للكشف عن أسرارها، واهتم بعضهم بجمع الآثار المصرية القديمة لتكوين مجموعات خاصة منها، أو لصالح المتاحف الروسية. وغيرهم اهتم بدراسة البرديات المصرية القديمة وفك طلاسمها، ومنهم من اهتم بعلم القبطيات... وقد أسهم كل هؤلاء بجهود عظيمة فى "علم المصريات"، خاصة بعد كشف "شامبليون" لأسرار كتابة اللغة الهيروغليفية القديمة. ومن هؤلاء: "إيفان بتروفيتش بوتينيف"، و"أدريان فيكتوروفيتش براخوف"، و"فلاديمير جيورجفيتش بوك"، و"أوسكار إدواردوفيتش ليما"، و"بوريس أليكسندروفيتش تورايف"...

يمكن أن نتذكر أيضًا عالم المصريات "فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف" (١٨٥٦-١٩٤٧) وهو يعتبر من النجوم التى تحتل المكانة الأولى فى علم المصريات. فبعد مرور أكثر من خمسين عامًا على وفاة "فلاديمير سيميونوفيتش" فى مدينة "نيس" بفرنسا فى ٩ أغسطس ١٩٤٧، ما زال هذا العالم يعتبر أعظم الخبراء المتميزين فى اللغة المصرية القديمة. وقد كتب "جولينيشيف" أكثر من خمسين عملا علميا، أغلبها ترجمات لوثائق مصرية قديمة وتعليقات عليها. وقد أسس قسم "علم المصريات" فى جامعة القاهرة، حيث تلقى العلم الكثير من العلماء العظام. وتمثل المجموعة المعروضة بالقاعة المصرية فى "متحف بوشكين بموسكو" مائة فى المائة تقريبًا من المقتنيات الخاصة بجولينشيف". واعترافا من مصر بدور هذا العالم العظيم فقد تم تكريمه فى عام ٢٠٠٦ بوضع تمثال له بفناء المتحف المصرى بالقاهرة، وسط علماء المصريات العظام الذين أسهموا بجهودهم فى تأسيس وتطوير علم المصريات، وأفنوا حياتهم لكشف أسرار تاريخ حضارة مصر القديمة.

يشهد تفاعل المصريين مع أحداث ثورة عام ١٩٠٥ فى روسيا على قوة الروابط المصرية الروسية فى بداية القرن العشرين، فقد ظهر خبر "الثورة فى روسيا" فى كل الجرائد تقريبًا، حيث تمت تغطية أحداث عام ١٩٠٥ بالتفصيل.

وفى الوقت نفسه استقبلت مصر العديد من السياسيين ورجال الثقافة والعديد من السفراء الروس الذين – بدون شك – أثَّروا بشكل ما على ما كان يحدث فى هذا البلد. وبصفة خاصة بدأت أول مجموعات من المهاجرين الروس فى الوصول إلى الإسكندرية فى أوائل عام ١٩١٩، بعد الثورة البلشفية فى روسيا، وتم إسكانهم فى مدينة من الخيام فى "التل الكبير" فى منتصف الطريق بين القاهرة والإسماعيلية.

لذلك فإن جذور العلاقات الروسية المصرية ترجع إلى ماضٍ بعيد لكل من البلدين، وهذه العلاقات تشمل الجوانب السياسية والاقتصادية والروحية التى لم

تنقطع أبدا، بل حصلت على دفعة جديدة فى عام ١٩٤٣ عندما بدأ الاتحاد السوفييتى علاقة دبلوماسية مع مصر الحرة. وقد بلغت هذه العلاقة أقصى مدى لها بعد ثورة يوليو ١٩٥٢على النظام الملكى ووصول الضباط الأحرار إلى الحكم بزعامة "جمال عبد الناصر".

ما تقدم يبين مدى التلاحم بين الشعبين الروسى والمصرى منذ قديم الزمن، فى شتى المجالات وتفاعل كل منهما مع ما يجرى على أرض البلد الآخر.

و قد تم اختيار هذا الكتاب لترجمته؛ نظرًا لأهميته فى إلقاء الضوء على دور الروس من علماء ومثقفين وفنانين ورحالة ورجال دين ومغامرين وغيرهم فى كشف أسرار تاريخ الحضارة المصرية القديمة وتطوير علم المصريات، فمنهم من قام بالبحوث العلمية وبعمليات الحفر والتنقيب عن الآثار، ومنهم من بحث عن الآثار وجمعها لنفسه أو لأحد المتاحف، وغيرهم قام بدراستها والحفاظ عليها فى المتاحف الروسية والمتاحف الأخرى، وآخرين حضروا فى رحلات إلى مصر وقاموا بوصفها وما تحمل أرضها من آثار؛ مما نشر حب مصر وتاريخها القديم بين الروس والشعوب الأخرى.

و يكتسب هذا الكتاب أهمية خاصة؛ حيث إنَّ مؤلفتيه عالمتان مشهورتان فى مجال علم المصريات، وإنهما قد كرستا حياتهما لهذا العلم عن حب ومعرفة، وعاشتا فترات طويلة فى مصر، وساهمتا فى كشف الكثير من الآثار والأسرار المصرية القديمة.

و قد اضطر المترجم أن يضيف بعض المعلومات التى رأى أن يوفر على القارئ عناء البحث عنها فى المراجع التى قد تكون متوفرة لديه أو لا تكون، وقد أوردنا هذه المعلومات بين قوسين بجانب أسماء المدن أو الأشخاص أو الأحداث. وقد اعتمدنا فى ذلك على المراجع التالية:

- قاموس دائرة المعارف الكبرى (إصدار: الناشر العلمى، دائرة المعـــارف الروسية الكبرى، عام ١٩٩٩).
- موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم ، تأليف د. ناصر الأنصارى، دار الشروق، عام ١٩٩١.
- معجم الحضارة المصرية القديمة ، تأليف جورج بوزنو وآخرين، مكتبـــة الأسرة، عام ١٩٩٦.
- قاموس المتحف البريطانى عن المصريات.

و فى النهاية لا يفوتنى أن أتقدم بالشكر لكل من المرحـــوم أ./محمـــد عبـــد الرازق، وأ.د/ محمد مريكب على نصائحهما ومراجعتهما لهذا الكتاب بعد ترجمته.

على فهمى عبد السلام

مقدمة

استغرق السفر بالطائرة من موسكو إلى القاهرة أربع ساعات فقط، وها هو هذا القرص الأسود من الأرض المأثورة عليه الأضواء يدور خلف النافذة، ينقلب تارةً ويقف أحيانًا على جانبه، وتارةً يتبادل مكانه مع نجوم السماء.

لا تتعجل مصر القديمة على اللقاء، فهى متدثرة فى لفافة مقدسة ومختفية فى غلاف من المنازل الحديثة المهيبة والنظيفة لضواحى هليوبوليس التى تحميها قلعة القاهرة القديمة. ويمثل الهلال الرفيع أعجوبةً للشماليين، فهو بأطرافه المقوسة إلى أسفل ينوه إلى حتمية الصباح، عندما يظهر قرص الشمس من خلف جبال شبه الجزيرة العربية، وتتفتح زهور اللوتس، ويبتسم طفل مداعبًا وهو يضع أصبعه على ثغره دلالةً على شبابه الأبدى، جاذبًا على مر آلاف السنين السائحين والحجاج الذين يحركهم الفضول وعجائب الدنيا...

من ممن حضروا إلى مصر ولو مرة واحدة يستطيع أن يتخلص من سحر حضارتها القديمة التى أسرت قلوب الآلاف؟ وما سر هذا البلد المدهش؟ حضارة قديمة، باركتها الآلهة... لقد عرفنا عنها منذ نعومة أظفارنا. أما من ربط مهنته بها، فهو يحلم بفهم غموضها متتبعًا أثر أول الرحالة وجامعى المقتنيات وعلماء المصريات الذين جعلوا من علم تاريخ وحضارة مصر القديمة أحد العلوم الإنسانية التقليدية فى روسيا.

لقد ظهر فى السنوات الأخيرة الكثير من الكتب إلى النور يمكن ضمها معًا تحت عنوان واحد عام هو "أوروبا ومصر: حوار الحضارات". ولكن لا توجد بين هذه الكتب المتعددة أية كتب مخصصة للحديث عن تعرف الروس الذين عاشوا فى

مختلف الأزمنة على مصر القديمة والحديثة، وعن تاريخ توثيق العلاقات بين روسيا ومصر.

هذا هو السبب الذى دفع عالمتى المصريات الروسيتين إلى كتابة هذا الكتاب لكى تقدما إلى القارئ معلومات متعددة شيقة عن الخطوات الأولى لعلم المصريات الروسى وعن جامعى المقتنيات والرحالة. لقد ساعد على التقريب بين الحضارتين الروسية والمصرية الدبلوماسيون ورجال الدين والكتاب والرسامون والعلماء والرحالة الذين توجهوا إلى مصر لأغراض مختلفة، للبحث عن آثار العائلة المقدسة، وذرًّا للحزن والملل، والعمل فى مجالات تخصصهم. باختصار من ينتسبون إلى كل الطبقات والمهن. نحن نتعرف بفضل يوميات رحلاتهم المدونة وكتبهم على الكثير مما امتصه العصر الحاضر.

تتوجه المؤلفتان بالشكر لكل من عضو أكاديمية العلوم الطاجيكية الأستاذ/ب.أ.ليتفينسكى، ود/ف.إ.ساريانيدى ود/ب.ى.ستافينسكى الحاصلين على الدكتوراه فى التاريخ، وكذلك الباحثة/ أ.ج.تولماتشيفا التى تعمل فى "المعهد المركزى لبحوث علم المصريات– أكاديمية العلوم الروسية".

ت.أ.شيركوفا

بداية علم المصريات فى روسيا

ترجع أقدم الوثائق التى حفظت حتى يومنا عن الرحلات إلى مصر إلى القرن الرابع عشر. ويلاحظ أن عدد الحجاج إلى مصرقد زاد مع مرور الأيام، وأن مجالات اهتماماتهم اتسعت. فقد اهتموا فى أول الأمر بمعرفة ماضى هذا البلد بالإضافة إلى معرفة تقاليده وأخلاقه؛ لذلك فقد جمعوا مقتنيات باهرة الجمال من آثاره القديمة. فلم يكن ممكنًا لأحد المرور بلا مبالاة بجانب التماثيل المصبوغة بالغموض بدون محاولة قراءة الرموز المكتوبة عليها، وبدون أن يمد يده للمس هذه الوجوه العظيمة من الآثار القديمة، وبدون أن يكتم الأنفاس أمام هذه الأعمال الدقيقة التى صنعها قدماء الصاغة. وقد أصبح اقتناء مثل هذه الكنوز يمثل فخرًا لجامعى المقتنيات من الآثار القديمة، كما أنها أثارت إعجاب الخبراء.

أدى جمع مقتنيات الآثار القديمة إلى إيقاظ الرغبة فى دراسة كل ما يتعلق بها؛ لفهم من صنعوها. فى ذلك الوقت لم يكن الدارسون يستطيعون دراسة دور وأهمية ما يعثر عليه فى السياق العام للتاريخ القديم. وقد بدأ العلماء يحاولون بالتدريج تصنيف الآثار التى عثر عليها حديثًا بمقارنتها بالآثارالتى تمت دراستها جيدًا من قبل. وعلى الرغم من ذلك فقد ظل هناك غموض ما بين تصنيف الآثار ودراستها مع بداية تطور المعرفة عن الماضى السحيق.

و فى عام ١٧١٤ تم إنشاء دار للتحف فى روسيا، تعتبر الهيئة الحكومية الأولى التى كان من بين أعمالها جمع الآثار والمخطوطات الشرقية النادرة، وقد آلت دار التحف إلى أكاديمية العلوم فى عام ١٧٢٤. ونظرا لوفرة المعروضات بها فقد صدر قرار فى نهاية القرن الثامن عشر بتحويلها إلى عدد من الهيئات المستقلة،

وقد كان "المتحف الآسيوى" أحدها، فقد أنشأه فى عام ١٨١٨ فى مدينة سان بطرسبورج كل من الكونت س.س.أورافون الذى أصبح فيما بعد وزيرًا للمعارف، والأكاديمى خ.د.فرين الذى رأسه حتى عام ١٨٤٢. وقد قرر مؤسسو المتحف "أن توضع المخطوطات والعملات والأنواط فى الحجرة الشرقية بحيث تكون القاعة المخصصة لهذه الأشياء مناسبة تمامًا". كانت البداية بالقاعة التى ضمت مجموعات المخطوطات الشرقية والكتب والآثار القديمة من كل أقسام دار التحف ومن أكاديمية العلوم. وبذلك تحول "المتحف الآسيوى" قبل بداية القرن التاسع عشر إلى "متحف- مكتبة" فريد من نوعه متخصص فى "الشرق".

أوائل ناشرى علم المصريات: الجدل حول اكتشاف شامبليون

أغرقت موجة الشغف بمصر العقول المثقفة فى أوروبا بعد قيام نابليون بحملته الشهيرة إلى مصر ونشر أجزاء كتاب "وصف مصر"، ولم تتخلف روسيا فى ذلك عن غيرها. فقد دارت مناقشات حماسية عن أحدث نظريات فك شفرة "الهيروغليفية المصرية" على صفحات الإصدارات الدورية. وقد كتب الأدباء الروس فى مؤلفاتهم عن الأبطال المصريين القدماء. كما أن المغالين فى متابعة الموضة يحرصون على اقتناء قطع الأثاث، أو الأوانى، أو الثياب المصنوعة على الطراز المصرى. كما أن مشاهدة الأشياء المصرية الغريبة أصبحت أكثر وسائل التسلية المحببة فى الصالونات الراقية.

كان "الديكابريست"(الديسمبريون)(*) "جافريل ستيبانوفيتش باتنكوف" أحد أوائل من نشروا المعلومات عن علم المصريات بين الجماهير، فقد نشر فى روسيا

(*) الديكابريست (الديسمبرى) ثورى، من النبلاء الذين شاركوا فى ثورة ديسمبر عام ١٨٢٥ ضد قيصر روسيا والملكية المطلقة ونظام الرق الإقطاعى. (المترجم)

كتيبًا عن الكتابات المصرية" فى عام ١٨٢٤، أى فى العام نفسه الذى نشر فيه جان فرانسوا شامبليون (شكل ١) عمله الأساسى " نبذات عن نظام اللغة الهيروغليفية عند قدماء المصريين"(١). وقد تم نشر هذا النص على هيئة مقالات منفصلة فى مجلة "ابن الوطن"(٢). ولم يكتب اسم المؤلف على الكراسة أو على المقالات. وقد أذهلت المؤلف دقة ومنطق الاستدلال التى قدمها شامبليون؛ لذلك فهو لم يعرض بالتفصيل وبسلاسة فى كتاباته أسس النظام الذى قدمه العالم العبقرى فقط، ولكنه قدم أيضا شهادة تاريخية عن فك شفرة الهيروغليفية.



(شكل ١) جان فرانسوا شامبليون

---

(١) Precis du système hieroglophique des anciens Egyptie

(٢) №XXVIII-XXX & XXX and XXXII-XXXV за 12 июля- 30 августа 1824 г

لم يمكن معرفة أن المؤلف الذى كتب هذه الأعمال هو جافريل ستيبانوفيتش باتنكوف إلا بعد مرور عدة سنوات، وقد استدل على ذلك بالحرف "ب" الذى كان يوقع به على الصفحة الأخيرة من الأصل المكتوب بخط يده، اعتمادًا على شهادة المعاصرين، بالإضافة إلى ما قد يبدو غريبًا، وهو محاضر استجوابه أثناء التحقيق فى قضية المشاركين فى ثورة ديسمبر.

ولد باتنكوف فى عام ١٧٩٣ فى مدينة تومسك، وبعد انتهاء تعليمه فى "مدرسة الوصفاء"(*) اشترك فى حرب عام ١٨١٢ (**). صادق هذا الرجل، الذى سوف يتميز فى المستقبل بثقافة عميقة والذى سوف يحب الحرية، الكثير من الشخصيات التقدمية فى ذلك الوقت، ومنهم رجل الدولة المصلح الشهير م.م.سبيرانسكى. وقد حاولا معًا الوصول إلى أسرار الكتابة الهيروغليفية فى خلال عامى ١٨٢٣و١٨٢٤. وكانت نتيجة العمل الدقيق ودراسات كتابات قدماء المصريين أن نشر الكتيب الذى أشرنا إليه، وقد قام باتنكوف بتلخيص ٤٠٠ صفحة من مؤلف شامبليون فى ٩٥ صفحة. ولأنه كان يؤمن بأن الترجمة الحرفية "للنبذات" نفسها لن تكون مناسبة لكل القراء، فقد وضع هدفًا لعمله هو استخلاص ما يلى مع تقديم شرح وافٍ للمواضيع التالية:

"١- عن حالة معرفتنا بالهيروغليفية قبل شامبليون.

٢- تقديم صورة مختصرة لنظام شامبليون.

٣- المنهج الذى اتبعه شامبليون لتحقيق الاكتشاف، وتطوره التدريجى، واستخدامه فى طرق البحث فى المستقبل : أقرب التطبيقات للنظام الجديد وجوهر البراهين.

٤- النتيجة المستخلصة من هذا الاكتشاف فى المعارف الأخرى.

(*)أنشئ فى مدينة سان بطرسبورج فى عام ١٧٥٩ لتعليم الوصفاء. (المترجم)

(**) الحرب مع حملة نابليون بونابارت. (المترجم)

٥- ملاحظة قصيرة خاصة على هذا العمل"[٣].

أثار التقييم الذى قدمه باتنكوف لأهمية عمل شامبليون الدهشة فى وسط الجدل الذى دار بسرعة عن مدى صحة النظام الذى قدمه العبقرى الفرنسى لفك شفرة الهيروغليفية:

"إن صياغة ولغة شامبليون واضحتان ومحددتان، من النادر أن نقابل كتبًا تتناول مثل هذا الموضوع العلمى يمكن قراءتها بمثل هذه السهولة، وبمثل هذه المتعة. وكان كل استنتاج تم التوصل إليه نتيجة لدراسة تفصيلية ودقيقة، ومقارنة الرموز أصبحت أساسًا له. كما أن الحقائق المثبتة بعيدة تماما عن الافتراضات وعن التخمينات، فلا توجد بها أى سمة صغيرة للخيال. وعند قراءة الأبواب المختلفة يخيل إليك أنك تقرأ عملاً حسابيًا" [٤].

ولكن للأسف لم يتمكن هذا العالم الواعد من التوصل إلى نتائج مهمة فى عمله العلمى، حيث إن حبه ونضاله من أجل "الحرية" قد دفعاه إلى معسكر ثوار ديسمبر "الديكابريست". وقد قبض عليه لاشتراكه فى المؤامرة وتم وضعه فى السجن فى ديسمبر عام ١٨٢٨. كان مصير جافريل ستيبانوفيتش باتنكوف فظيعًا، فقد أمضى أحسن سنوات عمره فى زنزانة حجرية فى الاستحكام المثلث "أليكسييف". لقد تم عزله عن العالم ٢١ عاما، ولكن روح باتنكوف المعنوية تدعو للدهشة حيث لم تحطم إرادته، ولكن على العكس، فقد أضاف إلى معرفته التامة لكل من اللغات الألمانية والفرنسية لغات جديدة هى اليونانية واللاتينية واليهودية القديمة. وقد أطلق سراحه فقط فى عام ١٨٤٦ عندما أصبح مسنا بقى له فقط أن يعود إلى وطنه. وللأسف لم يحصل جافريل ستيبانوفيتش باتنكوف على الاعتراف به الذى يستحقه عالمًا. ولكن دخلت كراسته الصغيرة تاريخ علم المصريات

---

(٣) Кацнельсон И.С. Франсуа Шампольон и Россия // Ж.Ф. Шампольон и дешифровка египетских иероглифов.-М1979,p.21-22

(٤) О египетских писменах – СПб.,1824-с.106

الروسى إلى الأبد بوصفه أول عمل علمى عرضت فيه الأسس الرئيسية لنظرية فك شفرة الهيروغليفية باللغة الروسية.

يجب إضافة أن "باتنكوف" لم يكن التابع الأوحد لنظرية شامبليون فى روسيا، ففيما يلى نعرض مقتطفًا من أقدم خطاب كتبه أحد الروس ممن راسلوا الفرنسى جان فرانسوا شامبليون:

" سيدى، ربما قد تصيبكم الدهشة من تسلُّم خطاب مرسل من بلد بعيد بهذا الشكل مثل روسيا، ومن شخص لم يتشرف للأسف بأن يعرفكم شخصيا، ولكن أسعده الحظ بأن يمتلك فى مكتبته الصغيرة أولى ثمرات فراستكم. يمكن أن يصبح خطابكم للسيد داسييه(٥) دليلاً على مقدار معرفتكم والقدر الكبير من الصبر الذى استخدمتوه لكى تنجزوا فى نهاية الأمر دراسة عن كتابة قدماء المصريين ، على الرغم من كل الصعوبات. يحيا الشعب، وخاصة من يقدر النتائج غير المتوقعة التى توصلتم إليها، والتى كللت عملكم العظيم" (٦).

كان كاتب هذا الخطاب هو أ.ن.أولينين مدير المكتبة العامة وأكاديمية الفنون، وهو إنسان شغوف جدا بعلم المصريات، تعامل مع عبقرية جان فرانسوا شامبليون بحب كبير اقترب من التأليه. وبعد تسلُّمه نسخة من " نبذات عن نظام اللغة الهيروغليفية عند قدماء المصريين" كتب لشامبليون رسالة بها إهداء بليغ بالحروف الهيروغليفية: "أوليبين يقدم لك احترامًا يليق بالملوك"(٧). ولكن إذا كان جافريل ستيبانوفيتش باتنكوف وأ.ن.أولينين وباقى العقول الفذة الأخرى فى ذلك العصر قد فهموا وقدروا صحة منطق شامبليون لفك شفرة الهيروغليفية، وحاولوا بشتى الطرق نقل فكرة هذا النظام بأسلوب سهل إلى كل المهتمين، فقد وجد آخرون لم يتركوا أية فرصة، مهما كانت صغيرة، للتشهير بشامبليون وباكتشافه.

---

(٥) المقصود هو الخطاب الذى كتبه جان فرانسوا شامبليون للسيد داسييه "السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية للنقوش وعلوم الآداب واللغة"، والذى ضمنه لأول مرة الأسس الرئيسية لنظام فك رموز الهيروغليفية.

(٦) Казьльсон И.С. Указ. Соч.-С.18

(٧) فى نفس المرجع الأخير

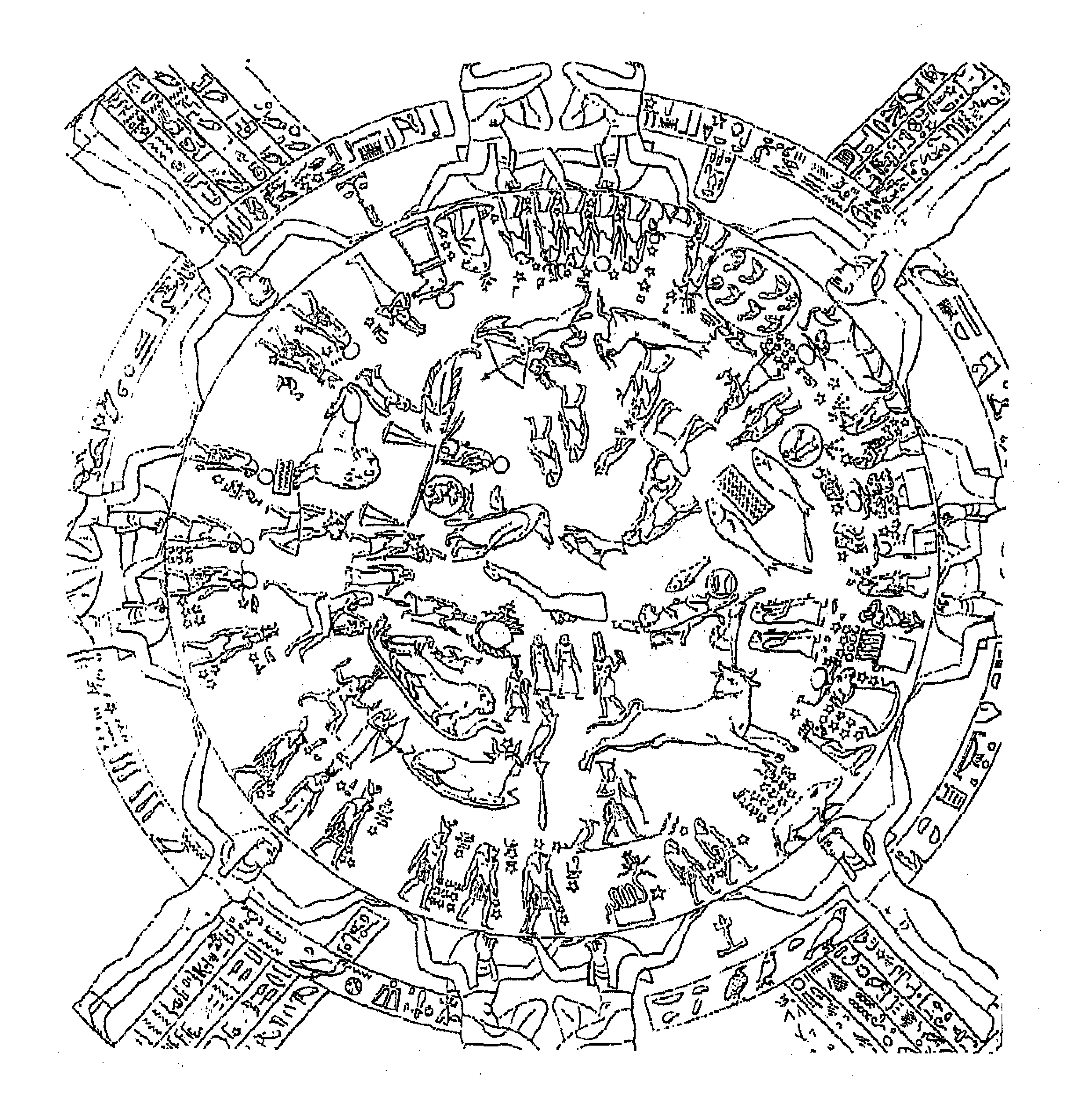
كان أكثر من يستثير العواطف المتضاربة بين معارضى أسلوب شامبليون لفك شفرة الهيروغليفية هو المستشرق الشهير والمستعرب "أوسيب إيفانوفيتش سينكوفسكى" (شكل ٢)، الذى كان يعتبر من كبار المثقفين فى زمنه، وكان رئيس تحرير المجلة التى حظيت بشعبية كبيرة "مكتبة للقراءة". كان أوسيب إيفانوفيتش سينكوفسكى بلا شك شخصًا غريب الأطوار، وكان الكثير من معاصريه، ومنهم الشاعر الشهير "ألكسندر سيرجيفيتش بوشكين" يعترفون بموهبته الأدبية الفائقة وبقدراته الصحفية الفذة. وكان عامة القراء يعرفون سينكوفسكى باسمه المستعار "بارون برامبيوس"، وقد ذكره "نيكولاى فاسيليفيتش جوجول" بسخرية فى مسرحيته "المفتش العام".



(شكل ٢) أوسيب إيفانوفيتش سينكوفسكى

كان القليل فقط من سكان مدينة سان بطرسبورج يعلمون عن شغف آخر مهم للبارون، فعندما أتم دراسته بجامعة مدينة فيلنو (فيلنوس حاليا) فى سن ١٩ سنة، وكان يتمتع بالموهبة ولكنه كان فقيرًا، قرر أن يتخصص فى علم "الشرق". استخدم سينكوفسكى النقود التى جمعها بصعوبة للسفر فى رحلة إلى سوريا ومصر، وعندما حضر إلى بلد الأهرام أحب حضارتها بكل جوارحه. وما زالت البردية الديموطيقية Demotic Papyrus التى أحضرها من مصر والتى أهداها

لجامعة كراكوفسكى إحدى أهم الوثائق المتعلقة بتاريخ مصر القديمة. وبما أنه كان يعيش فى زمن التسابق الهمجى للحصول على الآثار القديمة، فقد قام أوسيب إيفانوفيتش سينكوفسكى بمساعدة خادمه بقطع جزء من سقف معبد دندرة يمثل "بروج الأفلاك" (شكل ٣) ، دون أن ترتعش أيديهما. وفى عام ١٩٢٦ شحن هذه القطعة من آثار مصر القديمة الشيقة فى مركب كانت ستتوجه إلى روسيا. ولكن أدى قطع روسيا للعلاقات الدبلوماسية مع الإمبراطورية العثمانية إلى وقف إجراءات هذه الشحنة العادية. وفيما بعد وصل هذا الجزء الـمقطوع من بروج الأفلاك إلـى باريس، وهو معروض الآن فى متحف اللوفر.



(شكل ٣) بروج الأفلاك (من معبد دندرة)

كان هذا الإنسان الحاد الطباع يستقبل أى اكتشاف جديد بعدائية شديدة. ولكنه كان بعد مرور فترة زمنية، وبعد تفكير متعقل، كثيرًا ما يتراجع عن حكمه الأول. ويمكن أن نقول إن اغتياب الجميع وكل شيء كان عادة دائمة عند سنكوفسكى. وقد حفظت وثائق تؤكد أنه سخر، على سبيل المثال، من اكتشاف كوفييه Cuvier(*). وبالطبع لم يكن يستطيع أن يصمت تجاه الإثارة الناتجة من فك شفرة الهيروغليفية، فكتب قصة خيالية سماها "رحلة علمية خيالية فى جزيرة الدببة" ذيلها بتوقيعه المستعار "بارون برامبيوس". وقد أطلق فى هذه القصة العنان لحسده، فسخر من العالم الفرنسى العظيم ومن اكتشافه. فالبطل الرئيسى للقصة شاب من المؤمنين بنظرية شامبليون، ذهب فى رحلة إلى سيبيريا مع أحد رفاقه "شبورتسمان الحاصل على الدكتوراه فى الفلسفة، الصديق الخاص للطبيعة والحاصل على جائزة مالية من ملك هانوفر للمحافظة على علاقته بها". وقد تمكنا معا من قراءة "نص" قديم وجداه فى مغارة مهجورة باستخدام طريقة شامبليون. كان هذا النص يحكى قصة مغامرة معقدة. وقد امتزجت فى هذا العمل الخيالى المسائل الجادة مع الخيال الجامح لأفكار البارون.

"لقد قمت لفترة طويلة برحلات فى مصر، وعندما حضرت إلى باريس كان لى شرف الانتماء إلى مجموعة التلاميذ المخلصين لشامبوليون الصغير، الذى اشتهر بأنه مكتشف مفتاح الهيروغليفية. لقد حققت نجاحات مدهشة فى فترة قصيرة فى قراءة هذه الكتابات الغامضة. كنت أقرأ بطلاقة الكتابات على المسلات وعلى الأهرام، كما كنت أشرح المومياوات وأترجم البرديات وأكتب الحواشى الهيروغليفية على المناديل. كنت أكتب أيضًا مذكرات حساسة للفرنسيات بالهيروغليفية، حتى أنى قمت بفك شفرة نصف حرف غير معروف. ونتيجة لذلك وعدنى المرحوم شامبليون بمنحى الخلود بأن يذكرنى فى هوامش مؤلفه" (٨).

(*) جورج كوفييه: عالم فرنسى متخصص فى علم الحيوانات وضع أسس"العلاقة بين الأعضاء". (المترجم)

(٨) Осип Синковский. Учение Путешествие на Медвжий остров// Русская Фантстическа проза XIX- начала XX века- М.,1991.-С.1991.-С.38

نقدم مقتطفًا آخر بليغًا

"أوضحت له (يقصد رفيق المؤلف– ج. ب) أنه طبقًا لنظامنا فإن أية نقوش هيروغليفية عبارة عن حروف أو رسوم مجازية تمثل معانى مفهومة، أو حروف ورسوم معًا، أو هى ليست حروفًا ولا رسومًا، ولكن زخرفة عفوية للخط. وبهذا ليس هناك ما هو أسهل من قراءة الهيروغليفية، التى لا يخرج فيها الفكر عبر الحروف، ويجب أن يتم فيها التوضيح مجازا. وإذالم نستطع أخذ المجاز كاملاً فإنه من المسموح تخطى النقش الهيروغليفى والوصول إلى ما بعد الواضح"[٩].

من المدهش، كيف أن هذا الإنسان المثقف لم يتمكن فورا من استيعاب منطق شامبليون المستخدم لفك الشفرة، فإن نفس الرمز قد يكون طبقا لحالات محددة حرفا، أو مقطعا، أو كلمة.

فجأة تنتهى روايته البارعة، فيصل إلى مكان الاكتشاف اختصاصى بعلم المعادن والعالم المتخصص فى العلوم الطبيعية إيفان أناتوليفيتش سترابينسكيخ، حيث يتوصل إلى نتيجة غير سارة عن طبيعة النقوش الهيروغليفية.

"قال إيفان أناتوليفيتش بصوت ممدود: "تبدو هذه النقوش الهيروغليفية كما لو كانت تبلور للاستلاجمايت(من الكلمة اليونانية Stalagma أى القطرة– تكوينات معدنية طبيعية) الذى نعرفه نحن الاختصاصيين بعلوم المعادن"[١٠] .

وبالمناسبة كان يوجد علماء آخرون مسموعو الكلمة، مثل أ.أ.ديوجماتل، اعتبروا أن شامبليون لم يكن إلا دجالاً فريدًا غريب الأطوار. وفى حقيقة الأمر

(٩) فى نفس المرجع C.39

(١٠) يجب أن نشير إلى أن هذه الفكرة "العبقرية" البارون، بغض النظر عن سخافتها الغريبة، ليست جديدة. فكان من المعروف، على سبيل المثال، نظرية تقول إن النقوش الهيروغليفية ليست إلا نتيجة لتأثير أحياء ميكروسكوبية.

وجد فى روسيا من حاول الوقوف أمام ظلامية سينكوفسكى، مثل محرر مجلة "تليسكوب" ن.إ.ناديجدين الذى تابع باهتمام كل الاكتشافات، بما فيها ما تم فى مجال علم المصريات، وكذلك الناقد الروسى الشهير ف.ج.بلينسكى.

وللأمانة يجب أن نضيف ، أن أوسيب سينكوفسكى أعاد النظر فى أرائه، وأنه فى عام ١٨٢٥ كتب فى مقالة صغيرة "الآثار المصرية القديمة" فى مدينة سان بطرسبورج ظهرت فى مجلة "سيفيرنا بشيلا" (النحلة الشمالية) بمدينة سانت سان بطرسبورج بمناسبة حصول متحف الإرميتاج على مجموعة كاستيلون Castiglione قيم فيها جهد شامبليون بما يستحقه:

"لقد أعاد حل الشفرة إلى الآثار المصرية القديمة أهميتها الحقيقية وأهم غرض منها الذى يتلخص فى أنها سوف تفيد فى تأكيد ما ورد فى التاريخ وسوف تقود إلى التنقيب المستقبلى عنها" (١١).

وبالإضافة إلى ذلك فإنه كتب بصورة مناسبة عن الإنجازات الحديثة بالنسبة له فى علم المصريات، فى الرواية التى ظهرت فيما بعد فى عام ١٨٤٥ "ميكريا، سوسن النيل". وقد استخدم رسومًا مصرية أصيلة من آثار طيبة، وقد اتبع أسلوب وشكل الكثير من الآثار الأدبية المصرية القديمة التى وصلت إلى زمننا ناقصة، فقد أبقى المؤلف نهاية الرواية مفتوحة وزودها بملاحظة تقول للقارىء إن "نهاية البردية قد بليت بفعل الزمن".

من الصعب علينا أن نعترف بأن اكتشاف شامبليون لم يحظ بالتقدير الذى يستحقه فى ذلك الوقت من قبل الكثير من أحسن العقول الروسية. ويمكن فهم عداء غير الخبراء تمامًا. يمكن أن ينسب إليهم كل من المستشرق الأكاديمى "ج.ى.كابروت" والدبلوماسى "إ.أ. جوليانوف" ابن الحاكم المولدافى الذى عاش

---

(١١) №9

معظم حياته فى الخارج على حساب الحكومة الروسية، وظل حتى نهاية حياته هاويا للاستشراق.

كان كل من جوليانوف وكرابروت مجتمعين فى حملاتهما الشرسة على اكتشاف شامبليون، فبحث أحدهم فى أعمال العالم العظيم عن متناقضات ونقاط غير متوافقة. أما الثانى فقد أسس نظامه الخاص "الصحيح" لفك الشفرة.

وفى ذلك الوقت الذى كان العالم كله مأسورًا باهتمامه برموز بروج الأفلاك المصرية الغامضة، ظهرت مقالة صغيرة لمؤلف مجهول الاسم فى مجلة "تليسكوب" فى عام ١٨٣١ تم فيها التأكيد على أن تحديد التاريخ الفعلى لرسوم رموز بروج الأفلاك فى عصر الفراعنة قد أصبح ممكنًا بفضل اكتشاف شامبليون. وقد أغضب جوليانوف هذا البلاغ الصغير عن تقييم أهمية اكتشاف شامبليون لدرجة أنه ثار وكتب خطابًا على هيئة مقالة تحت عنوان "ملحوظة عن بروج أفلاك دندرة".

وقد حاول كل من جوليانوف وكرابروت دعوة شامبليون إلى مناظرة باتهامه بعدم القدرة على دحض حججهم. وقد نشرت مقالة فى عام ١٨٢٧ فى "موسكوفسكى تليجرام"(التلغراف الموسكوفى) تحت عنوان "ملحوظات شامبليون على مؤلف السيد جوليانوف" اقتصر فيها شامبليون بتقرير واقع الجهل التام الذى أظهره جوليانوف الذى لا يفهم أى شيء من القواعد الأساسية للغات القبطية وكذلك المصرية.

على الرغم من أن ذلك مؤسف جدا، فإن جوليانوف قد فرح جدا بموت جان فرانسوا شامبليون. فقد أطلق ذلك يديه؛ أحس جوليانوف أنه حان الوقت كى ينشر نموذجه الخاص لفك شفرة الكتابات المصرية. طبقًا لخطته كان يجب أن يكون "العمل" منشورًا فى ثلاثة أجزاء تضم فقط المقدمة، والغريب أن الحكومة قدمت

مساعدة مادية لجوليانوف تعطيه إمكانية استكمال "الدراسة". على الأرجح رغب رجال الدولة فى أن يبينوا للعالم كله أن "أرض روسيا تستطيع أن تلد هى الأخرى عباقرة مثل أفلاطون ونيوتون يتميزون بالإدراك السريع". وقد قام أوسيب سينكوفسكى بمقارنة نظامى كل من شامبليون وجوليانوف بأسلوبه المميز الساخر بازدراء، وتحدث عن كليهما فى روايته التى ذكرناها فيما قبل "رحلة علمية خيالية فى جزيرة الدببة":

"فى الحقيقة نازع جوليانوف إتقان نظامنا وقدم نظاما آخر، وقام بنفسه بوضع طريقة لقراءة الهيروغليفية يؤدى استخدامها إلى فهم النص بطريقة متعارضة تماما مع ما يفهم منه باستخدام طريقة شامبليون. ولكن يجب ألا يؤدى ذلك بأحد إلى الشك أو الجدل الذى يقوم به العضو المحترم بالأكاديمية الروسية مع عالم المصريات الفرنسى العظيم. يمكن أن أحل ذلك بكلمة واحدة: الطريقة التى يقدمها شامبليون تتميز بذكاء حاد، وهى مبتكرة بحيث إنه إذا كان الكهنة فعلاً حكماء لهذه الدرجة كما كانوا يصورونهم فى الماضى فهم لا يمكن أن يكونوا قادرين، ولم يكن ممكنا أن يقرأوا كتابتهم الهيروغليفية بطريقة أخرى غير طريقتنا، فإن الأبجدية الهيروغليفية التى وضعها السيد جوليانوف بدائية (ساذجة)، بحيث إنها لو كانت قد استخدمت فى أى مكان أو أى زمان، فقد يكون ذلك فقط فى المعابد عند الخدم المصريين البسطاء الذين نرغب أن نتعامل معهم أيضًا" (١٢).

على الرغم من أقواله فإن الكثير من المتعلمين، مثل الأكاديمى "بليتنيف" وعالم التاريخ المشهور والشخصية العامة الأستاذ الجامعى "تيموفى نيكولاييفيتش جرانوفسكى" قد قدروا عمل جرانوفسكى "العلمى" بدرجة عالية كافية. كان ذلك

---

(١٢) Осип Синковский. Учение Путешествие на Медвжий остров// Русская Фантстическа проза XIX--начала XX века- М.,1991.-С.1991.-С.38-39

على الأرجح احترامًا لشخص متحمس لفكرة هو نفسه مولع بها، على الرغم من أنه للأسف لم يتمكن أحد من المعاصرين من تحديد درجة "سعة العلم" الحقيقية لديه.

أدت المجادلة اللاعلمية إلى شحذ اهتمام الباحثين الروس باكتشاف شامبليون. وبدأت الطلبات تنهال على"نبذات عن نظام كتابة اللغة الهيروغليفية عند قدماء المصريين" من روسيا حتى قبل أن تنشر. ونوقشت تجارب فك الشفرة بحماس على صفحات الصحف.

يتذكر أستاذ الآداب بجامعة سان بطرسبورج "ألكسندر فاسيليفيتش نيكيتينكو"، والذى أصبح فيما بعد أكاديميًّا، الاهتمام الحماسى الذى أثارته رسوم وصور مصر القديمة، التى رسمها الرحالة الفرنسيون، عند إمبراطور روسيا أثناء زيارته للمكتبة العامة. فقد ناقش الإمبراطور "نيكولاى الأول" الذى أبدى اهتمامًا باكتشاف جان فرانسوا شامبليون "الذى وجد بهذا الحرص مفتاح فهم الكتابات الهيروغليفية المصرية" مع الأستاذ هذا الموضوع "فتشبعا عن دون قصد بالإحساس بالأبدية الموجود فى أساس العقيدة المصرية" (١٣).

قابل أيضًا الروس الذين يعيشون فى الخارج فك الشفرة باهتمام وتشوق لا يقلان عن ذلك.

فقد قام كل من السفير الروسى فى الفاتيكان "أندريه ياكوفلفيتش إيطالينسكى"، ومستشار السفارة "الكونت جاجارين"، وسكرتير السفارة "س.أ.كوساكوفسكى" بتنظيم حلقة جرت فيها مناقشة الاكتشافات الحديثة فى مجال التاريخ واللغويات وعلم الآثار، وقد حضر أعضاء الحلقة محاضرات جان فرانسوا شامبليون. وقد لخص كوساكوفسكى أهم ما دار فيها. وعندما نجح رئيس الدير

---

(١٣) А.В.Никитинко.Записки и дневники.- Т.I. Изд.2-е- С.163

الكاثوليكى "فانسى"، المعارض لفك شامبليون للشفرة، فى التشهير بهذا الاكتشاف عند البابا "ليون "الثالث عشر"، أصر كل من كوساكوفسكى والعالم والدبلوماسى الألمانى "ك.خ.بوندين" على ضرورة دحض شامبليون علنًا لهجوم ممثلى الكنيسة الكاثوليكية. كما عرض كوساكوفسكى على رئيس الدير الكاثوليكى فانسى وتابعه الألمانى "زيفارت" أن يكررا "حججهما" فى وجود شامبليون نفسه، فما كان منهما إلا أن رفضا ذلك بسبب حجة لائقة، فعقد الاجتماع بدونهما(١٤). نتيجة لذلك نشر فى روما وباريس "خطاب مفتوح من جان فرانسوا شامبليون للكونت كوساكوفسكى" وصف فيه شامبليون كوساكوفسكى وبوندين بأنهما "حواريًا نظامه فى روما".

كان مستشار السفارة الروسية فى الفاتيكان الكونت "ج.إ. جاجارين" ، وهو من أكثر الناس ثقافة فى عصره، يعرف عن الحالة المادية الصعبة لجان فرانسوا شامبليون، ورغبة منه فى مساعدة العالم العبقرى، عرض عليه سرًّا مكافأة مقدارها ١٠٠٠ فرنك عن كل محاضرة يقدمها فى السفارة البرتغالية، حتى لا يمس مشاعر شامبليون. ولكن العالم الفرنسى اعتبر أن حصوله على مكافأة شىء يمس كرامته، ورفض النقود تماما. كتب جان فرانسوا شامبليون لأخيه الأكبر، الذى رعاه، بل إنه تنازل عن مستقبله العلمى من أجله، الخطاب التالى الذى يبين تميزه عالمًا وإنسانًا. وعلى الرغم من أنه قد يرى الكثير من مواطنينا أن هذه الكلمات ليست معاصرة على الاطلاق:

"أحد أمرين، قد يكونون أساءوا فهمى، أو يسيئون الحكم علىَّ وهم يعرضون أجرًا، تمامًا كما لو كان الأمر يتعلق بعرض مسرحى. العالم الفرنسى الذى يعمل على نشر بعض المعرفة لن يفكر أبدًا فى أن يتاجر بها. أريد أن أعتقد أن هناك سوء فهم ما فى كل ذلك" (١٥).

---

(١٤) Кацнельсон И.С. Указ. Соч.-С.24

(١٥) فى نفس المرجع السابق.

تم تكريم شامبليون نظير جهوده فى علم المصريات باختياره عضوًا فخريا فى أكاديمية سان بطرسبورج للعلوم فى عام ١٨٢٧. أى أن العالم الفرنسى أصبح "أكاديميًّا روسيًّا" قبل أن يتم انتخابه عضوًا بأكاديمية النقوش وعلوم الآداب الرفيعة الفرنسية.

مجموعات الآثار وأصحاب المجموعات

من "إيفان بتروفيتش بوتنييف" إلى "أدريان فيكتوروفيتش براخوف"

مع مرور الأيام تزايد عدد المعجبين المولعين بتاريخ مصر القديمة وبفك شفرة الكتابة الهيروغليفية المصرية بين الطبقة المثقفة فى المجتمع الروسى. كانت دائرة محبى التحف المصرية فى روسيا متنوعة إلى حد ما وكانت تزيد بسرعة غير عادية، حيث ضمت أفرادًا ينتمون إلى المستويات الاجتماعية المختلفة، البحار الحربى "إيفان بيتروفيتش بوتنييف"، والمدفعىّ الحربى السابق "ديمترى يجوروفيتش يفيموف" الذى أصبح خبيرًا فى المعمار المصرى القديم، والشخصية الكنسية "بورفيرى أوسبينسكى"، والموظف الحكومى "أفرام سيرجيفيتش نوروف"، أخصائى النقد الفنى والأثرى "أدريان فيكتوروفيتش براخوف"، والمستشرق "أوسيب إيفانوفيتش سينكوفسكى"، والضابط "أندريه نيكولايفيتش مورافييف" كانوا مفتونين بالتاريخ المصرى. وبالمناسبة فإن أندريه نيكولايفيتش مورافييف بالذات هو من بذل كل جهده لكى يجلب إلى مدينة سان بطرسبورج تماثيل أبو الهول الشهيرة، التى ما زالت حتى يومنا هذا تحرس هدوء " بالميرا الشمالية"[١٦].

---

(١٦) أحد الأسماء التى كانت تطلق على مدينة سان بطرسبورج.

ظهر أول جامعي ومقتنيي الآثار القديمة في روسيا حتى قبل اكتشاف ج.ف.شامبليون لسر الهيروغليفية المصرية القديمة، وهو ما "أكسب الآثار المصرية القديمة صوتًا". كان يتم اقتناء قطع الآثار المصرية القديمة على هيئة قطع منفردة أو مجموعات كاملة. فعلى سبيل المثال، اشتهرت مجموعة "فرانسوا كاستيلوني" الذى زار مصر بصحبة الأمير "ج.إ.أفيلوف" وأحضر منها عدة مومياوات إلى موسكو. كما حصل قسم المخطوطات بالمكتبة العامة فى عام ١٨٢٧ على عدد من البرديات التى امتلكها "ب.دروفيتي"(قنصل فرنسا فى مصر).

أما نواة مجموعة الآثار الموجودة فى متحف الإرميتاج فهى تتمثل فى مجموعة "فرانسوا كاستيلوني" المكونة من ٩٠٠ قطعة، والتى حصلت عليها أكاديمية العلوم فى ميلانو مقابل ٤٠ ألف روبل. كان من أهم القطع التى ضمتها المجموعة ثلاثة توابيت جرانيتية، وسبعة تماثيل متعددة الأحجام، ومجموعة من تماثيل الآلهة والإلهات من البرونز ومن الطين المطلي بالميناء، ومن الخزف الأخضر، و١٧ فازة، و٢٩ لوحة مقبرة، وعدد من الجعارين وتمائم منقوشة، وقطع حلي، والأهم من ذلك أربع برديات مصرية. وربما يكون "إ.ب.بوتنييف" أحد أوائل مقتنيي الآثار المصرية القديمة. وهو قد أمضى فترة من عامى ١٨٣٢و١٨٣٣ فى مصر وأحضر منها الكثير من الآثار المصرية.

تعتبر شخصية هذا الإنسان فريدة تمامًا، ففى بداية طريق حياته لم يكن يتوقع له أن يكون من جامعى الآثار، وقد كان من صغار الملاك النبلاء غير الأغنياء، وكان منذ صغره مولعًا تمامًا بالبحر. وعندما أنهى دراسته بالمدرسة الأولية البحرية بمدينة سان بطرسبورج، ترقى فى مناصب الأسطول البحرى بنجاح كبير. وبصفته ضابط صف بحرى شابًا صاحَب الأمير ال "م.ب.لازاريف" فى رحلة حول العالم. كما أنه اشتهر فى معركة نافاريسكى(*) عام ١٨٢٧، فقد

(*) معركة بحرية قامت بين الأسطول الروسى الفرنسى الإنجليزى، والأسطول التركى المصرى. (المترجم)

أصيب فيها بجرح خطير، وقد بترت إحدى القذائف يده اليمنى. ولكنه لم يترك الخدمة وتمكن فى خلال الفترة القصيرة التى قضاها فى مصر من ١٩ أكتوبر إلى ١ نوفمبر ١٨٣٢ ثم من ٦ إلى ١١ يناير ١٨٣٣ من أن يكوّن مجموعة صغيرة من الآثار المصرية القديمة. كانت متنوعة تمامًا من حيث الشكل: أوانٍ من الألبستر، وتماثيل برونزية، وتماثيل للآلهة، ومومياء لتمساح، بالإضافة إلى عدة برديات، إحداها تعرف باسم "بردية بوتنييف" وتمثل أهمية كبيرة للعلم (شكل ٤).



(شكل ٤) الصفحة الأولى من بردية بوتنييف

زادت شعبية جمع الآثار، فزادت مع مرور الأيام مجموعة متحف الإرميتاج حيث أهداه العديد من الأشخاص عددًا من الآثار: "أفيروف" و"لافيزون" و"الكونتيسة لافال" و"الدوق ماكسيماليان ليختينبيرسكى" و"ف.أ.بيرفوسكى" و"جوليتسينى" و"تاتيشيفى" وغيرهم.

كما أن جزءًا من المقتنيات اشتراه متحف الإرميتاج فى مصر البردية رقم ١١١٣ المحتوية على نصوص دينية، وتابوت خشبى من أخميم، ومجموعة تماثيل من نقادة.

كانت إحدى أهم عمليات الاقتناء شراء تمثالى أبو الهول (شكل٥) اللذين عثر عليهما فى طيبة أثناء عملية التنقيب التى أشرف عليها القنصل العام البريطانى فى مصر "هنرى سالت". هذه التماثيل مصنوعة من جرانيت أسوان الوردى قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى عصر حكم الفرعون أمنحتب الثالث. وعندما رأى ج.ف.شامبليون هذه التماثيل قيمها بقدر كبير.



(شكل ٥) م.ن.فوروبيوف[المصور] منظر للمرسى وتمثالى أبو الهول (١٨٣٥)

وقد أرسل تاجر يونانى هُمام أحد تمثالى أبو الهول إلى الإسكندرية ليعثر له على مشترٍ بسرعة أكبر، وهناك رآه الكاتب الشاب "أ.ن.مورافييف" (شكل ٦) الذى كان يزور الأماكن المقدسة، وهو مثل "إ.ب.بوتنييف"، ضابط شارك فى الحرب الروسية التركية (عامى ١٨٢٨و ١٨٢٩). ونظرًا لإعجابه بجمال التمثال، قرر

شراء تمثالى أبو الهول لروسيا. وقد أرسل إلى "القيصر نيكولاى الأول" بمدينة سان بطرسبورج خطابًا أرفق به رسمًا لكى يحصل على تصريح بإتمام عملية الشراء. وقد درس مجلس أكاديمية الفنون هذا العرض لمدة طويلة. وبينما استمرت البيروقراطية الروسية فى المماطلة، اشترت الحكومة الفرنسية تمثالى أبو الهول. ولكن كما يقول المثل الروسى " لو لم تكن هناك كارثة لما وجدت السعادة"، فقد أعطت الثورة التى قامت فى فرنسا الفرصة مرة أخرى لروسيا للحصول على التماثيل. وفى هذه المرة تم دفع النقود- وهى ليست قليلة فقد مثلت ٤٠ ألف روبل- بلا أية مماطلة.

ولكن لم تنته قصة تماثيل أبو الهول بذلك، فأثناء شحن التماثيل على سفينة بضائع تحمل اسمًا كأنه للسخرية "أمل كريم" انهار الونش الرافع وانقطع حبله؛ وسقط أحد التماثيل على سطح السفينة وأصيب "بجرح" من منتصف الرقبة إلى قمة الرأس. ولكن تم التغلب على كل الصعاب بنجاح، فوصل تمثالا أبو الهول فى عام ١٨٨٢ إلى مدينة سان بطرسبورج حيث تم وضعهما على قواعد على مرسى صنعت لهما خصيصًا من الجرانيت. حدث ذلك فى عام ١٨٣٤. وبعد عشر سنوات تقريبًا نقشت على القاعدة الكلمات التالية:

أبو الهول

من مدينة طيبة القديمة بمصر

تم إحضاره إلى مدينة القديس بيتر

فى عام ١٨٣٢



(شكل ٦) أ.ن.مورافييف

من المثير أن الكثير من جامعى الآثار الأوائل لم يكونوا من علماء المصريات الحقيقيين، ولكن ذلك لم يمنعهم من الإحساس بروح الحضارة المصرية

القديمة واقتناء أشياء فريدة تمامًا. يمكن أن نورد على سبيل المثال نشاط الرحالـــة الروسى المعروف "أفرام سيرجييفيتش نوروف" مؤلف الكتاب الشهير "رحلات فى مصر والنوبة" (شكل ٧).



(**شكل** ٧) صفحة عنوان كتاب أ.س.نوروف "رحلات فى مصر والنوبة"

لقد دخل أ.س.نوروف تاريخ علم المصريات الروسى باعتباره أحد أوائل علماء الآثار ومؤرخى الفنون، ففى أثناء رحلاته فى مصر لم يكتف فقط باقتناء الآثار، ولكنه قام بعمل رسوم لها، وحاول نسخ النصوص القديمة، وقدم لنا الحد

الأقصى من الوصف التفصيلي لكل ما رآه. لكن يتلخص الفضل الكبير لنوروف في أنه أحد أوائل من عرف ضرر طريقة عمل الدراسات الأثرية للآثار "باستخدام المنقر والمعول" نظرًا لخطورتها على الآثار، فقد قام الكثير من علماء الآثار ومن جامعي الآثار بقطع الرسوم والنقوش البارزة التي أعجبتهم من المعابد والمقابر.

أثناء رحلته إلى مصر في عام ١٨٣٤ حصل نوروف لروسيا على عدد كبير من الآثار المصرية الفريدة، منها بردية طيبة التي تضم الباب ١٢٥ من "كتاب الموتى"[١٧]، الذي يعد أحد أهم الوثائق المحتوية على تصورات قدماء المصريين الدينية. كما أن أ.س.نوروف أنقذ تمثالا كبيرا للإلهة سخمت Sekhmet من التلف، وحصل عليه من قلب أطلال معبد الكرنك، وسلمه لمتحف الإرميتاج. كان التمثال يمثل سخمت على هيئة سيدة رأسها على شكل لبؤة تتربع على العرش. وقد أصبح هذا التمثال زينة المجموعة المصرية. من المثير أن الرحالة نفسه نسب التمثال الذي حصل عليه لإلهة أخرى ذات رأس لبؤة هي المحاربة نيتNeith[*]، المقدسة في سايس.

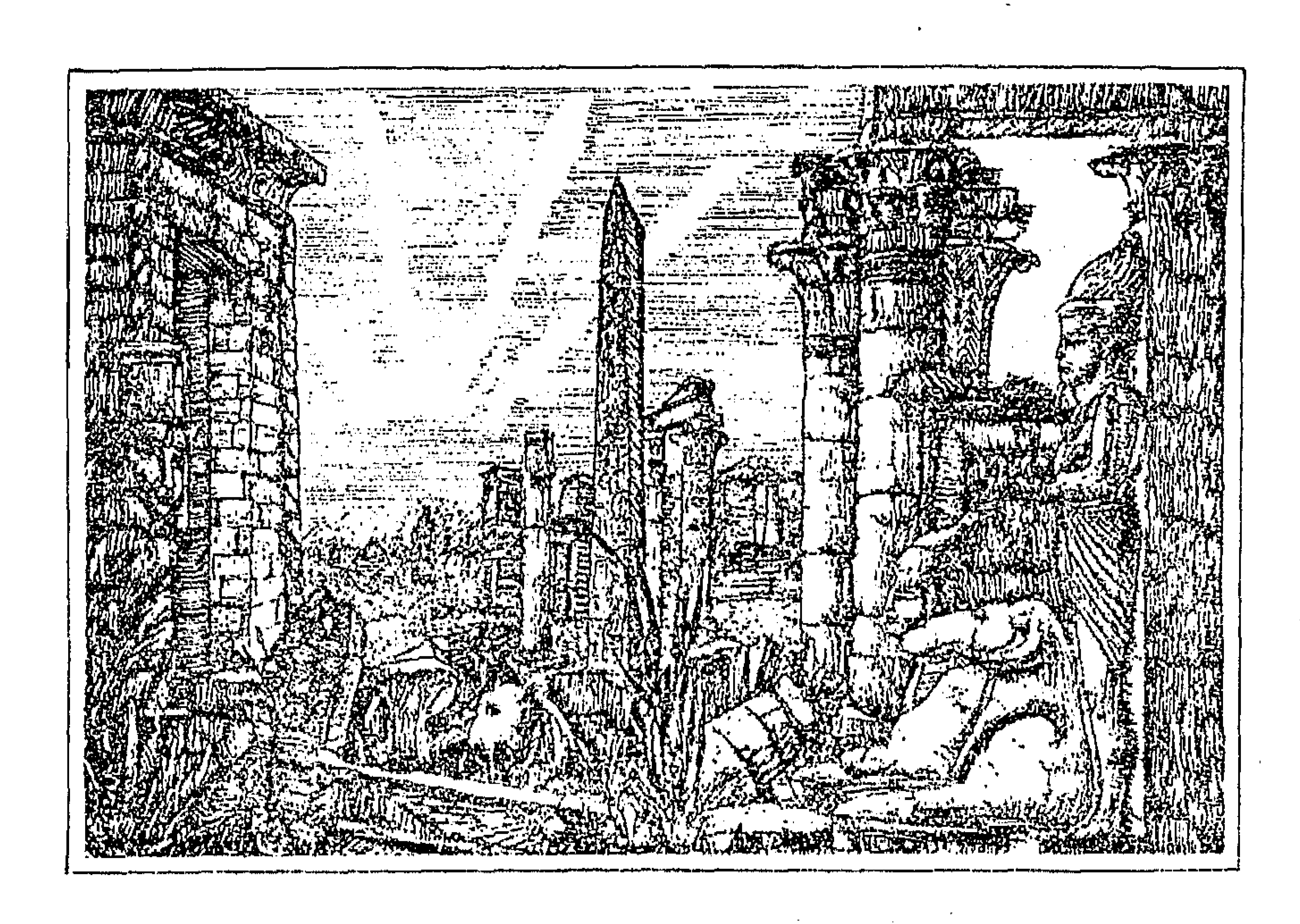
نشر كتاب من تأليف الأستاذ "د.ى.يفيموف" الأستاذ بأكاديمية الفنون اسمه "معلومات مختصرة عن المعمار المصري" باللغة الإيطالية في روما عام ١٨٣٨. وقد أصبح أحد أوائل الأعمال المتخصصة في فن قدماء المصريين (شكل ٨). كانت حياة ديمتري يفيموف هي أيضًا غير عادية، فهو ابن ضابط صف كان لا

---

(١٧) "كتاب الموتى" اسم يطلق مجازًا على نصوص ذات طابع طقوسي وتعاويذ سحرية منتشرة بتوسع في مصر في عصر المملكة الحديثة، وقد كتبت هذه النصوص على برديات ووضعت في المقابر. وقد افترض المصريون أنها ستساعد روح الميت على أن تجد طريقها في كل أخطار واضطرابات مملكة الموتى، لكي تجتاز محكمة أوزوريس بتبرئتها. ولكن تسمية "كتاب الموتى" لا تعكس معنى النصوص المكتوبة باللغة المصرية القديمة تمامًا، والتي تمثل حرفيًا "قرار متعلق بالصعود إلى النهار (الضوء)".

(*) ربة قديمة جدا من مدينة صا الحجر (سايس) لها أشكال ووظائف متعددة، وقد جعلت بعض الأساطير نيت ربة قواسة تهاجم بسهامها جميع الشياطين الشريرة، وواحدة من الحراس الأربعة الذين يسهرون على حراسة التوابيت والجرار الكانوبية. (المترجم)

يتعدى الحد الأقصى لأحلامه شغله لوظيفة غير مهمة على الإطلاق فى الأسطول البحرى. ونظرًا لمواهبه الفذة فى الرسم فقد التحق بأكاديمية الفنون على نفقة الحكومة. وبعد سبع سنوات دراسية ابتسم الحظ لهذا المعمارى الموهوب فسافر إلى إيطاليا ومنها وصل إلى مصر حيث أسره معمارها الغريب وكتب مؤلفه المشار إليه أعلاه.



(شكل ٨) عناصر مميزة لمعمار مصر القديمة (بريشة د.ى.يفيموف)

كثيرًا ما يذكر "أدريان فيكتوروفيتش براخوف" (١٨٤٦-١٩١٦) بوصفه مالكًا لمجموعة صغيرة فقط من الآثار المصرية، على الرغم من أن هذا المثقف المميز فى زمنه عالم آثار واختصاصى فى تاريخ الفن، وأنه ترك أثرًا واضحًا فى دراسة فن مصر القديمة.

أمضى السيد براخوف جزءا كبيرا من حياته فى الخارج. وقد عاد إلى روسيا فقط بعد حصوله على درجة الدكتوراه فى الفن اليونانى ليصبح أستاذًا مساعدًا فى عام ١٨٧٣ بجامعة سان بطرسبورج، وانغمس بجدية فى دراسة فن الشرق القديم، وتعاطف مع المعمار المصرى. كانت رسالته التى كتبها للحصول على درجة الدكتوراه فى نظرية وتاريخ الفن تحمل عنوان " ملاحظات نقدية لأشكال الفنون الجميلة، فن العمارة فى مصر القديمة". يجب ألا ننسى أنه ألف كتابًا فى السبعينيات من القرن التاسع عشر عندما كان علماء الآثار مشغولين حتى ذلك الحين فقط بجمع ونشر الآثار، وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال على مستواه العلمى. وعلى أية حال كانت هذه أول دراسة علمية عميقة باللغة الروسية تكتب على أساس دراسة عميقة لما نشر فى مجال علم المصريات.

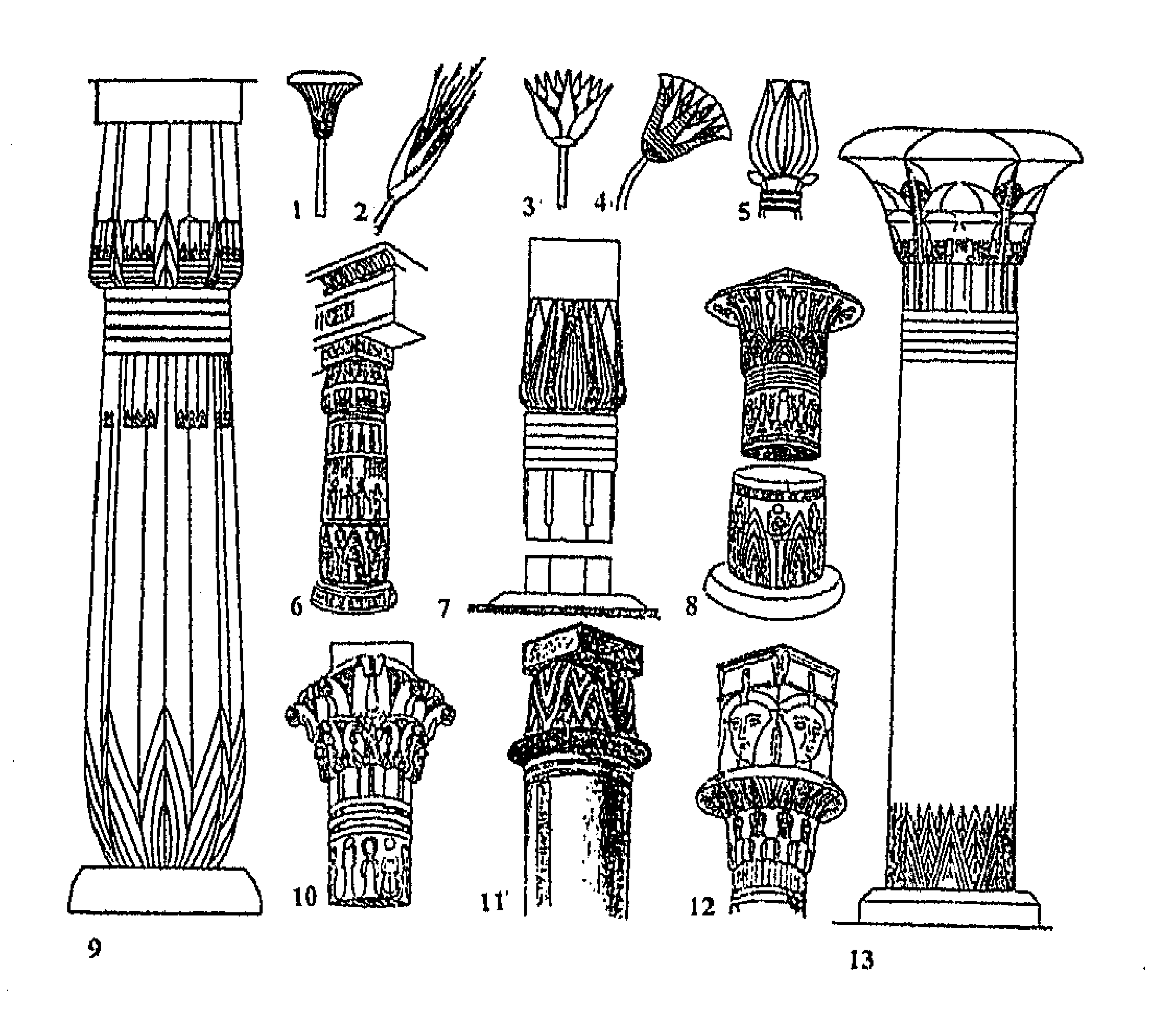
حدد براخوف لنفسه هدفًا يتلخص فى تتبع نشوء الأشكال المختلفة للمعمار المصرى العظيم، المعابد والمقابر، وقد اعتقد أن نموذجها الأصلى يمثل سكن البدو الرحل. كان من رأيه أن التغيير فى تخطيط السكن قد أدى إلى التغيير فى شكل الأبنية الأثرية، خاصةً المقابر، حيث إن المصريين كانوا يحاولون إعادة خلق ظروف الحياة التى اعتادوا عليها على الأرض فى العالم الآخر. فهو لم يكتف فقط بتعميم المعلومات المشتتة عن تاريخ المعمار المصرى، ولكنه توصل أيضًا إلى عدد كبير من النتائج المميزة التى ثبتت صحتها فيما بعد (على سبيل المثال، نظريته عن أصول حضارة المعمار الدينى الحجرى). وكثيرًا ما كان يتجادل مع أقطاب علماء الآثار العالميين. فعلى سبيل المثال، لم يتقبل إحدى مسلمات أحد أعلام علم المصريات الألمان "ريخارد لبسيوس" الذى أرجع ظهور الأعمدة وأهم عناصر المعمار إلى رغبة المصريين الشديدة فى إرضاء احتياجاتهم الجمالية، وقد عبر براخوف عن اعتقاده بأن أصل الأعمدة هو دعائم المساكن البدائية.

"من الصعب تصديق أن المصريين القدماء كانوا منذ ٣٠٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح، فى زمن بداية الحضارة الإنسانية، يتبعون نفس المفاهيم الجمالية التى يتبعها لبسيوس المعاصر" (١٨).

قام "أ.ف. براخوف"، الأستاذ المساعد بجامعة سان بطرسبورج، لمدة عدة سنوات بتدريس محاضرات البرنامج الدراسى لتاريخ الفن فى مصر وآشور وبابل وفينيقيا واليونان. ولأنه متحدث موهوب فى هذا المجال، فقد توافد الشباب الراغب فى دراسة فن الشرق القديم من كل أنحاء سان بطرسبورج للاستماع إلى محاضراته. وكان الشباب يخرج بعد حضور محاضراته متحمسًا لدراسة فنون الشرق العظيم. وبلا شك لعب هذا دورًا إيجابيًا فى تكوين المدرسة البطرسبورجية لعلم المصريات.

---

(١٨) Прахов А.В. Критические наблюдения над формами изящных искусств. Зодчество древнего Египта. – Вып.I.- СПб. 1880.-С.47



(شكل ٩) عناصر الأعمدة المصرية

١ – رسم برعم زهرة اللوتس فى الرسوم المصرية .

٢ – زهرة البردى .

٣ – زهرة اللوتس .

٤ – رسم لزهرة اللوتس فى الرسوم المصرية (مفتوحة) .

٥ – رسم لزهرة اللوتس فى الرسوم المصرية (مغلقة) .

٦ – عمود على شكل نبات البردى (مدينة آبو"جزيرة ألفنتين حاليًا").

٧ – عمود برأس على هيئة زهرة لوتس مغلقة (أبو صير).

٨ – عمود برأس على هيئة زهرة بردى مفتوحة (طيبة).

٩ – عمود برأس على هيئة حزمة من براعم زهرة البردى (هوارة).

١٠– رأس بخصلات (فيلة).

١١– عمود على هيئة "جرس" مقلوب (الكرنك).

١٢– رأس حتحور (فيلة).

١٣– عمود برأس على هيئة زهرة بردى مفتوحة (فيلة).

أُوفِد "براخوف" فى شتاء عام (١٨٨١-١٩٨٢) فى مهمة إلى مصر والسودان وسوريا لكى يتعرف على تفاصيل فن الآثار القديمة الشرقية. وللأسف فإن ما حفظ من معلومات عن هذه الرحلة قليل، فمن المعروف أن القدر أراد أن يكون رفيقاه فى هذه الرحلة هما الرسام الروسى "فاسيلى ديميتريفيتش بولينوف" والمستشرق "س.س.أباميليك-لازاريف".

وقد تمكن كل من "م.أ.كوروستوفتسيف" و"س.إ.زخودجاش" من تحديد أهم معالم الرحلة المصرية اعتمادًا على ما هو مدون فى مذكرات براخوف التى لم تنشر. نزلت هذه البعثة الصغيرة من الإسكندرية إلى أسوان عن طريق النيل، وتوقفت فى القاهرة والأقصر وإسنا وإدفو وكوم أمبو. وقد جمع براخوف الآثار من كل مكان استطاع فيه ذلك؛ لذلك كانت مكونات مجموعته متنوعة تماما، تمائم وقطع من النسيج القبطى وقطع من البرديات وأية أشياء تمثل أهمية للباحث. وقد تم شحن المجموعة بطريق الصدفة التراجيدية على سفينة غرقت خلال عاصفة بالقرب من مدينة أوديسا، وفقد الجزء الأكبر منها بما فيه من نسخ ورسوم. أما المقتنيات الأثرية التى جمعها ونجت فقد انضمت إلى مجموعة المتحف الحكومى للفنون الجميلة[١٩]، كما أن جزءًا منها يكون المجموعة المصرية فى متحف الإرميتاج. وأهم ما فى هذه المجموعة الأخيرة البردية المعروفة باسم "بردية براخوف".

عند عودته من سفراته البعيدة انخرط العالِم، الذى شاهد بأم عينه الحضارات القديمة العظيمة فى الأزمنة القديمة، فى دراسة الآثار القديمة لبلده. وبناءً على مبادرته تم فى القسطنطينية إنشاء معهد الآثار الروسية، الذى ضم فيما بعد أيضًا المجموعة المصرية والبيزنطية الشهيرة التى انضمت إلى مجموعة الإرميتاج فى العشرينيات من القرن العشرين، بعد تصفية المعهد.

---

(١٩) متحف أ.س. بوشكين الحديث للفنون الجميلة.



(شكل ١٠) الأقصر. تمثال رمسيس الثاني (صورة التقطت في بداية القرن العشرين)

"فلاديمير جيورجفيتش بوك" و ميلاد علم القبطيات الروسى

شكلت دراسة الآثار البيزنطية القديمة أحد الجوانب القوية فى الاستشراق الروسى. ولكن بدرجة اهتمام أقل بتاريخ مصر أثناء العصر القبطى[٢٠] الذى يعتبر جزءًا سابقًا على تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

كان "فلاديمير جيورجيفيتش بوك" (١٨٥٠-١٨٩٩) أول باحث روسى درس مصر القبطية، على الرغم من أن تخصصه بعد تخرجه فى جامعة سان بطرسبورج كان "علم المعادن"، فقد شغف فلاديمير جيورجيفيتش تمامًا بالشرق. وعندما تم تأسيس قسم العصور الوسطى وعصر النهضة فى متحف الإرميتاج فى عام ١٨٨٥ وافق بفرحة كبيرة على أن يكون أمين آثاره، واستمر فى هذه الوظيفة إلى نهاية حياته.

---

(٢٠) أصل كلمة "قبط" جاء من كلمة qubt التى تمثل تعبيرا بالرموز الصوتية باللغة العربية لكلمة aiguptios أى المصرى. وقد أصبح المسلمون الذين فتحوا مصر فى عام ٦٤١ م. يطلقون على السكان المحليين الاسم المحرف من الاسم اليونانى ((ai)gupt(ios)) طبقا لتوافقه مع نغمة اللغة العربية. كان المسيحيون يمثلون جزءًا كبيرًا من السكان المصريين فى ذلك الوقت، لذلك كان العرب يستخدمون هذه الكلمة بالنسبة لكل السكان جميعًا. وبالتدريج أصبحت كلمة "قبط" ترتبط بالمسيحيين المصريين، وحتى بعد أن تخلوا عن استخدام اللغة العربية فقد استمروا فى تسمية أنفسهم "قبط"، ولغتهم الأصلية "القبطية". وقد حدث للغة المصرية على مدى عملية تطورها تغيرات مهمة، وأصبحت تختلف بطريقة مدهشة للغاية عن اللغة التى كانوا يتحدثون بها فى عصر الفراعنة. وقد وضع أول مترجمى "العهدين القديم والحديث" أبجدية موحدة عرفت فيما بعد بالقبطية. كانت تتكون من ٢٤ حرفًا يونانيًا و٧ حروف مصرية. وفى الوقت الحالى تستخدم اللغة القبطية فقط للخدمة الدينية التى تؤدّى جزءًا بالعربية، وجزءًا باللغة القبطية.

أصبح "فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف" رفيقًا لبوك فى رحلته الأولى إلى مصر التى كان هدفها تزويد مجموعة الإرميتاج بالآثار المصرية. ولكن إذا كان اهتمام جولينيشيف الأول هو آثار العصور القديمة فإن بوك شغف بآثار مصر المسيحية. وقد مثلت مجموعة النسيج التى تم جمعها أثناء هذه الرحلة بداية المجموعة المعروفة بمتحف الإرميتاج.

وعند عودته ثانية إلى مصر، قام العالم بعمليات تنقيب استكشافية فى عدة أديرة وجبانات من العصر القبطى. كان أهم هدف له هو مدينة الموتى فى واحة "الخارجة". وقد تم نشر نتائج هذه البعثة فقط بعد وفاته فى عام ١٩٠١ فى العمل الشامل"مواد عن علم آثار مصر المسيحية"، الذى لم يتم فيه فقط وصف الآثار التى تمت دراستها وإنما حاول فيه أيضًا إعادة بنائها على أساس التحليل الفنى للبناء فى ذلك العصر وتطور طراز المبانى.

عُرفت المعلومات عن عمليات التنقيب التى قام بها بوك من كلمات مفتش إدارة الآثار المصرية فى ذلك الوقت "أحمد فخرى" الذى حكى عنها فى عام ١٩٤٥ لعالم الآثار الروسى "م.أ.كوروستوفتسيف".

كان بوك يقوم بمواصلة جمع الآثار القبطية والإسلامية المصرية بشغف فى الأوقات التى لم يكن فيها مشغولاً بالتنقيب، وقد استمر اهتمامه كما كان فى السابق بجمع الآثار المتعلقة بنماذج النسيج، مما سمح له بتنمية مجموعة الأقمشة القبطية.

أثناء دراسة بوك للأنسجة القبطية، التى كانت تعانى المعلومات عنها من نقص كبير فيما يخص تاريخ فن العصور الوسطى، قام بتصنيفها فى مجموعتين، تلك التى تمت صناعتها بتأثير من الفن الشرقى القديم والحضارة القديمة من ناحية، وتلك التى تعدت مواضيع الديانة المسيحية من الناحية الأخرى (شكل ١١). وقد سمحت له هذه الطريقة فى تعامله مع موضوع الدراسة أن يصل إلى عدد كبير

من الاستنتاجات المهمة، منها على سبيل المثال إظهار الأساليب المحلية المتبعة لإنتاج النسيج. ويرى العالم أن تأثير الفن المصرى القديم قد ظهر أولا فى واقعية رسم عالم الحيوان والنبات. ويجب الإشارة إلى أن فلاديمير جيورجيفيتش أحد أوائل من بيَّن الدور المهم الذى لعبه الفن القبطى المصرى فى تشكيل الفن الروسى المسيحى.



(شكل ١١– أ) أنسجة قبطية بمواضيع مسيحية وقديمة: تقديم ضحية إسحاق



(شكل ١١– ب) أنسجة قبطية بمواضيع مسيحية وقديمة: آلهة الحب

وقد عمل الباحث الكثير أيضًا للمحافظة على التراث القبطى، فقد قام – بناءً على طلب من إدارة الآثار المصرية – بوضع نظام خاص للمحافظة على الآثار المسيحية القديمة. وكما حدث مع من سبقوه ومع معاصريه، فقد اقترن اهتمامه بتاريخ مصر بالاهتمام بالآثار القديمة عامة. وقد أدى ذلك إلى عمله بصورة منظمة فى مجال علم الآثار القديمة والفن البيزنطى.

أوائل علماء المصريات الروس المحترفين

حياة وقدر "أوسكار إدواردوفيتش ليم"

كانت نهاية القرن التاسع عشر هى الفترة التى تم فيها جمع المواد الأساسية والاستنتاجات الأولية والتصورات العامة عن مصر.

ففى عام ١٨٤٦ تم تأسيس الهيئة الروسية لعلم الآثار التى ضمت قسم الآثار الشرقية، وكان رئيس الهيئة فى الفترة من عام ١٨٩٢ إلى ١٩١٥ هو رئيس أكاديمية العلوم الأمير العظيم "كونستانتين كونستانتينوفيتش". وكانت نتائج أعمال الهيئة تناقش فى الاجتماعات العلمية المنتظمة، كما كانت الأبحاث الخاصة بتاريخ وآثار الشرق تنشر فى نشرة خاصة "زابيسوك" (مذكرات).

وفى فترة من ستينيات إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر أصبحت دراسة تاريخ مصر القديمة ضمن برنامج محاضرات عن تاريخ الشرق القديم، الذى كان يدرس فى كليات التاريخ بالمعاهد والجامعات الروسية. فقد ظهر فى مدينة خاركوف برنامج محاضرات عن حضارة مصر القديمة، كان يقدمه الأستاذ الجامعى "أ.روسلافسكى بيتروفسكى"، الذى كان يقوم بتحليل نقدى للمراجع التى تتناول تاريخ مصر (وبالطبع، يجب الاعتراف بأن الدراسات المتعلقة بتاريخ وحضارة مصر كتبت طبقًا لمستوى المعلومات الحديثة لدى المؤلف فى ذلك الوقت).

تمت ترجمة مؤلف ك.أوبيل "عجائب بلد الأهرام القديمة" فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر. رسوم جغرافية وتاريخية وحياتية لمصر القديمة فى فترة ازدهارها وانهيارها. كانت لغة هذا المؤلف جميلة جدا، وعلى الرغم من أن المعلومات التى تضمنها الكتاب كانت مشكوكًا فيها وغير مترابطة فقد صدرت عدة طبعات من هذا الكتاب نظرًا للشغف الكبير بالتاريخ القديم، خاصة لدى الشباب.

كان "أوسكار إدواردوفيتش ليم" (١٨٥٦-١٩١٨) أحد أوائل علماء المصريات المحترفين فى روسيا، فبعد إكمال دراسته فى مدرسة "أليكسندروفسكى ليسيه" سافر إلى ألمانيا لدراسة علم المصريات، وقد تلقى العلم هناك على يد مؤسسى المدرسة الكلاسيكية الألمانية "جورج إيبرس" بمدينة ليبزيج و"ريخارد ليبسيوس" فى برلين. وقد حصل ليم على درجة الدكتوراه فى عام ١٨٨٢ من جامعة ليبزيج.



(شكل ١٢) أوسكار إدواروفيتش ليم

وكانت رسالته[٢١] تتناول دراسة البردية رقم ٥٥ بالمتحف الملكى ببرلين، والتى تحتوى على معلومات عن عبادة الإله أمون بمصر القديمة.

وبإصداره مختارات من نصوص مصر القديمة[٢٢] فى عام ١٨٨٣، قدم فى واقع الأمر لأول مرة لعلماء الآثار إمكانية التعرف على الكتابات الأثرية لمصر القديمة قبل عصر البطالسة، ولكن للأسف صدر منها الجزء الأول فقط، حيث إنَّه كان من المخطط أن

(٢١) Studien zum Ritualbuch des Ammondienstes: Inaugural Dissertation- Lpz.,1882

(٢٢) Ägyptische Lesestüke zum Gebrauch bei Vorlesung und zum Privatstudium mit Schriftafel und Glossar.-Th1. Schriftafel und Lesest

تصدر فى أجزاء متعددة. وقد استقبل المتخصصون صدورها فى الوقت المناسب بفرحة كبيرة. وقد أصبحت مختارات ليم مرجعًا قرأه كل علماء المصريات فى جيله، حتى صدرت المختارات المماثلة "لأرنولد إرمان".

أصبح أوسكار ليم اعتبارًا من عام ١٨٨٣ أمينًا للمتحف الآسيوى بأكاديمية العلوم. وبدءًا من عام ١٨٨٦ ألقى محاضرات عن علم المصريات ودرس اللغة القبطية فى كلية اللغات الشرقية بجامعة سان بطرسبورج. واعتبارًا من عام ١٩٠١ أصبح عضوًا فى المعهد المصرى بالقاهرة. وفى عام ١٩٠٦ تم اختياره عضوًا مراسلاً بأكاديمية العلوم.

نشر ليم كتابه الصغير[٢٣] فى عام ١٨٩٠ لتلبية احتياج المستمعين بمدينة سان بطرسبورج ، الذى ضم – بالإضافة إلى مختارات النصوص المصرية – الصياغة المحفوظة للباب الأول من "كتاب الموتى" الذى نشره "إدوارد نافيل"، والتى احتلت جزءًا كبيرًا منه، كما ضم أناشيد للإله أمون من بردية محفوظة بمتحف بولاق، وبكائيات إيزيس ونفتيس مكتوبة ومعبرًا عنها بالرموز الصوتية الهيروغليفية.

كان ليم خبيرًا ماهرًا فى الكتابات القبطية فأعطاها اهتمامًا متزايدًا وخصص تقريبًا كل وقته لعلم اللغة. كان يتبادل المراسلات بنشاط مع ف.س.جولينيشيف بخصوص ترجمة النصوص القبطية، كما أنه كان كثيرًا ما يطلب منه أثناء وجوده فى مصر نسخ أحد المخطوطات التى تهمه. وقد درس ليم بدقة النصوص القبطية الأثرية التى وصلت إلى يديه فى عام ١٨٥٣ من الأديرة القبطية بعد الرحلة الثالثة "لتيشندورف": ورق الرق بالصعيدية[٢٤]، ومقاطع من الكتابات المقدسة لوسط

---

(٢٣) Excerta e libris sacris veterum Aegyptiorum in usum scholarum sumptibus Imperialis Literarum Universitatis Petropolitanae- Petropolis, 1890

(٢٤) كانت توجد فى اللغة القبطية خمس لهجات (الصعيدية والأخميمية والسوبحميمية والبحيرية والفيومية). وقد كانت هناك أهمية خاصة للهجات الثلاث الرئيسية: الأخميمية والصعيدية والبحيرية، اللهجة الأخميمية هى الأقدم وكانت منتشرة فى مصر العليا، وقد تركت مكانها مبكرًا (قبل العصر الإسلامى) واللهجة الصعيدية كان مسماها يطلق على لهجة منطقة طيبة، أى مصر العليا، وقد كتبت بها معظم المؤلفات القبطية الكلاسيكية. وفى بداية الألفية الثانية ونظرًا لأن مراكز البطريركية القبطية انتقلت إلى الإسكندرية والقاهرة فإن اللهجة الصعيدية تركت مكانها تدريجيا للبحيرية (أى لهجة مصر السفلى). واللهجة الأخيرة تماثل بشكل ما اللغة المستخدمة فى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية.

مصر، وحلول الروح الأمين، وتاريخ الشهداء المقدسين ، وتاريخ البطارقة السكندريين...إلخ. وقد حفظت مخطوطات كتب الخدمات الدينية البحيرية الأقدم بالمتحف الآسيوى وبمعهد اللغات الشرقية بوزارة الخارجية. وقد زادت المقتنيات القبطية فى هذه المجموعة بشكل كبير بفضل ما حصل عليه ف.س.جولينيشيف وبعثات ف.ج.بوك بمبادرة من متحف الإرميتاج.

أنقذ أوسكار ليم الكثير من المخطوطات التى لا تقدر بثمن من التلف التام، عندما أشار فى كلمته فى المؤتمر الدولى للمستشرقين بليدين فى عام ١٨٨٣ إلى الحالة السيئة التى تحفظ بها مخطوطات المكتبة العامة الإمبراطورية بمدينة سان بطرسبورج وإلى أهمية هذه النصوص، ثم تم نشرها فى ليبزيج بعد عامين.

قام وهو يعد المخطوطات القبطية للنشر بالبحث عن أجزاء النصوص المبعثرة فى متاحف ومكتبات العالم كله وإعادة بنائها. وقد كانت هناك حاجة ماسة للعمل مع هذه النصوص ووضع القواعد الكاملة للغة القبطية. وقد انتقد جولينيشيف فى أحد خطاباته لليم القواعد العملية للغة القبطية المتوفرة فى ذلك الوقت، والتى وضعها ل.شتيرن و ج.شتايندورف، لأنها تمكن من تعلم التحدث بالقبطية، ولكنها لا تمنح أبدا القدرة على فهم بنية هذه اللغة. لذلك السبب بالذات أشار ف.س. جولينيشيف إلى ضرورة وضع قواعد تعليمية، وهو قد قدر جهود أ.إ.ليم فى هذا المجال حق قدرها، حيث إنّه كتب بنفسه عددًا كبيرًا من المقالات ذات الطابع النحوى واللغوى. وللأسف لم يتمكن ليم من الانتهاء من وضع قواعد النحو التى ابتكرها للغة القبطية.

كان أ.إ. ليم أول عالم مصريات وعالم قبطيات روسى قام بالتدريس فى الجامعة وأسّس التقاليد العلمية لعلم المصريات بين الشباب فى ذلك الوقت عندما كانت دراسته تعتبر عملاً غريبًا. كانت جهوده نحو معروضات أقسام الشرق الكلاسيكى والمسيحى بالمتحف الآسيوى عالية المستوى، فقد ترك الكثير من نسخ

المخطوطات القبطية والإثيوبية التى تم نقلها من الأصول الموجودة فى مكتبات ومتاحف مختلف الدول، كما أنه كتب عددًا ضخمًا من المقالات والدراسات.

ازدهار علم المصريات الروسى

"فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف"

فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف (١٨٥٦-١٩٤٧) (شكل ١٣) شخصية عالمية بكل المقاييس، فهو يجسد زمن ازدهار علم المصريات، الذى اكتسب بفضل جهوده مكانة علمية حقيقية وحصل على اعتراف كامل به. كان زمنه هو زمن "أخوة علماء المصريات من جميع أنحاء العالم"، عندما تكونت أسرة العلماء المتحمسين من مختلف البلاد، الذين جمعهم عمل واحد، بدأه شامبليون باقتدار عظيم. كان ذلك زمن العلماء ذوى المعرفة الواسعة فى مختلف المجالات من ذوى الموسوعية فى مجال علم الآثار واللغات والآداب والتاريخ وتاريخ الحضارة وفن المجتمعات الشرقية القديمة، وكان من بين هؤلاء ف.س.جولينيشيف، وقد أصبحت دراسة العالم الغامض والأصيل هى رسالته.



(شكل ١٣) ف.س. جولينيشيف

ولد جولينيشيف فى عائلة تاجر ميسور الحال يعمل فى مجال صناعة الذهب، وحصل على تعليم رائع بالمنزل. وقد أولع بعلم المصريات منذ سنوات شبابه، وكان يحب بشغف كل ما له علاقة بمصر. أنهى فلاديمير جولينيشيف تعليمه فى عام ١٨٧٩ فى كلية اللغات الشرقية بجامعة سان بطرسبورج، ثم تم تعيينه فى متحف الإرميتاج بلا مرتب. فى ذلك الوقت كان هو الخبير الوحيد فى علم المصريات بمدينة سان بطرسبورج، وقد حفظت وثيقة طريفة حتى يومنا هذا عن وصف مدير الإرميتاج فى ذلك الوقت "أ.أ.فاسيلتشيكوف" للسيد جولينيشيف فى تعريف أرسله باسم وزير البلاط الإمبراطورى، فقد كتب عن أنه شخص متحمس محب لعمله، كما أنه عبر عن أمله فى أن هذا العالم الشاب سوف يقوم أخيرا بترتيب مجموعة الآثار المصرية القديمة بالإرميتاج.

من الصعب تمييز اتجاه معين لدراسة جولينيشيف لتاريخ وحضارة مصر، فقد دخل تمامًا فى حياته حبه لجمع الآثار ودراسة اللغة المصرية، وترجمة النصوص المصرية والبحث عن الآثار.

ترتبط ذكرياتنا عن فلاديمير جولينيشيف، قبل أى شىء، بمجموعته الشهيرة عالميا، والتى أصبحت نواة مجموعة مقتنيات الآثار المصرية بمتحف الفنون الجميلة. وقد وصف المستشرق الروسى الشهير والأثرى "م.إ. روستوفتسيف" مجموعة جولينيشيف بأنها "مصر فى صورة مصغرة".

بدأ فلاديمير جولينيشيف جمع الآثار المصرية القديمة وهو شاب، حيث إنه كان يعتقد أن جمع المقتنيات عمل مهم جدا. كان يهتم بكل شىء بدقة متناهية، سواء كان ذلك جزءًا صغيرًا من بردية أو تابوتًا خشبيا منحوتًا. وقد ساعدته الظروف، فكونه شخصًا ميسور الحال تمامًا مكّنه من اقتناء حوالى ٦٠٠٠ قطعة من الآثار المصرية غالية الثمن، والقيام بستين بعثة للبحث عن الآثار وعن المخطوطات الأثرية على نفقته الخاصة. وفى هذا الوقت بالذات اختلفت النظرة إلى

الدراسات الأثرية. فقبل ذلك، عندما كان الفرنسيان "ج.ليجران" و"ف.لوريه" يعملان فى وظائف المسئولين عن القيام بأعمال الحفريات، كانت عمليات البحث عن "الآثار" تشبه عملية النهب الهمجى، كما أن عدم الاكتراث بالمحافظة عليها أدى إلى تدميرها وضياعها، كما كان يتم تخاطف تاريخ مصر خارج الحدود، فكان يمكن الحصول على أى شيء ونقله مقابل المال، حتى المقابر والمعابد. وقد تحسن الوضع بتعيين "جاستون ماسبيرو" فى هذه الوظيفة (وقد أصبح أيضًا مديرًا للمتاحف المصرية). وعندما أنشئت مصلحة الآثار القديمة فى مصر[٢٥] تحسن الوضع، فقد أصبحت عمليات التنقيب ودراسة الآثار تتم تحت درجة معينة من الرقابة.

فى ذلك الوقت كان العلماء يتوافدون إلى مصر من جميع أنحاء العالم، كان علم المصريات لا يزال يخطو خطواته الأولى كعلم جديد. كان جامعو وعلماء الآثار وعلماء الآداب القديمة قد بدأوا منذ فترة وجيزة فقط فى الدراسة العلمية لما تم إعادة اكتشافه من كنوز روحية "لبلد الفراعنة" بفضل التوصل إلى فك شفرة الكتابات المصرية. وقد أنشئت فى القاهرة أول معاهد للآثار، وتزايد عددها بسرعة. وكانت دراسة التاريخ المصرى لا تتم فيها أساسًا فى الموقع، بل كانت الآثار التى يعثر عليها تُنقل إلى الخارج . كان علماء المصريات فى ذلك الوقت يعانون من الإغراء نتيجة وقوفهم أمام أحد اختيارين، إما اقتناء ما لا يقدر بثمن مما يعثر عليه عند التجار المحليين ومعارفهم من تجار الأنتيكات المحليين فى السر، أو تسليمها لمصلحة الآثار القديمة على أمل كشف مصدر هذه القطع. ولكن للأسف، غالبًا ما كانت الرغبة فى امتلاك الآثار هى التى تنتصر. على أية حال، فقد اكتسب علماء الآثار خبرة القيام بأعمال التنقيب، وتعلموا كيفية التعامل بحرص مع الآثار القديمة. وقد تميزوا بذلك عن الأهالى المحليين الذين كانوا يحطمون

---

(٢٥) أصبحت الآن "المجلس الأعلى للآثار" فى جمهورية مصر العربية.

– بلا أى ندم – الآثار التاريخية التى لا تقدر بثمن فى أثناء تسابقهم فى البحث عن تلك التى تحظى بإقبال السائحين.

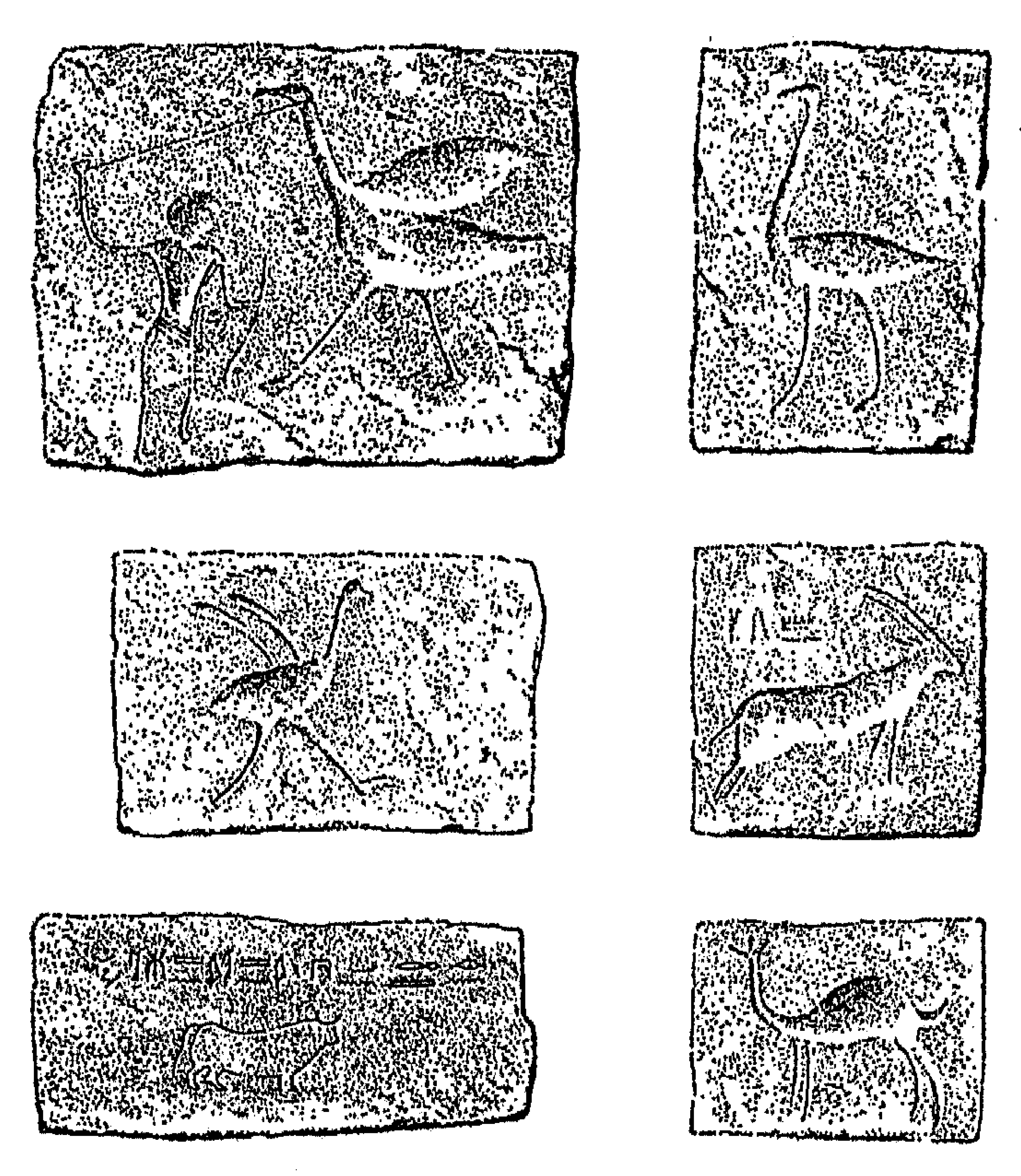
وقد أسعد الحظ ف.س. جولينيشيف بأنه قام بالكثير من الرحلات فى ذلك البلد فى هذا الزمن الصعب لعلم المصريات، وقد عرفه ذلك بطريقة مباشرة بمصر. ولم تقتصر مسارات رحلاته على وادى النيل، فقد دفعته غريزة العالم العارف بتاريخ وحضارة عدد كبير من البلاد الشرقية القديمة إلى البحث عن آثار أقدم الحضارات بعيدًا شرق وغرب النيل.

قام بأول رحلة له إلى مصر فى عام ١٨٧٩، فأصبح أسيرًا لهذا البلد ولأهله ولتاريخه إلى الأبد. كان جولينيشيف ملمًّا تمامًا باللغة العربية، كما أنه كان شخصًا جذابا؛ مما سهل تآلفه مع تجار الأنتيكات المحليين، وحصوله منهم على كل من القطع الأثرية والمعلومات عن الأماكن التى عثروا فيها عليها، والتى لم يكن يعرفها علماء الآثار القديمة بعد.

وفى عامى ١٨٨٤–١٨٨٥ ذهب فلاديمير جولينيشيف إلى الصحراء العربية بعد عالم المصريات الألمانى العظيم "ريخارد ليبسيوس" الذى قام بزيارة لوادى حمامات فى عام ١٨٤٥. كان فى رأيه أن الوادى لم يكن مجرد مصدر فقط للأحجار الرائعة بالنسبة للمصريين، ولكنه كان أيضًا شريانًا يربط مصر بالأراضى الأخرى خاصة بالبلد الغامض "بونت"[٢٦]. ومن حسن حظ علماء المصريات أن جولينيشيف كان أول من اهتم بالنقوش الصخرية المتعددة للحيوانات والأشخاص، والتى يرجع تاريخها إلى مختلف العصور بدءًا من الأقدم منها إلى عصر البطالسة (٣٠٥–٣٠ سنة قبل الميلاد)، كما أنه قيمها باعتبارها مصادر مهمة لمعـرفة

(٢٦) ما زال علماء المصريات يتجادلون عن مكان "بونت" حتى يومنا هذا، ويفترض أن موقع هذا البلد فى جنوب غرب أو جنوب شبه الجزيرة العربية، أو الساحل الإفريقى الغربى للبحر الأحمر، أو الموقع الحالى للصومال.

التاريخ (شكل ١٤). فعلى سبيل المثال، رسم الإنسان الذى يصيد النعامة جعلنا نفترض أن المصريين قد استخدموا لحوم وريش هذه الطيور، كما أن قيمة هذه الرسوم كانت أكبر عندما كانت مصحوبة بكتابات.



(شكل ١٤) نقوش صخرية لحيوانات (رسوم ف.س.جولينيشيف)

كان جولينيشيف يتميزبأنه كان متمتعًا بالإتقان وبالدقة المتناهية فى كل مكان وفى كل شىء، وقد صحح الكثير من النسخ التى قام بها ليبسيوس، كما أنه قام لأول مرة بنسخ عدة كتابات من المخربشات Graffiti غير المعروفة. وفيما بعد قام بتقديم ترجمة متقنة لأكثر كتابات هذه المنطقة انتشارًا وأكثرها منحًا للمعلومات، وبين عدم دقة الترجمات التى قام بنشرها قبله كل من "أ. هاباس" و"إ.بروجش".

وقد تم نشر نتائج بحوثه ودراساته بسرعة على هيئة تقرير عن رحلته[٢٧]. كان هذا التقرير، بالإضافة إلى التقارير التى كتبها فيما بعد بحوثًا حقيقية، قد يكون لها شكل خاص بها، تعتبر دليلا للرحلات وتعليقات تاريخية وأدبية جادة. كان من نتيجة دراسته السليمة للآثار من الكتابات القديمة "بوادى حمامات" أن هذه المصادر المهمة جدا للتاريخ دخلت فى المحيط العلمى. جمع جولينيشيف أثناء رحلاته مواد أثرية من الكتابات ومواد إثنوجرافية كثيرة، أصبحت جزءًا مهما من مجموعته العظيمة. ولكن للأسف يجيء القدر أحيانًا بمفاجآت غير سارة مطلقًا، فإن مجموعة جولينيشيف، التى قضى حياته فى جمعها والتى قام فى الواقع بإهدائها لروسيا، قد تم تقسيمها فى نهاية الأمر، فجزء منها محفوظ فى متحف الإرميتاج الحكومى، وجزء موجود فى مركز فلاديمير جولينيشيف بباريس.

عند سفر جولينيشيف مرة أخرى فى عام ١٨٨٧ إلى مصر أصبح شاهدا على اكتشاف عظيم. يدور الحديث هنا عن العثور على لوحات مكتوبة بالكتابة المسمارية تمثل خطابات الحكام الآسيويين لفراعنة الأسرة الثامنة عشرة المصرية التى كانت مستقرة فى تل العمارنة. مكن هذا الاكتشاف العلماء من معرفة الكثير مما كان غامضا فى تاريخ حكم الفرعون الشهير المتمرد أخناتون (١٣٤٦-١٣٣٣ سنة قبل الميلاد) وخليفته الذى لا يقل عنه شهرة توت عنخ أمون، الذى لم يكن قد عثر على مقبرته بعد فى ذلك الوقت. وقد بذل هذا العالم الكثير من الجهود كى يصبح مالكا لثلاثة من هذه الرسائل المكتوبة بالكتابة المسمارية الخاصة بأرشيف العمارنة.

كانت سنتا ١٨٨٨-١٨٨٩ هما الأكثر توفيقًا بالنسبة لجولينيشيف كجامع للآثار، فلم يقدم فى مؤلفه " نتائج أثرية للرحلة إلى مصر فى شتـــاء عامى

(٢٧) نتائج دراسة الكتابات القديمة من الرحلة إلى وادى حمامات.

١٨٨٨-١٨٨٩" على وجه الخصوص أوصاف الآثار التى حصل عليها، ولكنه قدم تقييمًا لها فى التاريخ وفى حضارة مصر القديمة. يجب ملاحظة أن الباحث اهتم بالبحث وامتلاك تلك الآثار التى أكدت من ناحية محتواها مع ما كان معروفًا قبل ذلك ومحفوظا فى متاحف العالم المختلفة. فعلى سبيل المثال، بذل الكثير من أجل الحصول على قطع من البردية التى حفظت من عصر الدولة الوسطى، والتى تحتوى على مقتطفات من التاريخ، الذى كان قد عرف من قبل، والتى تحمل اسم "قصة المصرى سنوهى". تحكى هذه القصة مصير أحد النبلاء، الذى خاف على حياته نتيجة الحروب الداخلية التى قامت بعد موت الحاكم فهرب إلى البدو الرحالة. وقد عاش سنوات طويلة فى الغربة وعاد إلى وطنه فقط فى نهاية حياته.

كان ف.س. جولينيشيف مدركًا تمامًا مدى أهمية معرفة الباحث لكل الصياغات المتعلقة بأية من الوثائق. وليس سرًّا أن الكثير من آثار الكتابات المصرية القديمة قد وصلت إلينا على هيئة قطع، وأنه كثيرًا ما كان معروفًا لنا فقط بداية أو نهاية القصة. كما أن تتالى الأحداث فى القطعة نفسها، التى حفظت بمعجزة، كثيرًا ما كان غير واضح. وبالإضافة إلى ذلك فإنه من المهم جدا فى الترجمات من اللغة المصرية القديمة معرفة سياق النص الذى استخدمت فيه الكلمة أو التعبير، حتى تغيير كتابة حرف هيروغليفى واحد قد يؤدى إلى إخبارنا عن العصر الذى كتب فيه النص، وعن الاتجاهات السياسية لكاتبه، أو عن مكان كتابة الوثيقة. لذلك السبب بالذات من المهم جدا معرفة كل الصور المختلفة التى كتب بها النص نفسه، وامتلاك مختلف نسخه، فما لم يبق عليه الزمن أو يد الكاتب المتحيز فى إحدى النسخ قد تكون بقيت تمامًا بلا أية تغييرات فى نسخة أخرى.

عندما كتب جولينيشيف بشغف عن مغامراته الخاصة، لم ينس أن يذكر الآثار المهمة جدا التى قابلها فى طريقه والتى يرجع الفضل فى اكتشافها إلى

زملائه. وهو لم يكتف فى ذلك بأن قدم سردًا بسيطًا لها وذكر أسماء الباحثين، ولكن قدم أيضًا شهادات تاريخية صغيرة. كما أنه اجتهد فى مراجعة النصوص التى نسخها من سبقوه للمخطوطات، وتمكن نتيجة لذلك من أن يحدد تواريخ بعض ما عثر عليه بنجاح عن طريق رموز علم الكتابة القديمة(٢٨) .

كان مركز اهتمام جولينيشيف فى رحلته الثانية إلى مصر موجها إلى أطلال "بيرينيكا" التى كانت مدينة سكنية وميناء على ساحل البحر الأحمر. طبقا لخطته، كان يجب أن يكون مسار رحلته مطابقًا للآثار التى بقيت على طريق القوافل من "قفط" (الاسم القديم هو كوبتوس) إلى بيرينيك على البحر الأحمر، وكان الهدف المحدد لذلك هو البحث عن تلك النقاط التى استخدمت لإعادة نقل البضائع التى حفظت أسماؤها عند بلينى الكبير(*) وأنتونين(**). كان الباحث يعرف أن كوبتوس

---

(٢٨) لقد عانت اللغة والكتابة المصرية القديمة من الكثير من التغييرات على مدى آلاف السنين التى تطورت فيها، فقد اختلفت اللغة التى تحدث بها وكتب بها المصريون فى عصر الدولة الحديثة عن اللغة المصرية الأقدم، بنفس الطريقة التى تختلف بها اللاتينية عن اللغة الفرنسية الحديثة. كما أن الكتابات اختلفت كثيرا تبعا للموقع الجغرافى، فإن الكتابات التى نقشت فى مصر العليا اختلفت عن النصوص المماثلة من ناحية المحتوى والتى نقشت فى الدلتا. وقد وجدت عدة صور للكتابة ترجع مسمياتها إلى المؤرخ اليونانى هيرودوت، الذى حضر إلى مصر فى منتصف القرن الخامس وترك فى مؤلفه "التاريخ" وصفا لحضارة وتاريخ المصريين المعاصرين له: الهيروغليفية (مقدسة)، ويرجع الفضل فى إطلاق هذا الاسم عليها إلى أنه فى الأزمنة التالية تم نقش كتابات بمساعدته على المعابد وعلى الآثار الدينية. الهيراطيقية (الكهنوتية) والديموطيقية (الشعبية). كان نظام الكتابة الهيروغليفية أقدم ولكن بالتدريج أصبح استخدام الهيراطيقية مساويًا لها، حيث إنها الصورة المبسطة للكتابة بالهيروغليفية. وفى عصر الدولة الحديثة كتبت نسخة من "كتاب الموتى" باللغة الهيراطيقية، كما كتبت الوثائق الإدارية والاقتصادية بها. وقد استبدلت باللغة الهيراطيقية فى الأزمنة التالية اللغة الديموطيقية، أو "الكتابة السريعة"، التى بسطت لدرجة كبيرة كتابة النصوص الهيروغليفية الصعبة. وبهذه الوسيلة، واعتمادًا على معرفة شكل كتابة رموز هيروغليفية معينة وسمات "خطوط" الكتبة، تمكن الباحثون من تحديد تواريخ الوثائق بدقة عالية نسبيًا وصلت إلى تحديد الأسر وفترة حكم كل من الفراعنة.

(*) Plinius Major(٢٤-٧٩م) كاتب وعالم رومانى. (المترجم)

(**) مجموعة من أسر الإمبراطورات الرومان (٩٦-١٩٢م). (المترجم)

كانت فى الماضى متصلة بوادى حمامات وبالبحر الأحمر بطريق للقوافل. وكانت تلتقى الكثير من طرق التجارة عند كوبتوس. كانت القوافل تسير فى اتجاه سيناء للحصول على النحاس والفيروز، أما فى اتجاه البحر الأحمر، فكان ذلك لتوريد الزمرد والرصاص والذهب. وقد سار جولينيشيف نفسه فى طريق القوافل كى يرى بنفسه كيف كانت تتم الرحلات المماثلة فى الماضى.

وقد أدهش معبد سيتى الأول الصخرى جولينيشيف تمامًا. اتبع عالم المصريات الروسى التقليد الذى استقر قبل ذلك وهو مراجعة نسخ ليبسيوس للكتابات التى على الصخر، على الأصل. لقد ترك تلك الكتابات المصريون الذين تم إرسالهم إلى الصحراء للبحث عن الذهب بأمر من سيتى الأول، والذين حفروا على الطريق بئرًا عميقة غير عادية.

اشترى العالِم معظم الأشياء التى امتلكها أثناء رحلته من السكان المحليين. وقد حصل على الجزء الأكبر منها من سوق الأقصر الذى كان يحضر إليه التجار القطع الأثرية القديمة من كل أجزاء صعيد مصر. كان أنفس المشتريات تابوت خشبى خاص بفرعون الأسرة الحادية عشرة "أنتف"، ورسم متعدد الألوان لمتصارعين يرجع إلى عصر الانتقال الثانى، ورمح للفرعون الفاتح "أحمس" من الأسرة الثامنة عشرة (أعوام ١٥٥٠-١٥٢٥ قبل الميلاد)، وكفن جنائزى يرجع إلى الأسرة الخامسة والعشرين، وبردية فى الرياضيات عرفت فيما بعد "بالموسكوفية" وأصبحت إحدى أقيم البرديات فى مجموعة جولينيشيف.

وفى عامى ١٨٩٠-١٨٩١ سافر فلاديمير جولينيشيف من أسوان إلى غرب النيل، إلى الواحات الخارجة، فزار المعابد التى بها. وفى خلال هذه البعثة قام بعدة مشاهدات مهمة فى مجال "التوبونيميك" (Toponimics)(*). وقد عاد جولينيشيف

(*) علم دراسة الأسماء الجغرافية. (المترجم)

إلى القاهرة لزيارة معابد "دوش" و"قصر عين زيان". وهنا حصل من أحد تجار الأنتيكات من معارفه على ثلاث برديات هيراطيقية تعود إلى الأسرة الحادية والعشرين، كانت هذه البرديات محفوظة فى إناء مصنوع من الفخار، وقد وجدها سكان قرية "الحيبة" فى مصر العليا. كانت إحدى البرديات عبارة عن نسخة من خطاب لأحد الكتاب لصديق[٢٩] ، وحفظت البردية الثانية القصة الرائعة للمصرى "أون-أمون" عن الرحلة إلى "بيبلوس"[*]، أما الثالثة فقد كانت عبارة عن قائمة كلمات لمعجم، ولذلك عرفت فيما بعد باسم "Onnomasticon Amenope" (دائرة معارف، أو موسوعة أعلام).

يجب أن نضيف أن جولينيشيف لم يكوّن مجموعته بشرائه للآثار فقط أثناء رحلاته فى مصرمن تجار الآثار والسكان، ولكنه اشترى الكثير منها أيضًا من مزادات بيع المجموعات الخاصة. فعلى سبيل المثال، تمكن من الحصول على نقش بارز عليه رسم لسوق من إحدى مقابر الأسرة الخامسة بمنطقة سقارة، من أحد هذه المزادات.

كما عثر العالِم على بعض القطع الأثرية أثناء عمليات التنقيب عن الآثار التى قام بها بنفسه. وقد وصف "عملية التنقيب الصغيرة" التى قام بها فى الدلتا وشمال وادى النيل بالقرب من منطقة "تل المسخوط" فى كتابه "نتائج البحث عن

---

(٢٩) المقصود هنا البردية رقم ٢٧ الموجودة حاليًا فى مجموعة متحف أ.س. بوشكين للفنون الجميلة بموسكو. ولفترة طويلة لم تسمح الحالة السيئة التى عليها هذه الوثيقة من قراءتها. وقد كتب ف.س. جولينيشيف نفسه ملحوظة:"الكتابة الهيراطيقية مكتوبة بوضوح، ولكن نتيجة للمترادفات الكثيرة، وللكلمات الجديدة، والأخطاء الواضحة فى الكتابة الموجودة بها، يصعب فك رموزها. وحيث إننى أعطيت اهتماما بسيطا لهذه الوثيقة، فأنا لا أستطيع أن أقول عنها إلا القليل جدا. ويجب علىّ الاعتراف بأن محتوى هذا النص أفلت منى حتى اليوم". (كوروتوفتسيف م.أ.، البردية الهيراطيقية رقم ١٢٧ من مجموعة متحف أ.س. بوشكين للفنون الجميلة، موسكو، ١٩٦١، ص٣)، وبعد سنوات طويلة تم نشر هذه البردية وترجمتها بمعرفة عالم المصريات الروسى العظيم م.أ.كوروفستوفتسيف.

(*) الاسم اليونانى القديم لمدينة فى فينيقيا- لبنان حاليًا، وهى مدينة الجبيل حاليًا. (المترجم)

الآثار فى مصر شتاء سنتى ١٨٨٨-١٨٨٩". من المثير أن نلاحظ أن "هنريش شليمان" كان يقوم بالتنقيب بالقرب من الإسكندرية بحثًا عن مقبرة الإسكندر المقدونى، فى هذا الوقت نفسه.

كانت الرغبة فى القيام بأعمال التنقيب عن الآثار فى تل المسخوط قد ظهرت عند فلاديمير جولينيشيف فى عام ١٨٨٩، عندما تعرف على المهندس الفرنسى "جالون" الذى اشترك فى أعمال حفر قناة السويس وقناة القاهرة- السويس. فقد حكى له جالون عن الأشياء التى اكتشفت صدفة أثناء العمل. وقد أخطر المهندس إدارة متحف بولاق(٣٠) بالأثار التى اكتشفها، ولكنها لم تعر أى اهتمام لكلماته، ففقد العلم هذه الآثار، ولكن رسخت فى ذاكرة الفرنسى بصفة خاصة كتلة كبيرة من الجرانيت مغطاة بالنقوش الهيروغليفية. حاول جالون فيما بعد البحث عن هذا المكان وأن يريه لعالم المصريات السويسرى إدوارد نافيل، ولكن لم يحقق البحث أى نجاح. اهتم جولينيشيف برواية المهندس وحصل على تصريح رسمى من "أ.جريبو" لكى يقوم بالحفريات فى هذا المكان، فاكتشف فى اليوم الثانى من العمل قطعة كبيرة من الجرانيت الأحمر عليها نقوش هيروغليفية. وبعد ذلك بوقت قصير عثر على عدة قطع أخرى. اتضح أن تلك النقوش تخص الملك الفارسى "داريوس". وقد أدى ذلك إلى إعادة تكوين نص لوحات داريوس الأول (٥٢١-٤٨٦ ق.م.) المقامة على طول القناة الرابطة بين النيل والبحر الأحمر، والتى تم حفرها بناءً على أمره. ولكن لم تستكمل الحفريات فى "تل المسخوط" بسبب ظروف الحر الشديد.

يرجع الفضل لجولينيشيف فى اكتشاف النقوش التى على الصخر فوق مغارة "إسطبل عنتر" (Speos Artemidos) ، التى تقدم رواية باسم الملكة حتشبسوت

---

(٣٠) المتحف المصرى حاليًا.

(١٤٧٩-١٤٥٨ق.م.) عن ترميم المعابد بعد غزو الهكسوس (١٦٥٠-١٥٥٠ ق.م.). وقد أُعطى عالم المصريات الألمانى الشهير هنريش بروجش حقه من التقييم الكبير لنشر جولينيشيف الأعمال الكاملة الخاصة بهذه النقوش التى تثبت أعمال التدمير التى قام بها الهكسوس أثناء هجومهم على مصر(٣١).

كما ذكرنا من قبل، لم يكن فلاديمير جولينيشيف يبحث فقط عن آثار جديدة ويحصل عليها، ولكنه كان يراجع نسخ النصوص المعروفة من قبل. وقد اكتشف أثناء ذلك الكثير من الأخطاء وعدم الدقة فى ما نشره من سبقه.

وقد نشرت نتائج أبحاثه فى الكثير من المجلات الأجنبية المتخصصة فى علم المصريات. كما نشرت أعماله فى باريس ومصر وبرلين وليبزج. ونشر جزء من تقاريره فى روسيا فى دوريات "مذكرات قسم الشرق فى جمعية علم الآثار الروسية" وفى "أنباء جمعية الآثار الروسية".

ساعدت غريزة جولينيشيف الحساسة للآثار الأصلية على تكوينه مجموعة الآثار المصرية الشهيرة فى العالم كله، دون أن يكون من بينها أية قطعة مزيفة. ولكنه لم يكن فى الأساس جامعًا للآثار، بل كان عالمًا، فلم تشب سعة علمه فى أى وقت أية سمات تجريدية، ولكن كان لها أساس من المعرفة العميقة بالتاريخ وبحضارة الشعوب الشرقية القديمة. لم يكن دافع نشاط ف.س. جولينيشيف نهمه لامتلاك أشياء عجيبة ولكن رغبته فى معرفة تاريخ وحضارة مصر القديمة. كان جولينيشيف ملمًّا تمامًا بتاريخ كل الشرق القديم، واقتنع مبكرًا جدا بضرورة عمل تحليل ومقارنة بالحضارات الأخرى عند دراسة الحضارة المصرية القديمة.

---

(٣١) Ctpybe B.B. Значение B.C. Голенишева для египтологии// Выдающийся русский востоковед B.C. Голенишев и история приобретения его коллекции в Музей изящных искуств .

بغض النظر عن انتشار جمع الآثار القديمة فى روسيا، فقد تميزت مجموعة جولينيشيف عن معظم المجموعات الصغيرة نظرًا لاكتمال موادها ومعرفة وذوق جامعها، وكذلك لأنها قد جُمعت بغض النظر عن تكلفتها المادية واعتمادًا على الموارد الذاتية.

فى الحقيقة كانت وما زالت تنحصر فيها كل ثروة روسيا من الآثار القديمة فى قسم الشرق القديم.

كان الكثير من علماء المصريات يحلمون بمشاهدة مجموعة جولينيشيف التى جمعها بحب غير عادى وفن أصيل، فقد تلاقت فيها آثار تاريخ مصر من كل العصور، ففيها آثار من مصر القديمة، كتابات وتماثيل من الدولة القديمة: قطعة من "نصوص الأهرام"[٣٢]، وقناع الفرعون بيبى الثانى (٢٢٤٦-٢١٥٢ ق.م.)، ومجموعة تماثيل عائلية وكاتب جالس من نفس ذلك العصر، وكتابات وتماثيل كبيرة وصغيرة من الدولة الوسطى، منها تمثال لوجه أمنمحات الثالث (١٨٤٢-١٧٩٤ق.م.) ولوحة حنينو. وتم تمثيل الدولة الحديثة بكتابات أشخاص من العامة، ونقوش بارزة من المعابد، وتماثيل صغيرة من خشب الأبنوس، وحلى من الفضة، ولفائف كفن الدفن، وتمثال لكاهن من الأسرة الثانية والعشرين عليها كتابات لها طابع السير الذاتية. وتستحق مجموعة بورتريهات الفيوم التى ترجع إلى عصر الهيلينية والمشهورة فى العالم كله إلى عناية خاصة. تتميز هذه البورتريهات، التى

(٣٢) معروف إلى عصرنا هذا أن هناك ٩ أهرام بها نصوص، أقدمها يعود إلى الفرعون "أوناس" (٢٣٥٦-٢٣٢٣ ق.م.)، وهو الممثل الأخير للأسرة الخامسة. نقشت النصوص على جدران حجرات الدفن وعلى التوابيت، وكانت مرتبة بحيث كان يمكن للفرعون الميت أن "يراها" وأن "يقرأها" وهو راقد فى تابوته. يعتبر الباحثون "نصوص الأهرام" تسجيلاً لكلمات تتم تلاوتها أثناء عمل الطقوس فى حجرات الأهرام المناسبة. ويؤكد ذلك وجود "إرشادات مسرحية" وترتيب النصوص وفقًا لنظام محدد. وهذه النصوص تشبه تمامًا طبقًا لمحتواها "كتاب الموتى"، ويمكن اعتبارها امتدادًا مباشرًا له؛ فقد حصلنا فى "كتاب الموتى" على شكل نهائى ومتمم للعقائد الأسطورية الأساسية وعرض لـ "نصوص الأهرام".

عثر عليها فى منطقة واحة الفيوم، بجمال غير عادى، فعرفت باسمها. وهى عبارة عن رسوم بالألوان الشمعية (تتم على الساخن) على لوحة صغيرة من الخشب كانت توضع بين لفات كفن الدفن فى مكان وجه الميت. كانت هذه اللوحات مثل "الرءوس البديلة" تستخدم فى الدولة القديمة مع الأقنعة الجنائزية فى العصور التالية كى تساعد "روح الميت: با" على الوصول إلى جسد المرحوم، حتى يدخل إلى سعادة الجنة بلا صعوبة. من الغريب أن هذه البورتريهات اعتبرت مزيفة عند بداية ظهورها فى سوق الآثار، ولكن تأكد العلماء من أصالتها بعد العثور على الكثير منها فيما بعد فى جميع أنحاء مصر. وفى الوقت الحالى يوجد أكثرمن ٦٠٠ بورتريه معروفة، وهى محفوظة فى مختلف المتاحف الكبيرة فى العالم. يرجع الفضل لجولينيشيف فى أنه أحد الأوائل الذين اهتموا بالقيمة الفنية لبورتريهات الفيوم، وقد راعى المراحل المختلفة لتطور هذه اللوحات المتميزة أثناء تكوين مجموعته، مما سمح بمتابعة تطور تقاليد الفنانين القدماء.

احتلت القطع الأثرية من الكتابات المكان الرئيسى فى مجموعته، فقد كان يمكن للكثير منها أن تزين أى متحف فى العالم. ولم تقتصر مجموعة جولينيشيف على الآثار المصرية القديمة فقط، ولكنها من غير قصد جاءت بأفكار لا تعبر فقط عن الأزمنة المختلفة ولكن أيضا عن كل الشعوب، فاللوحات "الكابادوكية"(*) عبارة عن قطع فينيقية قديمة وبرديات "الأوستراكا"(٣٣) (جمع أوستراكون) الآرامية والبرديات المدون عليها نصوص يهودية ووثائق يونانية وبهلوية وعربية وقبطية، وهذا ليس سردًا تاريخيًا جغرافيا كاملاً للآثار.

(*) كابادوكيا منطقة فى وسط آسيا الصغرى فى أرض تركيا الحالية. (المترجم)

(٣٣) الأوستراكا عبارة عن كتابات صغيرة منقوشة على قطع من البردى، أو قطع من الحجر الجيرى...إلخ. ويمكن مقارنتها بالمسودات التى يرسمها الفنانون المعاصرون أو الملاحظات التى يتم تدوينها فى مفكرات الأعمال لتذكرها.

فى البداية حفظت هذه المجموعة فى مدينة سان بطرسبورج، فى منزل بالكورنيش الإنجليزى، ثم بعد ذلك فى شارع موخوفايا، وكان يسمح لمن يريد من الهواة بمشاهدتها.

تم تعيين فلاديمير جولينيشيف فى عام ١٨٨٠ للعمل بمتحف الإرميتاج خارج الهيكل الوظيفى به، وكان قد أكمل قبل ذلك دراسته بكلية العلوم الشرقية بجامعة سان بطرسبورج. وقد كتب مدير الإرميتاج فى ذلك الوقت أ.أ.فاسيليكوف تقريرا لتوظيفه لأنه كان يقدر علم فلاديمير جولينيشيف جدا واستدعاه بحرارة.

"لا يوجد أحد بين العاملين فى متحف الإرميتاج الإمبراطورى يستطيع أن يعمل كتالوجًا تفصيليا وأن يضع نظامًا مستمرا لمجموعة الآثار المصرية الموجودة فى الإرميتاج، فيلزم لذلك إعداد علمى متخصص. علماء المصريات فى أوروبا قلة، أما عندنا فى روسيا فلم يكن لهم وجود على الإطلاق... وسيكون التحاق السيد جولينيشيف – المتخصص الوحيد فى المصريات بمدينة سان بطرسبورج– بالعمل فى الإرميتاج مكسبًا لا يقدر بثمن"[٣٤] .

منذ ذلك الحين تركزت المجموعتان، إن لم يكن رسميا ففعليا، فى يدين وخيدتين، وبذل فلاديمير جولينيشيف كل جهده لإثرائها ولدراسة الآثار الشرقية القديمة، ليس فقط بمجموعته ولكن بمجموعة الإرميتاج أيضًا. وقد نجح بعد ذلك فى نقل مجموعة "كونستكاميرا"(متحف دراسة تطور الشعوب) المصرية إلى الإرميتاج. وبذلك حصل الإرميتاج بتوظيف ف.س. جولينيشيف على موظف يتميز بحبه لعمله، بالإضافة لمعرفته التامة فيه. وفى عام ١٨٨٦ تم تعيينه أمينًا عاما للمجموعة المصرية بالإرميتاج.

(٣٤) Выдающийся русский востоковед ... - с.313

أثناء سنوات عمله بالإرميتاج، درس جولينيشيف الآثار الشرقية القديمة المحفوظة به، وعمل ونشر كتالوجات عن أكبر مجموعاته "المصرية والآشورية".

كانت البرديات بلا شك فخر الإرميتاج وكذلك مجموعة جولينيشيف. وقد توصل إلى اكتشاف مثير عندما درس البرديات المصرية الموجودة فى هذا المتحف، فقد توصل إلى أن البردية المعروفة مجازًا "بالبردية رقم١ بسانت سان بطرسبورج" تتكون من نصين أدبيين: تلقين قيصر الأسرة العاشرة الهيرقليوبولية ابنه "مريكارا"، ونموذج لم يكن معروفًا حتى ذلك الحين لنص تنبئىٍّ لأحد الحكماء ببلاط الفرعون "سنفرو" (٢٥٧٥-٢٥٥١ ق.م.) الذى تنبأ لمصر بكل الكوارث الممكنة، والتى لن تنتهى إلا بظهور فرعون منقذ. صنفت البردية الأولى تحت مسمى "بردية رقم 1116A" طبقًا للترقيم الخاص بمتحف الإرميتاج، أما الثانية فكانت "البردية رقم 1116B". كان فى ذلك الوقت قد تشكل لدى جولينيشيف أسلوبه الخاص للتعامل مع النصوص، فعندما كان يدرس أحد المستندات، كان يبذل كل جهده ليبحث فى المتاحف وعند تجار الآثار عن صياغات أو كتابات أخرى له. فعلى سبيل المثال، قام بذلك مع لفافة بردية "التلقين" التى لم تحفظ بحالة جيدة. لذلك اضطر إلى البحث عن نسخة لهذا المستند بلا كلل. وفى أثناء إحدى رحلاته فى مصر كلل بحثه بالنجاح. وقد أدت مقارنة النصين إلى إعادة تجميع نص "التلقين" تقريبًا بالكامل، ويعتبر ذلك نموذجًا رائعًا للأدب التعليمى المصرى القديم. وبعد ذلك نشر جولينيشيف "البردية رقم 1116B" أيضًا آخذًا فى الاعتبار كل الكتابات "التنبئية" التى كانت معروفة فى ذلك الوقت.

وفى عام ١٨٨١ اكتشف "ف.س. جولينيشيف" فى مجموعة الإرميتاج لفة بردية من عصر الدولة الوسطى حفظت بحالة رائعة معروفة باسم "قصة عن المتضرر من غرق مركب"، وهى عمل شيق جدا ملىء بالمغامرات غير العادية

وبالمعجزات[٣٥]، فقد نجا بطل القصة بعد غرق مركب ووصل إلى جزيرة عجيبة يحكمها ثعبان ضخم، أحب "الغريق" ولم يتركه يموت من الجوع وتنبأ له بعودة حميدة إلى منزله.

تعتبر هذه القصة نموذجًا بلا عيب للغة مصر المتوسطة[٣٦]. وحتى الآن يجب أن يقوم أى عالم مصريات، مهما كان البلد الذى يعيش فيه، عند دراسته للغة المصرية بالتعرف على هذا المؤلف الرائع. وقد قرأ جولينيشيف تقريره عن هذه "القصة" فى المؤتمر الدولى ببرلين. وقد كتب الناقد الروسى الشهير "ف.ف.ستاسوف" مقالة تحت عنوان"اكتشاف قصة مصرية فى إرميتاج مدينة سان بطرسبورج" (عام ١٨٨٢) قدم فيها تحليلاً للنص الذى ترجمه وعلق عليه جولينيشيف، بحيث تعرف الجمهور العريض على اكتشاف عالم المصريات الشاب.

أنهى جولينيشيف فى عام ١٨٩١ وصفًا موجزًا لمجموعة الإرميتاج تميز بالدسامة، اهتم فيه على وجه الخصوص بالآثار التى تعطى معلومات عن

---

(٣٥) يمكن التعرف على هذه القصة بالتفصيل فى كتاب "قصص مصر القديمة":

Сказки древнего Египа/Ред. Беловой Г.А,Шерковой Т.А.-М.:Алетей, 1998

(٣٦) مرت اللغة المصرية القديمة (انظر الملحوظة ٣٤) فى أثناء تطورها بعدة مراحل: ١- لغة عصر الدولة القديمة، وهى الأقدم، وكتبت بها "نصوص الأهرام". ٢- لغة مصر المتوسطة، أو الكلاسيكية، وهى لغة الدولة الوسطى حتى الأسرة الثامنة عشرة، وقد كتبت بها معظم المؤلفات الأدبية لمصر القديمة.٣ -لغة مصر الجديدة، أو الأحدث، وتخص فترة نهاية الأسر (من الثامنة عشرة إلى الرابعة والعشرين) ، وهى تستخدم أساسا فى مراسلات العمل، وقد بدأ استخدامها رسميا بدءًا من الأسرة التاسعة عشرة. وتوجد تغييرات كبيرة فى القواعد فى اللغة المصرية الجديدة، فقد استخدمت كل الاستعارات الممكنة بجانب الاصطلاحات الخاصة باللغة المصرية المتوسطة الكلاسيكية.٤- اللغة الديموطيقية، وكانت مستخدمة اعتبارًا من عهد الأسرة الخامسة والعشرين حتى العصر اليونانى- الرومانى (٧٠٠ - ٤٠٠ق.م.).٥- اللغة القبطية، ظهرت على أساس إزاحة اللغة الديموطيقية واللغة اليونانية القديمة. ويرى الكثير من الباحثين أنها امتداد مباشر للغة المصرية القديمة، وتحتوى الأبجدية القبطية على سبعة حروف ديموطيقية. ولكثير من الكلمات جذور مصرية.

المعتقدات الدينية وعن عادات وتاريخ الشعب المصرى، وفى عام ١٩١١ أعد برديات الإرميتاج للنشر، ثم قام بنشرها بعد عامين.

لقد قام أيضًا بدراسة برديات مجموعته الخاصة. فكتب فلاديمير جولينيشيف فى أحد خطاباته لماسبيرو عن محتوى إحدى البرديات التى حصل عليها فى مصر، مما جعل هذا النص الهيراطيقى معروفًا للعالم كله. وكان يتحدث عن سفر المصرى "أون أمون" إلى فينيقيا، للحصول على الأخشاب اللازمة لبناء مركب الإله أمون فى طيبة. عبر جولينيشيف عن النص بالرموز الصوتية وناقشه، وقد نشر البردية التى ترجع إلى فترة حكم آخر ممثل للأسرة العشرين(٣٧) مرتين: فى عام ١٨٩٧ باللغة الروسية، وفى عام ١٨٩٩ باللغة الفرنسية. وتعتبر إلى اليوم قصة "أون أمون" مستندًا مهما جدا يعطى صورة واضحة عن العلاقات الاقتصادية والسياسية للدولة المصرية السابقة كدولة عظمى فقدت قوتها مع ظهور القياصرة الصغار: الدول المستقلة فى الشرق الأوسط القديم.

وفى الوقت نفسه قدم كلاًّ من "القصة" و"رحلة أون أمون" بمعلومات عن التصورات الدينية المصرية القديمة التى اهتم بها العالم الروسى جدا. وقد مكنته المعلومات الواردة فى هذين النصين من الوصول إلى نتائج مهمة، فعلى سبيل المثال، ربط ف.س. جولينيشيف مكان أحداث "قصة عن المتضرر من غرق مركب" و"جزيرة الروح"، بالجزيرة التى تم ذكرها فى "نصوص الأهرام"، والتى اعتبرها بدورها نموذجَ " جزيرة الدراويش"(٣٨). لقد أظهر فى "رحلة أون أمون"

---

(٣٧) المقصود هنا فترة حكم رمسيس الحادى عشر (١١٠٤-١٠٧٥).

(٣٨) على الأرجح كان ف.س. جولينيشيف يقصد "حقل (حقول) القصب"، أو "سخيت يارو". الاسم الآخر لهذه المنطقة من عالم القبور، والتى – طبقا لتصور قدماء المصريين – كانت يمجد فيها الموتى، يزرعون أكثر الأراضى خصوبة وكانوا يحصلون منها على أوفر محصول، "الحقول المختارة " أو "حقول الجنة".

الكثير من التفاصيل المتعلقة بعبادة أمون إله طيبة. وبين مدى الانتشار الكبير لعبادته فى كل مصر.

أما البردية التى اشتراها جولينيشيف فى الأقصر وبها مسائل رياضيات، فهى تقل عن بردية رياضيات "ريندا" الشهيرة والمحفوظة بالمتحف البريطانى بمقاساتها، ولكنها لم تقل عنها فى الأهمية. وعلى الرغم من إدراك العالم بوضوح قيمة هذه الوثيقة لم يقم بترجمة نصها، لسبب أو لآخر(٣٩)، كما أنه لم يترجم نصوص وثائق مكتوبة ثمينة جدا فى مجموعته. ومن هذه الوثائق – على سبيل المثال – البردية الخاصة بإله مياه النيل "سوبوك" ذى رأس التمساح، والتى تعرف باسم "نشيد الأكاليل". ترجع هذه البردية إلى عصر الدولة الوسطى، ويمثل محتواها أهمية كبيرة جدا كمصدر لمعلومات تاريخية ونموذج للغة مصر المتوسطة.

فى عام ١٩١١، عندما ساد الخوف روسيا بسبب الثورة القادمة، خاف جولينيشيف على مصير أثمن الآثار فى مجموعته، لذلك فقد أرسل هذه البردية مع بعض من أثمن القطع كى تحفظ فى برلين. وقد حصل "أدولف إيرمان" على حق نشر هذا الأثر الأدبى المهم جدا فى نظير محافظته عليه.

كان من ضمن مجموعة ف.س. جولينيشيف بردية من عصر الدولة الحديثة "إعلاميات أمينوبى" Onomaticon Amenope التى كانت تقدم عرضًا للأسماء الجغرافية، وأسماء المعابد، والأبنية العامة، والمبانى الإدارية، والمهن المختلفة...إلخ. وقد حفظت شبه كاملة. الاسم المصرى للبردية ممتع "كتاب دراسى، يصنع الأذكياء ويعلم الجهلة، حتى يعرفوا كل الموجود". أمامنا هنا دائرة معارف مميزة عن حياة قدماء المصريين، وقد خصصت بعض أجزائها للطبيعة المحيطة، وللإنسان، وسكنه، ونشاطه، وكل الحيوانات الممكنة.

---

(٣٩) قام ب.أ. بترجمة هذه البردية.

كان "جاستون ماسبيرو" قد نشر نصا مشابهًا من المتحف البريطانى فى وقته، وقد أعطى جولينيشيف فى عام ١٩٠٤ البردية كى ينشرها صديقه "ألان جادينير" الذى كان فى ذلك الوقت يقوم بدراسة نص مماثل، يرجع إلى عصر الدولة الوسطى(٤٠). أصبحت بردية جولينيشيف بالنسبة لجاردينير أحد المصادر الأساسية التى تضمنها كتابه الشامل " الأونوماستيكا المصرية القديمة"(٤١) (الأونوماستيكا هى علم دراسة الأسماء). "إعلاميات أمينوبى" Onomaticon Amenope محفوظة فى الوقت الحالى بمتحف أ.س. بوشكين الحكومى للفنون الجميلة، ويعرفه كل علماء الآثار فى العالم كله باسم "القائمة المسكوفية لكلمات معجم".

وقد حصل جولينيشيف أيضًا على عدة قطع من النصوص الهيراطيقية المحتوية على نصوص أدبية. وهو قد أعطاها أيضًا لعالم المصريات ر. كامينوس لنشرها ودراستها، وقد نشرت تحت عنوان عام "قصة أسطورية". كما أن جولينيشيف سمح للعالم النمساوى أ.باور بنشر "مدونات تأريخية سكندرية" من مجموعته.

وحتى يومنا هذا فإن علماء المصريات فى كل العالم يستخدمون التماثيل التى جمعها وحافظ عليها عالم المصريات الروسى اللامع جولينيشيف.

تعامل القدر بطريقة سيئة وقاسية نسبيا مع هذا الرائد جامع الآثار فى نهاية طريق حياته، مما أثر أيضًا على مجموعته. فنتيجة لانهيار شركة "وسط الأورال المساهمة لصناعة الذهب" المملوكة لعائلة جولينيشيف، وجد نفسه على حافة الإفلاس الكامل. وقد اضطرت الكارثة غير المتوقعة العالم الروسى إلى التفكير فى

---

(٤٠) المقصود "Onomasticon Ramesseum".

(٤١) أوكسفورد، عام ١٩٤٧.

بيع مجموعته المتميزة بكمالها ونظامها حتى بالمقارنة بالمجموعات المشهورة فى العالم مثل مجموعات برلين، وتركيا، ولندن. وقد كتب جولينيشيف لمدير مكتب وزارة البلاط الإمبراطورى "أ.أ.موسولوف" فى مذكرة على هيئة تقرير:

"كان حلمى المحبب هو أن أحافظ تحت يدى حتى الموت، على تلك الأشياء التى بحثت عنها وحصلت عليها ورعيتها بولع المحب، والتى كنت أريد مع مرور الزمن أن أورثها لأى من المتاحف بوطنى"(٤٢) .

عندما انتشر خبر بيع مجموعة جولينيشيف، أبدت الكثير من المتاحف رغبتها فى الحصول عليها. وكان العلماء الألمان واثقين حتى آخر لحظة بأن هذه المجموعة سوف تئول إليهم. ولكن جولينيشيف بذل كل ما فى وسعه حتى تبقى الآثار المصرية القديمة فى روسيا؛ فأعلن ثمنًا لها منخفضًا حقيقة، وسمح بأية تسهيلات فى شروط دفع ثمنها، لدرجة أنه وافق على الحصول على النقود فى هيئة أقساط. فى عام ١٩٠٨ تقدم البروفيسور أ.توراييف مع عدد من العلماء المستشرقين إلى أكاديمية العلوم الإمبراطورية بطلب للحصول على المجموعة لأحد المتاحف الروسية وهم يؤكدون أن:

"جمع هذه المجموعة شخص ليس من جامعى الآثار الهواة، ولكنه متخصص من الدرجة الأولى، وهو لم يبخل بأى جهد أو بأية نفقات مادية من أجل الأهداف العلمية".

فقط فى ١٠ مايو ١٩٠٩ وافق مجلس الدوما الحكومى على قانون اقتناء مجموعة الآثار المصرية القديمة الخاصة بالمستشار ف.س. جولينيشيف لتصبح ملكية حكومية. وفى الوقت نفسه توترت العلاقات بين الإرميتاج ومتحف موسكو للفنون الجميلة بسبب حق امتلاك المجموعة.

---

(٤٢) Выдающийся русский востоковед ... - c.46

فقد كان من المخطط أن تعرض نماذج الجبس للآثار الأصلية التى اشتراها "ى.س.نيتشاييفى مالتسيف" فى القاهرة من تماثيل، ونقوش بارزة، وتماثيل نصفية. ولكن فى عام ١٩٠٤ فقدت كل المجموعة فى حريق بالمتحف، ولم ينقذ إلا عدد من بورتريهات الفيوم، والبرديات، وبعض القطع الصغيرة من البلاستيك. لذلك أصبح الشاغل الرئيسى لمؤسس المتحف وأول مدير له "إ.ف.تسفيتاييف" هو اقتناء مجموعة جولينيشيف.

أرسلت المجموعة إلى موسكو فى عام ١٩١١ لعرضها فى قاعة مخصصة لهذا الغرض تم تصميمها على هيئة معبد بناءًا على نصيحة جولينيشيف. وفى موسكو استقبل المجموعة أستاذ الجامعة "توراييف" رئيس القسم المصرى فى المتحف.

عرضت المجموعة أمام أول زائر فى ١٢ مايو ١٩١٢، ولم يحضر جولينيشيف نفسه حفل الافتتاح ولكنه عرف عما دار فى هذا الاحتفال من خطاب "بوريس ألكسندروفيتش توراييف" الذى اندهش من تأثير المجموعة المصرية على سكان موسكو. حضر الزوار إلى المتحف بالآلاف، وكانوا يتخاطفون دليل المتحف، فبيع بالكامل، وقد تم بيع ١٢ ألف نسخة منه فى شهرين. كان فى رأى توراييف أن القسم المصرى فى المتحف لم يكن يثير الاهتمام فقط، ولكنه كان أيضا يثير "حماسا جنونيا". لماذا لم يحضر فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف افتتاح المتحف بنفسه؟ لقد كتب هو نفسه فى خطاباته لأصدقائه أنه لم يكن يريد أن يترك مدينة نيس فى الربيع، ولكن بالطبع كان السبب أعمق من ذلك.

كان فلاديمير جولينيشيف وطنيًا، روسيا تماما. فعلى الرغم من أنه فى العادة كان هادئًا، فإنه استاء عند سماعه بأنه يتم التخطيط لإرسال بعثة من العلماء الروس إلى مصر تحت رئاسة "ف.ف.بيسينج" الذى ليست له أية علاقة بروسيا:

"هذا شيء مشين تمامًا، كأننا أتراك ولا ندافع عن بلدنا بدون جنرال ألمانى"(٤٣).

رفض جولينيشيف عرضا برئاسة بعثة أخرى يتم إرسالها فى الوقت نفسه، ولكنه أصر على أن يتوجه البروفيسور توراييف إلى الصحفيين طالبًا منهم أن يكتبوا عن هذا الأمر الفاحش، وكذلك بحث عن شخص مناسب، يكون: " ... قد عمل فى مصر بوعى، وأن يكون قد عمل عند عودته للعناية بتلك الآثار التى قد يكون القدر قد أرسلها أثناء القيام بالحفريات... وألا يكون فقط جديرًا بوطنه الذى أرسله للعمل، ولكن ... أيضًا يحافظ على استقلاله وعلى شخصيته، وألا يتحول إلى مرءوس لجيش الألمان العظيم من علماء المصريات" (٤٤).

يعتقد أن جولينيشيف لم يغادر أبدًا روسيا بناءً على رغبته الشخصية، فأى روسى يستطيع بلا صعوبة إدراك الشعور الذى تحمله هذا المفكر والعالم النشط، الذى قدم كل جهوده لخير وطنه، تلك الإهانات وكل هذه العوائق البيروقراطية الروسية الأسلوب، التى كانت تقوم أمامه باستمرار وفى كل خطوة. كان يبدو أن هذا العالم المشهور الذى باع مجموعته بثمن بخس، بل فى الحقيقة أهداها لبلده، كان يجب أن يحظى على الأقل بالاحترام، إن لم يكن لشخصه فللآثار المصرية القديمة، ولكن الوضع كان مختلفًا عن ذلك تمامًا. وفيما يلى مثال على ذلك:

كان إ.ف. تسيفيتاييف وأعضاء اللجنة التى تتسلم أشياء جولينيشيف فى سان بطرسبورج قد سجلت حتى ذلك الحين ٤٠٠٠ قطعة ووضعتها فى الصناديق، لكنها تسلّمت فجأة إخطارًا من مدير وزارة المعارف الوطنية بالتوقف عن تسجيل هذه الأشياء؛ فقد تبين أنه لم يتم تعيين رئيس للجنة التى تعمل مع هذه المجموعة، لذلك رأى موظف كبير أن اللجنة لم تكن مستوفاة. وفقط بعد تعيين الأمير

---

(٤٣) Выдающийся русский востоковед ... - с.229

(٤٤) Выдающийся русский востоковед ... - с.230

"ب.ف.تشيجودابيف" رئيسًا للجنة، سمح باعتبار أن عملها قد بدأ. وكان من نتيجة ذلك "التدقيق" أن فتحت الصناديق التى كان قد تم إغلاقها. هنا بقى فقط الأسف ليس على الجهد المبذول ولكن على القطع التى هشمت أو شوهت أثناء إعادة فتح الصناديق، وهى ليست فقط أشياء، ولكن آثار حضارات قديمة.

لم تلاق محاولة جولينيشيف نفسه العثور على حماية بمجلس الوزراء عند رئيس الوزراء "بيتر أركاديفيتش ستولنين" بسبب غياب الأخير. كان الأمير تشيجودابيف، طبقًا لتعريف إ.ف.تسفيتاييف، "تتارى- بيروقراطى" ولم يكن شخصًا لطيفًا. كان جولينيشيف مقترا فى الكتابة عن معاناته فى لحظة تسليم مجموعته، وقد سمح لنفسه فى حالات قليلة بالتعبير عن رأيه بخصوص الهرج البيروقراطى والبيروقراطيين، فقد اعترف إ.ف.تسفيتاييف بأن:

"... كان شك رئيسنا الغريب لأقصى حد يجعلنى أغتاظ لأقصى حد، وعندما كنت أنظر إليك كنت أتشجع، وبعون الله تماسكت جيدًا إلى النهاية" (٤٥).

لم يتسبب فقط كل الروتين الذى اتبع أثناء تسليم مجموعة الآثار فى توترجولينيشيف عصبيا، بل إنه وصل، وهو مالك مجموعة الآثار التى لا تقدر بثمن، إلى الفقر المدقع، وقد كتب فى أحد خطاباته لإ.ف.تسفيتاييف:

"لقد تسلمت من أيام الروبلات المائة التى أرسلتها لى بالبريد، وأنا شاكر جدا ذلك لك" (٤٦).

استمر فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف فى عمل إضافات لمجموعته حتى بعد أن نقلت ملكيتها إلى متحف الفنون الجميلة، وقد كان يرسل ما يعثر عليه وما

---

(٤٥) Выдающийся русский востоковед ... - с.95

(٤٦) Выдающийся русский востоковед ... - с.98

يحصل عليه إلى ب..توراييف. كما أنه أهدى مكتبته الخاصة للإرميتاج. وقد شكره الإمبراطور نيكولاى الثانى على ذلك.

يبدو أن فكرة ترك روسيا قد نضجت عند ف.س. جولينيشيف منذ فترة طويلة بعد فقده كل ما حققه فى حياته فى سبيل عمله المحبب... تمتلئ السطور التالية من أحد خطاباته بالمرارة فى ذلك الوقت:

"أنا أنتظر بصبر نافذ بعد ما حدث من اضطراب الصيف، الذى يمكننى فيه السفر من هنا إلى أى مكان بعيد"(٤٧).

بعد الثورة قرر جولينيشيف ألا يعود أبدًا إلى وطنه، وقد كتب له عالم المصريات الإنجليزى الشهير "د.ج.بريستيد" فى عام ١٩١٨:

"لم أعتقد أن الثورة فى روسيا سوف تؤثر على مصيرك بهذه الدرجة"(٤٨).

استقر جولينيشيف مع زوجته الفرنسية،التى كان اسمها قبل الزواج "سيسيليا مارتين"، فى نيس تقريبًا اعتبارًا من عام ١٩١٠، ولم تنقطع أبدًا فى الواقع إجازته التى طلبها من مدير الإرميتاج فى ذلك الوقت. كانت عائلة جولينيشيف تقضى جزءًا كبيرًا من العام فى مصر، فى القاهرة. كانوا عادة ما ينزلون فى بنسيون "سيسيل هاوس" المعروف لعلماء المصريات. وكان هذا البروفيسور الروسى أحد أكثر من تمتع باحترام المجتمع القاهرى. كان يمكن مقابلته غالبًا فى المتحف المصرى أكثر من أى مكان آخر، وكانت عائلة جولينيشيف تنتقل عادة إلى الأقصر فى يناير، حيث كانت نخبة من علماء المصريات تجتمع ذلك الوقت.

قطعت أحداث الحرب العالمية الأولى الاتصال بين جولينيشيف والإرميتاج نهائيا. بقى فى باريس بدون أية موارد (حيث يبدو أن دفع ثمن مجموعته قد توقف

---

(٤٧) Выдающийся русский востоковед ... - с.97

(٤٨) Выдающийся русский востоковед ... - с.252

تمامًا) وحاول أن يبحث لنفسه عن عمل فى أى من الجامعات فى الخارج. وفى عام ١٩٢٣ دعى للعمل فى جامعة القاهرة حيث أسس الدراسة الأكاديمية لعلم المصريات، واستمر يشغل وظيفة أستاذ بالجامعة حتى عام ١٩٤٧. كان يقوم فى وقت واحد بالتدريس فى مدرسة الآثار ويرأس قسم علم المصريات بجامعة فؤاد الأول فى الزعفرانة. كانت سمة علاقته بمتحف الفنون الجميلة فى ذلك الوقت ذات طابع عرضى.

استمر جولينيشيف فى العمل بحماس فى القاهرة على دراسة ونشر آثار المتحف المصرى، خاصة البرديات الهيراطيقية المصرية. وقد عُقد فى القاهرة فى عام ١٩٣٩ اجتماع احتفالى على شرف هذا العالم الشهير، حضره أكثر علماء المصريات شهرة، حضروا إليه من جميع دول العالم. وقد خصص أحد أعداد الحوليات الدورية المتخصصة فى علم المصريات لعالم المصريات الروسى العظيم.

كان فضل فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف فى تطوير المعرفة عن تاريخ وفن ولغة وعلم مصر القديمة ضخمًا جدا. فكانت بحوثه مبنية على أسس معرفة رائعة للغة المصرية. وقد أقدم منذ أول خطوات نشاطه العلمى الخاص على دراسة المصادر الأولية ، برديات صعبة جدا وآثار من الكتابات القديمة. وقد فعل ذلك بحماس كبير. وقد اعترف فى أحد خطاباته إلى أ.إ.ليم: "أنا أهب نفسى بحماس تام للآثار المصرية القديمة وللغة...". فى عام ١٨٧٤ تم نشر بحثه الأول فى مجلة ألمانية تحظى بمكانة كبيرة. كان هذا البحث يتناول أحد المصطلحات المصرية الخاصة بالدراسة. وقد ظهرت مبكرًا فى هذا البحث ثقة عالم المصريات الشاب فى علمه ورفض التفسير الخاطئ الذى كان منتشرًا لهذا المصطلح، وحدد معناه الحقيقى.

تناولت الكثير من أعماله، التى قام بها فى مرحلة الشباب، قراءة وفهم كتابات هيروغليفية متفرقة. ولكن منذ سنوات دراسته وجه اهتمامه إلى أصعب

النصوص فى "كتاب الموتى"، الذى يمثل مجموعة من النصوص الدينية والسحرية، والتى لا يستطيع أن يتعامل معها إلا من يتمتع بمعرفة عميقة فى مجال اللغة المصرية والديانة المصرية. تمكن من التعامل مع أكثر قائمة مكتملة من ١٦٥ بابًا من "كتاب الموتى" والمعروفة باسم "بردية تورنيسك"، التى نشرها ر. ليبيوس فى عام ١٨٤٢، ثم تمكن عالم المصريات الروسى الشاب من عمل تقييم سليم لنسخة أخرى محفوظة فى أثينا عن طريق صورها، وأرسل إلى جمعية علم الآثار تقريرًا عن قائمة أثينا لنشره ضمن أعمال مؤتمر المستشرقين فى سانت إتيين (فرنسا). كان ذلك مهما جدا، لأنه فى ذلك الوقت كان الكثير من علماء المصريات مشغولين بجمع ودراسة صياغات "كتاب الموتى"، التى حفظت بهدف توضيح أصل النص وطبقاته. وفى عام ١٨٧٤ وبمبادرة من ر. ليبسيوس تم تشكيل لجنة دولية لنشر كتاب الموتى. وقد حظى تقرير ف. س. جولينيشيف، بالإضافة إلى العديد من أعماله الأخرى باللغة الألمانية، على اعتراف الجميع، وتم اختياره عضوًا مراسلاً للجمعية الأكاديمية بسانت إتيين.

عندما كان طالبًا فى السنة الدراسية الثانية، ألقى فلاديمير جولينيشيف محاضرة رائعة عن محتوى البردية التى اكتشفها والمعروفة مجازًا "ببردية سان بطرسبورج رقم ١ " بالمؤتمر العالمى بسان بطرسبورج.

كان جولينيشيف وهو يقدم النص الصوتى للكتابات الهيراقيطية والهيروغليفية دائمًا ما يمد العمل بمناقشة أدبية موسعة تشبه المناقشات الموجودة تقريبًا فى كل صفحة من مؤلفه "تقارير عن رحلات". كان دائمًا يأخذ معه فى رحلاته قاموس برلين الكبير للغة المصرية، على الرغم من وجود إشاعة تقول إنه لم يكن يحتاجه أبدًا، لأنه كان يعرف عدة لغات، وكانت كل كلمات اللغة المصرية القديمة محفوظة فى ذاكرته. كان يعرف ١٣ لغة أجنبية، فكان يتحدث ويقرأ بسهولة كل اللغات الأوروبية تقريبًا وعدة لغات أخرى، وكان أحد أكثر العقول المميزة فى زمنه. كان معاصرًا لمجموعة من العظماء فى مجال علم المصريات

مثل جاستون ماسبيرو، وألان جادينير، وريخارد ليبسيوس، وأدولف إيرمان، وفليندرس بيترى، وكورت زيتى، ولكنه كانت له نظرته الخاصة المبنية على أساس محدد لكثير من مواضيع علم المصريات، خاصة ما يخص قواعد اللغة المصرية. ففى الشرح النحوى لنص "قصة عن المتضرر من غرق مركب" تجادل مع إيرمان العالم فى هذا المجال، وهو متمسك بفهمه النحوى، الذى يختلف عما يقدمه العالم الألمانى، وكذلك بنصه الصوتى للكلمات. وقد كتب جولينيشيف لـ ب.أ.تورايف فى أحد خطاباته "لا أعترف بالمحافظين البرلمانيين المزعومين!!!". وعلى الرغم من ذلك لم تكن علاقته بالعقائد الأساسية الألمانية قد وصلت إلى التوتر، ولكنها كانت مليئة بالمداعبات الخفيفة التى يتميز بها. مازح زملاءه الألمان الذين لم يرسلوا له خطابات من فترة طويلة، ففسر لـ ب.أ.تورايف هذا الصمت كما يلى:

"غالبًا، هم غاضبون منى، أو اتفقوا علىّ، كيف يتعاملون مع تجديفى فيما يخص العقائد الجامدة فى النحو، التى يعتقدون أنها جميعا غير قابلة للتغيير"(٤٩).

استطاع العالم بمعرفته الرائعة للغة المصرية من تحديد تواريخ الكثير من الآثار عن طريق علامات علم الكتابة القديمة، فعلى سبيل المثال أُرْجِعت لوحة المصرى "خنين" الموجودة بالإرميتاج إلى عصر الدولة الوسطى نظرا لشكل النقوش الهيروغليفية التى عليها.

رفض العالم الروسى مبدأ تفتيت التدفق اللفظى (الاستطراد) عند قدماء المصريين، الذى سماه ماسبيرو "نظرية الجمل الصغيرة" والتى ظهرت نظرًا للاستعمال النادر لحروف العطف فى اللغة المصرية.

أهم أعمال جولينيشيف هى مؤلفه "بعض الملاحظات عن تركيب الكلمات فى الجملة المصرية" (فى ٥ أجزاء)، بالإضافة إلى أعمال أخرى، وكذلك "كتالوج

---

(٤٩) Выдающийся русский востоковед ... - с.225

دليلى للمتحف المصرى- البرديات الهيراطيقية -الجزء الثانى"(٥٠). وقد أهداه لعالم المصريات الفرنسى ج.جارنو. وللأسف لم تُنشر هذه الأعمال الثمينة جدا حتى الآن.

درس جولينيشيف مجموعة كبيرة من الأدب ومن النصوص الأدبية والدينية، التى ارتبطت بشكل أو بآخر بالتصورات الدينية السحرية المصرية، فكتب بوضوح وباقتدار عن مذهب ألوهية الكون المصرى الفريد. تصور عن القوة الشاملة لإله واحد للشمس.

كان واحدًا من مؤسسى ما يسمى بنظرية "التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة" للديانة المصرية.(٥١) فكانت مجموعته الرائعة المنتقاة من تماثيل "بيس" الصغيرة من العصر الأحدث توضيحًا جيدًا للتوفيق المصرى بين المعتقدات الدينية.

حاول ف.س. جولينيشيف أن يفهم المواضيع الأسطورية التاريخية الدينية المختلطة تمامًا وأن يوضحها، فكان يرى أن رسم إله الشباب "حورس"، الذى

---

(٥٠) قدم الباحث الفرنسى إمانويل دى روجيه مقولة عن السمة التوحيدية للديانة المصرية القديمة، وضع بها بداية لنظرية عن "ما قبل التوحيد" كتعبير عن سمة اللاهوتية المصرية. كان ضمن ممثلى هذا الاتجاه و.بادج أيضًا ، الذى أعلن أن "المصريين قد آمنوا بإله واحد، لا يموت، غير مرئى، خالد، عالم بكل شيء، قادر على كل شيء لا يمكن الوصول إليه، خالق للسماء، والأرض، وللحياة التى تحت الأرض، خالق البحر والأرض، والرجال والنساء، والحيوانات والطيور، والأسماك والزواحف، والأشجار والنباتات". (وليس بادج، الديانة المصرية. السحر المصرى، موسكو، ١٩٦٦، ص١٢). ويمكن اعتبار أن مقولة يونكر عن " الإله الأعلى"، (التى قدمها فى الثلاثينيات) وفكرة أتيين دروتون عن التوحيد الجديد (أى التوحيد الثانوى، الذى انبثق من تعدد الآلهة القديم).كان أول من بدأ فى وضع نظرية مضادة هو جاستون ماسبيرو الذى كان فى عام ١٨٨٠ يصر على سمة تعدد الآلهة فى الديانات القديمة. وكان جولينيشيف أيضًا يؤيد نظرية مماثلة.

(٥١) يقصد بتعبير "التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة" توحيد عبادة عدة آلهة فى واحد؛ فلكى يمنح إله هليوبوليس المحلى "أتوم" صفة شمول مصر كلها فقد ربط بإله الشمس "رع". ويمكن أن نقول نفس الشيء عن "أمون" طيبة.

يدوس التماسيح، والذى نقابله كثيرًا، يمثل تعبيرًا بالرموز عن انتصار النور والخير على الظلام والشر، طبقا لروح التقاليد السائدة فى ذلك الوقت، وهو ضمان الوجود الأبدى لإله الشمس، وكذلك النظام الكونى الذى وضعه.

وقد تابع جذور التصورات الأسطورية القديمة المتعلقة بتأليه الحيوانات، خاصة القطط، بدراسة عدد من الآثار.

كان جولينيشيف أول من لاحظ عناصر تبجيل العبادة القديمة الأربعة "طوارئ الطبيعة" التى ميزها فى اللوحة المعروفة باسم "لوحة ميترنيخ" (شكل ١٥) والتى تحمل اسم آخر مالك لها. قصة هذه اللوحة مثيرة، ففى عام ١٨٢٨عثر العمال الذين شاركوا فى بناء خزان للماء فى دير الفرانشيسكان بالإسكندرية على لوحة من الحجر عليها كتابات ورسوم غامضة، وقد أرسلت هذه اللوحة إلى حاكم مصر الجبار فى ذلك الوقت "محمد على"، الذى قام بدوره بإهدائها للأمير "ميترنيخ" تعبيرًا عن ميله له.

وقد تمكن جولينيشيف من إعادة كتابة مواضيع بعض الأساطير المصرية القديمة. ويرجع الفضل لأبحاثه فى أنه توجد أمامنا الآن أساطير كاملة عما عانته وفعلته الإلهة "إيزيس" وابنها "حورس"[٥٢]. كان جولينيشيف واسع الاطلاع، فقد استخدم آثارًا عديدة أخرى لكى يعيد كتابة أى من المواضيع.لذلك فإن القصة المأسوية للإلهة إيزيس، التى أخفت حورس عن مطاردات ست فى مستنقعات الدلتا حصلت على نهاية لها نظرًا لأن معطيات "لوحة ميترنيخ" قد استكملت بالمعلومات التى استمدت ليس فقط من نصوص أخرى محفوظة ولكن كذلك من مواد أثرية أخرى عقائدية. وقد اكتشف العالم فى مجموعة الإرميتاج جعرانًا عليه رسم

(٥٢) تميزت الأساطير المصرية القديمة عن اليونانية القديمة مثلا بأنه لم توجد كتابات كاملة تكفى بنفسها لتحكى عن الأساطير، وقد وصلت إلينا غالبية الأساطير المصرية المعروفة لنا على هيئة قطع فى مقتطفات، وقد كان من الممكن إعادة بناء كل الصورة فقط نتيجة تحليل دقيق للآثار المختلفة.

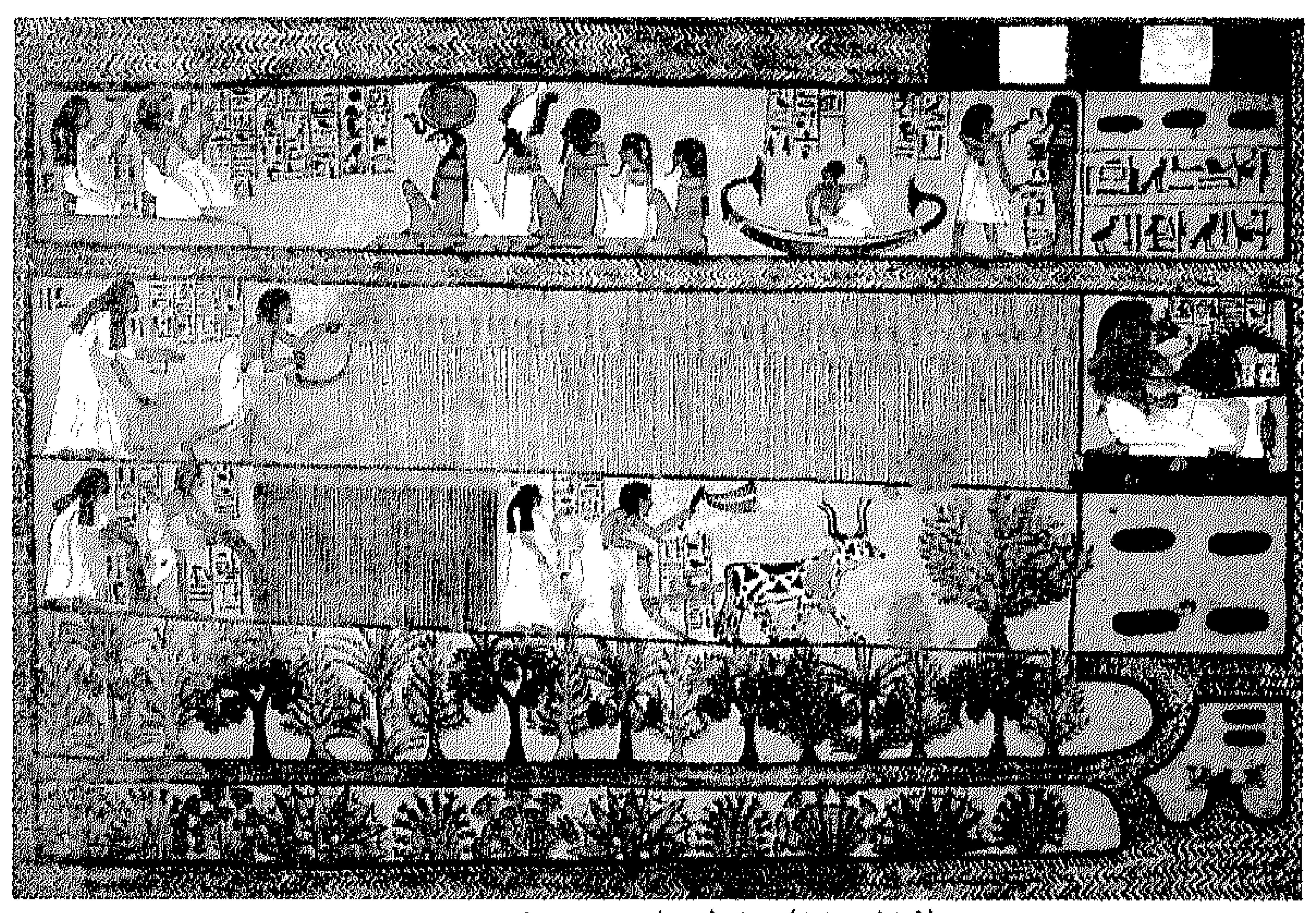
لحورس الشاب وهو جالس على زهرة لوتس، وكان هذا دليلاً آخر على أن أحداث الأسطورة دارت فى مستنقعات الدلتا وأن الرسم على الجعران مثله مثل "لوحة ميترنيخ" يمثلان نفس الأحداث الأسطورية. وقد تم فى عام ١٨٧٧ نشر مذكرات جولينيشيف عن "لوحة ميترنيخ" التى تحدث عنها أكثر من مرة، حيث قدم ترجمة وتعليقات رائعة على هذه الكتابات السحرية. وقد أوضحت مقارنة نص اللوحة مع مثيلتها من الآثار المحفوظة فى متاحف العالم المختلفة التمسك بالتقاليد القديمة فى ديانة وسحر المصريين، والذى يتضح فى التكرار المستمر للكتابات السحرية؛ التعاويذ الواقية من لدغات العقارب والثعابين وعضات التماسيح.



(شكل ١٥) لوحة ميترنيخ

(انظر *Metternicbstele, ed. Golénisheff, plate 1*)

اهتم فـ.س. جولينيشيف بعقيدة المصريين الخاصة بالقوة السحرية لأسماء الآلهة: الإله يساعد من يعرف اسم الإله والوصفة السحرية المناظرة، وبالإضافة إلى ذلك كان هذا الشخص يستطيع أن يستخدم بنفسه القوة الإلهية(٥٣). اعتبر العالم أن الإيمان بالبعث من جديد بعد الموت والحياة الأبدية كان أحد المبادىء الأساسية للديانة المصرية. كان جولينيشيف قد لاحظ فى محاضرته بسانت إتيين مماثلة الميت بأوزوريس، حاكم عالم ما بعد الموت، وبين أن ضمان بعث الميت كان يتلخص فى التحام عدة صور لظهور الإنسان: الجسد، والروح و"الجوهر". وفى هذه الحالة كانت جملة "السير مع كا الخاصة به" تعنى "الحياة إلى الأبد". كان المصريون القدماء يعتبرون أنفسهم أحياءً لو تمكنوا من المحافظة على أجسادهم، وفى رأى فـ.س. جولينيشيف فهم يفكرون فى طاقة الطبيعة المختفية فى جسد الإنسان.



(شكل ١٦) حقول يارو من مقبرة سيندجم

---

(٥٣) كانت توجد عدة أساطير تبين القوة السحرية للأسماء، وطبقًا لإحداها فإن الإلهة إيـزيس كانـت لهـا سلطة على والدها حيث إن مكرها مكنها من معرفة اسمه السرّى.

كان جولينيشيف كثيرًا ما يلجأ إلى نصوص "كتاب الموتى"، وهو يؤكد واقعية تفهم المصريين للحياة بعد الموت. فطبقا لتصور المصريين فإن حياة ما بعد الموت عبارة عن نسخة مماثلة تمامًا للحياة على الأرض، ولكن بفرق واحد فقط وهو أنه بعد الموت يكون الميت مثل الإله؛ فهو يستطيع أن يتحرك بحرية فى الفضاء وأن يتخذ أى شكل، وتصبح حياته "هانئة". كانت " الجنة" المصرية تشبه تماما الحياة المعتادة فى الريف، ولكن لم يكن الناس يحتاجون فيها إلى أى شىء، لأنهم كان عندهم كل ما يحتاجونه. ففى رأيه عامة توجد فى "كتاب الموتى" مواضيع أسطورية ومعتقدات دينية وعناصر سحر. أكد ف.س. جولينيشيف بعد دراسته لنقوش ونص لوحة المصرى ""خنينو"، التى ترجع إلى الدولة الوسطى، أن إيمان المصريين فى حد ذاته بحياة ما بعد الموت والبعث، منح الميت إمكانية العودة مرة أخرى إلى عالم الحياة. كان يمكن تلبية احتياجاته من الغذاء ومن الأشياء عن طريق اتباعه طقوسًا جنائزية معينة. وقد تطرق جولينيشيف فى هذا المؤلف[٥٤] إلى موضوع تقوى الإنسان، وموضوع تبرئته فى المحاكمة "يوم الحساب".

لم يكتب جولينيشيف دراسة خاصة عن الديانة المصرية القديمة، ولكن قدم فى كل أبحاثه وصفًا واضحًا وبهيًّا لبعض المعتقدات الدينية والسحرية لقدماء المصريين، أوضح فيها الارتباط اللصيق للديانة المصرية بالحياة السياسية فى البلد وبالفن والحضارة، وقد تأكدت النظرة إلى التطور التدريجى للتصورات الدينية المتعلقة بنشأة عبادة الإله الواحد بفضل مؤلفاته فى أدب المصريات الروسى.

كان فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف ذا ثقافة عالية جدا، ولم يكن خبيرًا فقط فى مجال الديانة المصرية، ولكن أيضا فى مجال الفن. بدأت تظهر إلى الوجود الدراسات العامة فى موضوعات الفن المصرى فى السنوات العشر الأولى من القرن العشرين. كان جاستون ماسبيرو هو أول من قام بدراسة الفن المصرى

---

(٥٤) Египетская могильная плита № 4071

القديم باعتباره موضوعًا منفصلاً، وبيَّن المراحل الأساسية لتطوره. كان ف.س. جولينيشيف أحد أوائل من ناقشوا موضوع الأسلوب فى الفن المصرى، فقد حدد تاريخ تماثيل أبو الهول التانيسية، التى كانت ترجع عادة إلى العصر الأحدث، الدولة الوسطى على أساس مقارنة أسلوب تشكيلها بأسلوب تشكيل تماثيل وجوه أمنمحات الثالث (١٨٥٣-١٨٠٦ ق.م.)، وبذلك أثبت إماكنية تحديد تاريخ أى من الآثار عن طريق علم الفن. وقد بيَّن تميز تماثيل أبو الهول بملامح مصرية أصيلة، هادمًا بذلك نظرية أن أصولهم من كوكب آخر غير الأرض. وفيما بعد أثبت "ج.ماسبيرو" و"ر.إنجلباخ" صحة النتائج التى توصل لها ف.س. جولينيشيف.

أحس ف.س. جولينيشيف تمامًا بالفن المصرى. وبصفته إنسانًا مستوعبًا لسمات هذا الفن فقد وهب نفسه لموضوع استيعاب الفنان المصرى للحياة المحيطة، وفسر بنجاح نظرته للمستقبل وللتعامل مع مكونات شكل الإنسان.

كتب ف.س. جولينيشيف أكثر من ٥٠ مقالة وبحثًا علميا ، كل منها يتناول موضوعًا واحدًا، ووضع فى روسيا أسس دراسة تاريخ وحضارة ودين ولغة وفن مصر القديمة، كما أنه تابع بحماس ظهور شباب فى روسيا يهتمون بدراسة علم المصريات والاستشراق. وقد نصح فى خطاباته لب.أ.تورابيف أن يتم عمل كل ما هو ممكن لجذب الشباب إلى علم المصريات، ببعث الأمل فى الشباب لعمل الاكتشافات القادمة، وهو يحذرهم من تأثير الأفكار الجاهزة والنظريات ذات الأحكام المسبقة. وللأسف لم يتمكن من مشاهدة ميلاد عدد كبير من الروس البارزين من علماء المصريات، الذين درس الكثير منهم الآثار التى تدخل فى مجموعته(٥٥) .

(٥٥) M.A.Коростовцев. Египетский иератический папурус № 167,Государственного музея изобразительных искусств им.А.С. Пушкина//- 1960; И.М.Лосева. Скульптурная голова фароана из собрания государственнего музея изобразительных искусств им. А.С.Пушкина// Tam же; С.И.Ходжаш. Жезл и туалетный сосуд с изображением сцены магической защиты // Tam же

توفى ف.س. جولينيشيف عام ١٩٤٧ فى نيس وتم دفنه هناك فى المقبرة الروسية، وقد أوصى بكل وثائق أرشيفه والخطابات وكتابات الأعمال التى لم تنشر لعالم المصريات الفرنسى جان جارنو، الذى أعطى هذه المواد لمدرسة التعليم العالى بباريس، حيث تم تأسيس مركز فلاديمير جولينيشيف. وقد قيَّم ج.جارنو نشاط العالم الروسى العظيم فى كلمة عن "فلاديميرجولينيشيف":

"من من علماء المصريات الآخرين اكتشف ونشر وترجم مثل هذا العدد الكبير من المخطوطات (الفريدة) روائع الأدبيات؟! ومن من علماء الآثار الآخرين أو من أمناء المتاحف أظهر نفسه كجامع للآثار ذى معرفة وخبرة أكبر من هذا الخبير فى علم الكتابات القديمة؟"(٥٦).

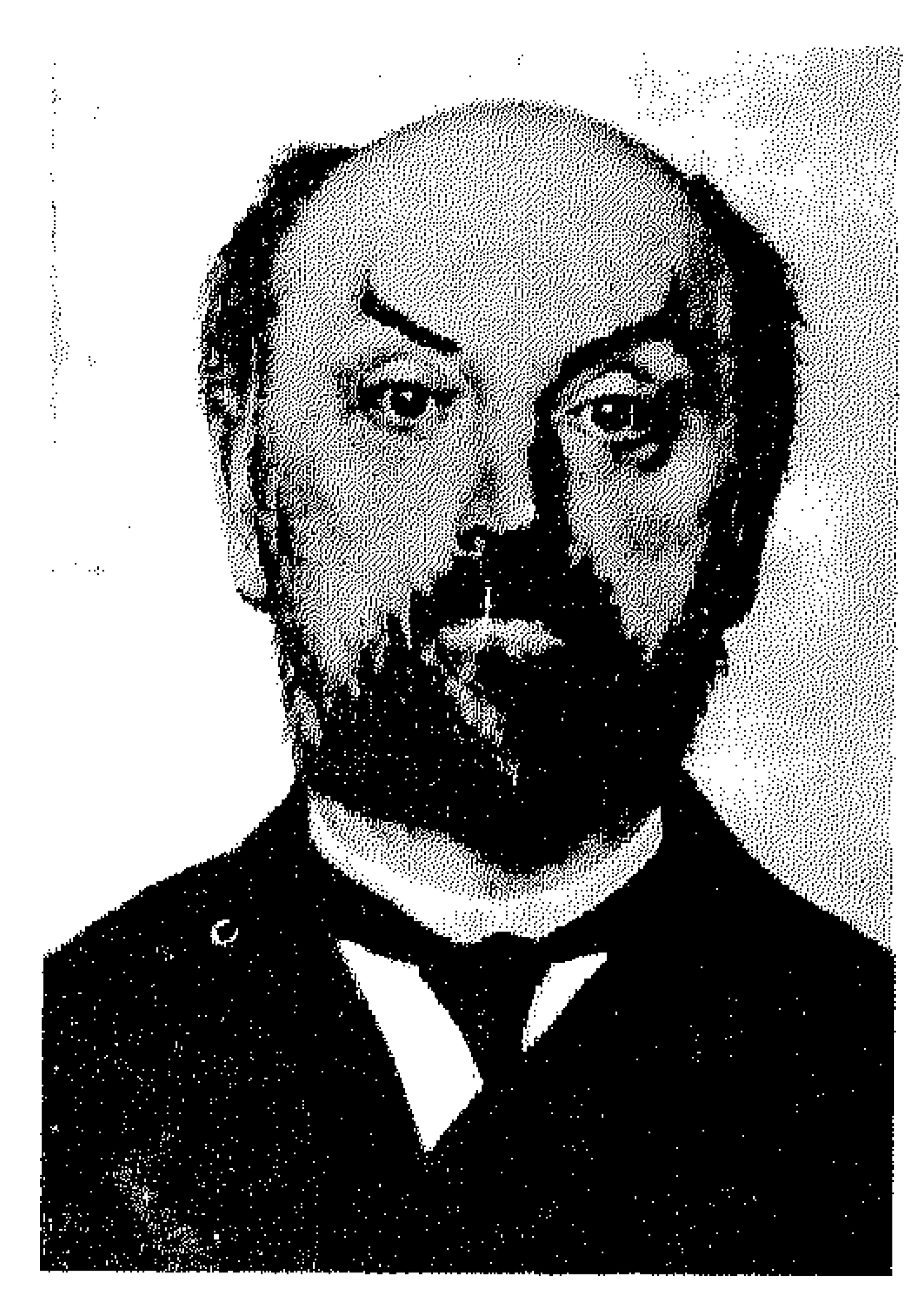
أبو علم المصريات فى روسيا

"بوريس ألكسندروفيتش تورايف"

أصبح عالم المصريات المستشرق الروسى الكبير، الأستاذ بجامعة سان بطرسبورج، عضو لجنة الآثار بمدينة سان بطرسبورج، وعضو المجلس العلمى بالوزارة "بوريس ألكسندروفيتش تورايف" (١٨٦٨-١٩٢٠) (شكل ١٧) وريثًا لفلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف ، وقد أطلق عليه الكثيرون لقب "أبو علم المصريات فى روسيا". فى الحقيقة، لم يكن تورايف خبيرًا من الفئة العليا فحسب، بل أسس أيضا مدرسة علم المصريات الروسية.

---

(٥٦) Выдающийся русский востоковед ... - с.293



(شكل ١٧) ب.أ.تورايف

بدأ ب.أ. تورايف دراساته على يد أوسكار إدوارد ليم، ثم أكملها فى الخارج على يد كل من أدولف إيرمان وجورج شتايندورف وجاستون ماسبيرو. وقد عمل كثيرًا بنجاح آنذاك فى متاحف ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا، وجمع مواد وفيرة لرسالة الماجستير التى تناولت عقيدة الإله توت.

بذل تورايف عند عودته إلى الوطن كل ما فى وسعه كى يبقى فى روسيا مجموعة ف.س.جولينيشيف، وقدم بذلك مساعدة ضخمة لعلم المصريات الروسى. وقد أدت جهوده المستمرة بلا كلل وتقييمه العالى للمجموعة إلى قيام الحكومة الروسية بشرائها. وقد وصف عالم المصريات الروسى مجموعة جولينيشيف بأنها "الوحيدة بين المجموعات الخاصة من حيث القيمة والانتقاء التى تضم أساسًا آثارًا مصرية قديمة وبعض الآثار الشرقية القديمة" [٥٧] من جميع أنحاء الشرق. وقد كتب لأكاديمية العلوم الإمبراطورية فى عام ١٩٠٨ موضحًا مبررات ضرورة المحافظة عليها فى روسيا:

---

(٥٧) Выдающийся русский востоковед ... - с.34

"فى الوقت الحاضر لا تبخل كل الأمم المتحضرة فى تقديم الموارد المادية والجهود للحصول على الكنوز الأثرية للشرق الكلاسيكى. وتتنافس كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وأمريكا على تحمل النفقات الكبيرة اللازمة لإرسال البعثات وإجراء عمليات الشراء. وقد شاركت روسيا، التى تقع أقرب منهم إلى الشرق جغرافيا وثقافيا وسياسيا، نتيجة للنشاط الفردى لـ ف.س.جولينيشيف فقط... المجموعة... لا تمثل فقط كنزًا ثمينًا من الآثار القديمة، ولكن أيضًا فخرًا قوميا مهمًّا، لإثبات الاسهام الروسى فى منجزات الشعوب المتحضرة"(٥٨) .

كان بوريس ألكسندروفيتش تورايف واحدًا من آخر العلماء متعددى المعرفة فى روسيا فى مجال دراسة الشرق القديم، والذين كرسوا كل حياتهم لدراسة تاريخه وحضارته. كان أستاذًا بجامعة سان بطرسبورج وكان يلقى محاضرات منهج تاريخ الشرق القديم، وكان دائمًا ما يسعى إلى توسيع تناول مواضيع محددة، وفى الوقت نفسه إلى تعميق تناولها. كان أساس منهجه ترجمة العديد من الآثار المحفوظة أساسًا فى المتاحف الروسية. وقد نشر أخيرًا عام ١٩١١ هذا العمل على شكل مؤلف كبير يتكون من مجلدين. ثم أعيد نشره عام ١٩١٣ مع عمل إضافات إليه. وقد منح الخبراء تقديرًا عاليًا للطبعة الأخيرة حيث حصلت فى عام ١٩١٦ على الميدالية الذهبية للجمعية الروسية لعلم الآثار. وقد اعتمد هذا العمل الذى يتناول تاريخ الشرق القديم على دراسة كل من الكتابات الأثرية والآثار المادية. كان ب.أ.تورايف يهتم دائمًا بالآثار المادية، وقد زاد ذلك الاهتمام بشكل خاص بعد حصول الحكومة على ملكية مجموعة جولينيشيف الشهيرة. وقد وصف تورايف الآثار المصرية القديمة التى كانت تمثل فى الدرجة الثانية مجموعة سان بطرسبورج ومجموعات الأقاليم بكل من مدن ريفيل (تالين حاليا) وميتانا ويوريف وفيلنوس وكييف. وقد أوضح هذا العالم الروسى بإصرار

---

(٥٨) Выдающийся русский востоковед ... - c.29 ..

ضرورة وصف الآثار القديمة وصفًا كاملاً وتفصيليًا، كي يتم إدراجها فى التداول العلمى، وكذلك حتى يتمكن كل من يهتم بمواضيع علم المصريات من التعرف عليها(٥٩) . وقد نشرت دراسات لآثار منفردة أغلبها فى " مذكرات قسم الشرق فى جمعية علم الآثار الروسية". وقد تمكن تورايف من أن يصدر السلسلة المستقلة "وصف الآثار المصرية فى المتاحف والمجموعات الروسية".

أصبح تورايف اعتبارًا من عام ١٩١١ أمينًا عاما لمجموعة ف.س.جولينيشيف من الآثار الشرقية القديمة، وبدأ فى تجهيز كتالوج للآثار المصرية القديمة بمتحف الفنون الجميلة. انتقل للسكن فى المتحف بالقرب من المجموعة، وعمل على ترتيبها، "وكان يعمل من الصباح إلى المساء، بذلك الحب الذى ليس له حدود، الذى يميز البارين من الآثمين"(٦٠). أصبح يوم افتتاح المتحف يومًا لانتصار علم المصريات، وبناءً على خطته تم تجهيز أول المعروضات بقسم الشرق، كما أنه قام عام ١٩١٢ بكتابة أول دليل لمجموعات الآثار المصرية القديمة.

أنجز ب.أ.تورايف الكثير مما لم يسمح الوقت لجولينيشيف بعمله. قبل كل شيء، نشر الكثير عن مجموعة الآثار المصرية، وقد تضمن العددان الأولان من سلسلة "آثار متحف الفنون الجميلة" مقالاته: "رسالة من عصر الدولة الحديثة، موضوعة فى طبق من الفخار"، و"برديات طقوس الميت القديمة المكتوبة

---

(٥٩) من المهم توضيح أن ب.أ.تورايف، فى الحقيقة، هو أول من بذل جهدًا ضخمًا لكى يتم وصف مجموعات الآثار المصرية فى المتاحف الإقليمية بروسيا. قبله كان عدد من يعرف عن تلك الكنوز المحفوظة فى المتاحف الصغيرة المبعثرة فى المساحة الولسعة لروسيا قليلا. وفى وقتنا هذا قام أ.د.بيرليف وس.إ.خودجاش بعمل وصف رائع للمجموعات المصرية فى المتاحف الإقليمية: كما يقوم العاملون بمركز بحوث علم المصريات بأكاديمية العلوم الروسية بوضع كتالوجات للمجموعات المصرية بالمتاحف الإقليمية بالدول أعضاء" كومنولث الدول المستقلة" ودول البحر البلطيقى، وكذلك بإدراجها فى المشروع العالمى "قاعدة معلومات علم المصريات بأوروبا الشرقية".

(٦٠) Выдающийся русский востоковед ... - с.130

بالهيروغليفية"، وكذلك نشر كتاباته فى سلسلة "متحف الفنون الجميلة بجامعة موسكو". وقد وصف المجموعة المصرية فى طبعتين من مؤلفه "التماثيل الكبيرة والتماثيل الصغيرة فى مجموعة جولينيشيف". وكانت آخر أعماله عن آثار مجموعة ف.س.جولينيشيف هى مذكرات عن أحد المخطوطات الهيراطيقية. وفقط بعد موته فى عام ١٩٢٠ نشر مؤلفه " النحت البارز عن طقوس الدفن بمتحف الفنون الجميلة". كما أن ب.أ.توراييف قام بعمل عدة إضافات إلى مجموعة المتحف وحصل له على الكثير من الآثار. فى تلك الأوقات كان جامعو الآثار من علماء المصريات يناقشون بحماس موضوع إمكانية وقف نقل الآثار النفيسة من مصر نظرًا لإصدار الحكومة المصرية قوانينَ صارمة تتعلق بهذا الأمر. كما أن ب.أ.توارايف وهب نفسه للسؤال الذى يمكن صياغته كما يلى: هل صحيح وصلنا إلى النهاية؟(٦١) .

كان لعالم المصريات الروسى اهتمام هائل بالآثار المصرية التى عثر عليها فى جنوب روسيا، والتى يمكن بواسطتها الحكم على سمة علاقة المستعمرات التى على البحر الأسود مع مصر. وقد قدم ب.أزتورايف وصفًا للآثار المصرية التى اكتشفت فى أولفى وبانتيكابيى والقرم، وفى شمال القوقاز، وفى محافظة تشرنيجوف.

استمر يعمل فى وضع "منهج المحاضرات" حتى حوّله تدريجيا إلى دراسة ضخمة ضمت تاريخ كل البلاد الشرقية القديمة. وقد تم نشر "تاريخ الشرق القديم" كاملة عام ١٩٣٥ فى مجلدين. ويعتبر هذا العمل المكتوب بلغة حية أحد أول الأعمال التى بينت تاريخ الشرق القديم اعتمادًا على المعلومات المحفوظة فى المصادر الأصلية. وفى الوقت نفسه كان هذا العمل هو الأول فى روسيا المتميز بصفة تعميم تاريخ الشرق القديم. وكان بلا شك أشمل من الأعمال التى نشرت فى

(٦١) Выдающийся русский востоковед ... - с.135

الخارج مثل: "تاريخ العالم القديم" تأليف "إ.مبير"، و"التاريخ القديم لشعوب الشرق الكلاسيكى" تأليف "ج.ماسبيرو". وقد ميز "تاريخ" توراييف نجاحه فى رفضه لأسلوب التحديث[٦٢] عند سرد الأحداث التاريخية، والذى أغرم به تمامًا ميير. أما المستشرق الروسى فقد اعتبره عيبًا فى أى عمل تاريخى.

أثبت توراييف أنه عالم رائع فى مجال دراسة اللغة وآدابها. وكان ملمًّا تماما باللغات الشرقية القديمة. وقد قيم ف.س.جولينيشيف عامة مؤلفه "تاريخ الشرق القديم" تقييمًا عاليًا، مبينًا فقط بعض الأخطاء فى ترجمة النصوص بسبب عدم دقة نسخة "جنريخ بروجش".



(شكل ١٨) "أكريسليبب".أ.توراييف يبين الرسم المصرى توراى وابيف،

وقد استخدم توراييف هذا الرسم رمزًا لكتبه، بسبب تشابه الأسماء

(٦٢) يقصد بالتحديث رواية أحداث الماضى البعيد باستخدام المفاهيم والمصطلحات الحديثة، ونقل الحقائق التاريخية الموجودة فى أحد العصور لإقامة تربة غريبة، ومقارنة ثقافات وحضارات تختلف بعضها عن بعض جغرافيا وتاريخيا، وموجودة فى مراحل مختلفة من التطور التاريخى. فعلى سبيل المثال يرى بعض أنصار نظرية التحديث أن النظام الإقطاعى فى مصر كان فى عصر الدولة الوسطى، والبرجوازى فى العصر البطلمى أو اليونانى الرومانى.

وقد خصص فى كتاب "التاريخ" عدة أبواب مكتوبة لمصر، تميزت بتحليل دقيق لكل المراجع المعروفة فى ذلك الوقت. وقد أهتم توراييف كثيرًا بوصف العقائد الدينية بمصر.

وقد اهتم بمصر أكثر من أى بلد شرقى قديم آخر. ويتضح تماما من عمله الذى نشر بعد موته "مصر القديمة" ميل هذا المستشرق لبلد الأهرام. كان أحد المعارضين القلائل لأنصار المدرسة البابلية الألمانية، الذين وضعوا بابل على رأس عالم الشرق القديم ومصر على خلفيته. وقد اعتبر توراييف نفسه حضارة مصر على قدم المساواة مع حضارة بابل. كان يمكن أن يفهم المتخصصون بحوثه المبنية على أساس مادة علمية غنية، بالإضافة إلى شباب الدارسين، وحتى الجمهور العريض، لأن لغته الرائعة البسيطة قدمت صورة جميلة وحية للأزمنة السياسية والانقلابات الدينية. وقد شملت الدراسة تاريخ مصر بدءًا من عصر ما قبل الأسر حتى انتشار المسيحية. وقد نجح العالِم فى أن يوضح بها الأسباب الاجتماعية والدينية لتقبل المصريين بسرعة للتعاليم المسيحية.

كان توراييف واحدًا من أوائل من قدر الإسهامات التى قدمها الشعب المصرى فى تطوير الحضارة الأوروبية.

"حقيقة، إذا تناولنا أيًا من جوانب حياتنا، أو أى بحث يتناول تاريخها، فإنه غالبا يؤدى بنا فى النهاية إلى مصر، التى كانت أبا لنظام الدولة الأوروبية، والفن الأوروبى، وللكثير من ظواهر حياتنا الدينية والدنيوية".

كان هذا المستشرق الروسى واسع الاطلاع، ففهم بعمق حضارة مصر القديمة، التى كانت العناصر الأساسية فيها هى التصورات الدينية. كان يعتبر متخصصًا كبيرًا فى مجال الديانات الشرقية القديمة، فقام بملاحظات دقيقة أدت إلى استنتاجه لنتائج ذكية، فعلى سبيل المثال، كان ظهور رسالة الماجستير التى قدمها فى عام ١٨٩٨ "الإله توت، تجربة بحث فى مجال الحضارة المصرية القديمة" حدثًا

مهما فى مجال البحوث التاريخية الدينية. وقد تتبع فيها توراييف تاريخ تطور تصورات المصريين للإله توت، الذى يمثل الحكمة والمعرفة (شكل ١٩). وفى رأى الباحث، فإن ظهور ديانة هذا الإله رجعت إلى إيمان المصريين بعقيدة الإله "توت" الأسطورية وإيمانهم بأشكاله كطائر أيبيس أو أبو منجل المقدس، والشكل الآخر بهيئة القرد "بافيان"، كما بين ب.أ.توراييف، اعتمادًا على أهم مرجع عن عصر الدولة القديمة "نصوص الأهرام". وقد بين الباحث الدليل على تقديس توت فى عصر الدولة الوسطى مما ورد فى "نصوص التوابيت"(٦٣)، وفى العصر الحديث مما ورد فى "كتاب الموتى". وقد وضح توراييف أن عبادة توت اندمجت فى عبادات آلهة أخرى، أما فى العصر اليونانى الرومانى فقد اكتسبت سمات مشابهة لعبادة الإله "هرميس". وقد وصل الباحث إلى هذه النتائج المهمة بعد جمع دقيق للمصادر اللازمة من بين مجموعة ضخمة من مختلف الآثار، التى اكتشفت حتى ذلك الزمن. لذلك يرجع الفضل إلى الباحث فى أن بحثه فى هذا الموضوع الواحد أصبح تجربة لترتيب هذه المصادر.



(شكل ١٩) رسم من كتاب ب.أ.توراييف "الإله توم"

(٦٣) "نصوص التوابيت": أثر دينى أسطورى قديم من الآداب من عصر الدولة الوسطى. وقد كانت "نصوص التابوت" امتدادًا مباشرًا "لنصوص الأهرام" وسابقة "لكتاب الموتى". وتختلف "نصوص التوابيت" عن "نصوص الأهرام" المنقوشة فقط فى الأهرام المملوكة للملوك والملكات فقط، بأنها كانت تغطى كل توابيت نبلاء المصريين، الذين كان يمكنهم عمل ذلك نظرا لمكانتهم الاجتماعية والمادية.

وقد بدأ ب.أ.تورايف فى كتابة "وصف المجموعة المصرية، تماثيل مجموعة جولينيشيف" بمقالة افتتاحية عن الأهمية الدينية للتماثيل المصرية، موضحًا أن من سمات المصرى الإيمان بارتباط الإنسان بتمثيله، كما لو كان الإنسان يستمر تمامًا فى الحياة عند تمثيله على جدران المقابر. لذلك كانت التماثيل الكبيرة والصغيرة والنقوش البارزة تجسيدًا حيًّا لمن تمثله. وقد تم نشر ١٢٠ أثرا فقط فى الكتاب، وقد زود هذا العمل بدليل للأسماء الخاصة، والأسماء الجغرافية، و"الألقاب".

كان كتاب "الأدب المصرى" أحد أكبر أعمال تورايف. ويبدو أنه كان يفكر فى هذا العمل منذ فترة طويلة، فقد كان أول اختبار لذلك قد نشر على هيئة مقالة عن الأدب المصرى(٦٤). جعلت الكمية الكبيرة من الآثار الأدبية المستخدمة فى هذا العمل، والعرض الماهر لمحتوياتها من هذا الكتاب إضافة ثمينة، ليس فقط إلى علم المصريات الروسى، ولكن أيضا إلى علم المصريات فى العالم كله. كان ظهور مثل هذا العمل العام عن تاريخ الأدب المصرى هو الأول من نوعه، فقد وجدت قبل ذلك ترجمات فقط متفرقة غير كاملة للنصوص الأدبية. وقد استخدم تورايف فى هذا العمل أهم الآثار النموذجية الممتعة، محاولا تقديم صورة كاملة لتطور الأدب المصرى القديم، على قدر الإمكان. وقد خصص المؤلف الجزء الأول لتغطية تاريخية لأدب مصر القديمة، تناول فيها المواضيع الرئيسية لتطور الكتابة واللغة المصرية. أما الجزء الثانى فكان مخصصًا لترجمة أهم المؤلفات الأدبية، مع ملاحظة أن المؤلف قد استخدم فى هذا العمل مصادر مكتوبة بكل من اللغات الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية. ولكن للأسف اختفى الجزء الثانى منه تمامًا بلا أى أثر.

---

(٦٤) Всемирная литература Bocтoka/ Сб.статей.Вы.II.- Пб.,1920

وقد غطى فى كتابه مرحلة زمنية طويلة جدا، من العصر العتيق إلى العصر اليونانى الرومانى. كما أن نوعيات الأعمال المنتقاة فيه كانت هى الأخرى متنوعة، فتنوعت من أساطير وروايات بهيجة إلى آثار دينية فلسفية، ووثائق أعمال.

وقد دقق تمامًا فى أعماله العامة، حيث درس كل الآثار التى تنتمى إلى مختلف المواضيع. لهذا السبب بالذات أصبح عمله موثوقًا به وممتعًا، ولم تفقد نظريته حتى الآن نضارتها. وقد بذل عالم المصريات الروسى الكثير من الجهد من أجل ترجمة النصوص المختلفة والتعليق عليها. وفى عام ١٩١٦ قام بنشر البردية السحرية "سالت ٨٢٥" الموجودة بالمتحف البريطانى.

لقد أثارته المواضيع الدينية بالإضافة إلى المواضيع التاريخية، وقد حدد فى أحد أعماله الأولى "شعب[٦٥] جفط فى الآثار المصرية" اسم هذا المكان، وأسماء جزر البحر الأبيض المتوسط فى العصر الميسينى. وفى مقالة "رئيس اليونانيين"، استنادًا على دراسة الألقاب السائدة فى عصر الأسرة الخامسة والعشرين وجه النظر إلى التفاعل بين مصر واليونان فى هذه الفترة التاريخية. والمهارة التى استنتج بها العالم المعلومات والاستنتاجات من المصادر المبعثرة، والتى لم تحفظ جيدًا، تدعو إلى الدهشة.

ألقى تورايف الكثير من المحاضرات المهمة فى المؤتمرات الدولية، ففى عام ١٩٠٩ شارك مع "إ.ف. تسفيتاييف" فى أعمال المؤتمر الثانى لعلم الآثار الكلاسيكى الذى جرت أعماله فى كل من القاهرة والإسكندرية.

---

(٦٥) طبقا للنتائج التى توصل إليها العلماء والمتخصصون فى علم الأسماء، فإن مصطلح "كفت" يعنى الاسم المصرى القديم لجزيرة "كريت".

وبالإضافة إلى كل ما سبق فقد قام العالم الروسى بترويج مطبوعات عن الأدب المصرى، وكان صاحب مبادرة نشر سلسلة " آثار حضارة وتاريخ مصر القديمة" ومحررها. وفى ديسمبر عام ١٩١٢ كتب "ف.س.جولينيشيف" عن فكرته لنشر سلسلة من الترجمات لأحسن أعمال الأدب المصرى والبابلى مع مقدمة وتعليقات ورسوم توضيحية جميلة للجمهور المهتم بتاريخ الشرق القديم. وفى هذه الحالة لم يكن يخطط بأية حال أن تكون هذه السلسلة مقتبسة من مؤلفات أخرى، ولكن كان يجب أن يكون فى أساس كل الأعداد ترجمات أصلية للنصوص المصرية، وقد كانت "قصة المصرى سنوحى" و"قصة عن أخين" أول الأعمال التى نشرت فى سلسلة "آثار حضارة وتاريخ الشرق القديم". وقد تم الحصول جزئيًا على النقود اللازمة للنشر من تبادل الكتب مع مصلحة الآثار ومع معهد الآثار الفرنسى بالقاهرة.

لعب أيضًا ب.أ.تورايف دورًا جذريًا فى إنشاء مدرسة علم المصريات فى روسيا. وقد انجذب إليه فورًا الشباب فى موسكو فور افتتاح متحف الفنون الجميلة، بعد تعرفه على مجموعة الآثار المصرية القديمة، كما تكونت حوله مجموعة من الشباب الراغبين فى التوصل إلى أسرار الهيروغليفية. كان السبب الأساسى لتدفق الشباب هو أن تورايف، وهو الأستاذ بجامعة سان بطرسبورج، كان يحاضر ويقدم دراسات عملية عن علم المصريات فى جامعة سان بطرسبورج، وفى الدورات التعليمية العليا الموسكوفية النسائية[٦٦]. كان معلما بالفطرة، فتابع باهتمام تلاميذه مكتشفًا أذواقهم وميولهم، واجتهد فى توجيه الشباب نحو المواضيع الأكثر جاذبية لهم والتى تناسب اهتماماتهم. لذلك السبب بالذات كان بوريس ألكسندروفيتش دائمًا محاطًا بحب تلاميذه الذين بث فيهم، بالإضافة إلى الاهتمام بتاريخ وحضارة مصر القديمة، إجلالها. وقد درس تورايف الديموطيقية (الكتابة المصرية الشعبية) فى

(٦٦) فى الوقت الحالى تحمل اسم "الجامعة التعليمية الموسكوفية الحكومية" (كانت تحمل اسم ف.إ.لينين سابقا).

آخر سنوات حياته وخصص عددًا كبيرًا من صفحات دراسته للأدب الديموطيقى. ومن المثير ملاحظة أنه توصل إلى فهم الكتابة الديموطيقية المعقدة مع مجموعة من تلاميذه. وقد علَّم ب.أ.توراييف مجموعة كاملة من المستشرقين البارزين: "إ.م.فولكوف"، و"ف.ف.ستروفى"، و"إ.ج.فرانتس-كامينيسكى"، و"أ.ف.شميدت"، و"ن.د.فليتنر"، "ف.ف.جيس"، و"ف.م.فيكنتييف".

للأسف عكرت آخر سنوات حياة العالم العظيم الأحداث التراجيدية المعروفة فى تاريخ روسيا، وجو الانهيار والتشويش السائد فى روسيا. توفى تورايف فى عنفوان قوته الخلاقة عن عمر ناهز ٥٢ سنة. وعلى الرغم من أنه لم يعش طويلا فقد ترك إرثًا علميا ضخمًا، منه الأعمال الأساسية، وعدد ضخم من البحوث العلمية تم تحليلها وترجمتها إلى الروسية من المصادر، وكذلك تلاميذه، ومجموعة رائعة من الآثار أوصى بها للإرميتاج.

انهار زمن النشاط الخلاق التالى لجيل ب.أ.تورايف من المستشرقين وعلماء المصريات فى فترة ما بعد الثورة، لسبب واحد فقط هو أن تعليمهم تم فى فترة الملكية، ولكن يجب أن نذكر أسماءهم. تعلم الكثير منهم فى الخارج:ف.ف.ستروف، فى برلين على يدى أ.إيرمان، وم.مالينين، الذى حضر محاضرات أ.مارى فى باريس،و درس فى اللوفر أساسًا النصوص الديموطيقية-برديات زمن حكم البطالسة (رقم ٢٤٣٤ و٢٤٣٧)، التى تمكن من تصنيفها.

عمل أيضًا المستشرق المعاصر لـ ف.س.جولينيشيف ف.ف.بالود فى مجال علم المصريات، وكان قد أنهى دراسته فى ألمانيا عند بيسينج، وقد أصبح مؤلفًا لعدة أعمال عامة عن حضارة وفن مصر القديمة "مصر القديمة، رسمها ونحتها" (١٩١٣)، و"فن عصر أمينوفيس الثالث " (١٩١٤). كما تنتمى إلى قلمه أيضًا بحوث خاصة "مقدمة فى تاريخ الآلهة ذوى الذقون المشابهين للأقزام فى

مصر" (موسكو١٩١٣) التى أكد فيها بعد ف.س.جولينيشيف أن ألوهية بيس المتحدة أصبحت فى العصر الهيلينى اللاحق ألوهية حلولية.

درس وعمل "ف.م.فيكنتييف" فى باريس، وقد نُشرت كل مقالاته تقريبًا باللغة الفرنسية، وربما يكون هو أول من قدر دور الملك المصلح أخناتون فى تاريخ مصر وبين أن فكرة الإله الواحد التى بشر بها هذا الفرعون لم تكن خيالية كما قد يبدو، فقد كان يوجد فى أساسها حسبة سياسية واعية، وقد قيم ف.م.فيكنتييف نشاط أخناتون تقييما عاليا وأطلق عليه اسم "رسول الجسد المنير والروح المحررة"[٦٧]. وقد أعطى الكثير من الوقت والجهد لترجمة ونشر المصادر المصرية القديمة، وهو يحارب الفكرة الراسخة فى علم المصريات عن أنه لم تكن توجد أشعار أبدًا وآداب جميلة فى مصر القديمة. وبين ف.م.فيكنتييف أنه كانت توجد فى مصر كل أنواع الآداب من أساطير ومواعظ وقصص.

وقد أحدثت الثورة انشقاقًا بين علماء الآثار؛ فقد استمر بعضهم فى العمل فى الخارج، بصفة عامة فى مواضيع تتعلق بمسائل الديانات الشرقية القديمة وتأثيرها على المسيحية.

أصبحَ فاسيلى "فاسيليفيتش ستروفى"، الذى اعتبره ب.أ.توراييف واحدا من أحسن تلاميذه، أحد أكبر المستشرقين السوفييت. كان متمكنا من اللغات المصرية القديمة والقبطية واليهودية القديمة والكلاسيكية. تناول عمله الأول دراسة البردية القبطية التى أوصى بها له توراييف، والتالى تناول ترجمة الكتابات الموجودة على تماثيل أبو الهول التى أحضرت من مصر والتى نصبت على شاطئ نهر النيفا. وقد تمكن ستروفى من تحديد تاريخ عمل هذه الآثار الرائعة ليكون فى عصر حكم أمنحتب الثالث . كما أنه درس آثار مجموعة جولينيشيف، الذى كان يحترمه بلا حدود. وقد ترجم ف.ف.ستروفى عددًا كبيرًا من نصوص مصر القديمة، ولكنه

(٦٧) B.Викентьев, 1923.-C.363

كان يتوجه أكثر فأكثر إلى التاريخ الاجتماعى والسياسى للمجتمعات الشرقية القديمة، وكان يستغرق تمامًا فى حل الموضوع الجذرى الذى كان موجودًا فى ذلك الوقت أمام علم تدوين التاريخ، وهو موضوع التكوين الاجتماعى والاقتصادى للشرق القديم. وبدأت مرحلة مواجهة العلم السوفييتى للعلم البرجوازى.

الرحالة وأصحاب مجموعات الآثار الروس في مصر

لا يمكن كبح جماح مسار الحياة، فهو يدير عجلة التاريخ ببطء ولكـن دون أن يفلتها، ويحول القصور والمعابد، والمدن التى تطمح إلى الخلود، إلـى أطـلال. فقد ابتلع الزمن بلا رحمة ما كانت الأجيال السابقة البعيدة أو القريبة تماما شـاهدة عليه، وقد تقهقر فقط أمام القليل الذى لامسه وترك عليه ختم القدم أو الزمن، فكـل شيء ينسحب أمام الزمن، ولكن فقط الكلمة التى ولدها الفكر هى القادرة على كبح جماح طوارئه الطبيعية المتهورة، التى تحطم كل ما هو موجود وأيـضًا نفـسها، وعلى استخراج ما كان منصرمًا من زمن بعيد من عدم الوجود، وعلى ربط الأيام بخيط توصيل، وعلى أن تخلق من الفوضى ومن تراكم الأحداث سلـسلة التـاريخ الطويلة، فتجعلنا قادرين على النظر إلى مصادرها. وقد قام كهنتـه مـن العلمـاء والرحالة وجامعى الآثار، بعقلهم الباحث، بإشراك كل الأجيال الجديدة واحـدًا بعـد الآخر فى عبادة الكلمة، التى كتبها التاريخ.

لقد ولدت الأرض الروسية عددًا كبيرًا مـن النـساك، كـشف لنـا قلمهـم الاستعلامى والحى ماضى الشعوب المختلفة، التى تداخلت حضارتهم فى الحضارة الروسية. فلا يمكن تصور العقيدة المسيحية فى روسيا الأرثوذكسية بـدون نـسك المسيحيين الأوائل فى مصر، وذلك يساوى عدم إمكان تـصور الفـن المـسيحى الروسى بدون الفن اليونانى الرومانى، الذى يربطه بالتقاليد الفكرية الفنية المصرية القديمة. لقد شعرت الكنيسة الأرثوذكسـية الروسية بقربها من الكنيسـة القبطيـة، وشجعت دائمًا كل الاتصالات الممكنة معها، حتى إنها راعتها إلى حـد مـا. أمـا الرحالة القـادمون من جميع أنباء روسيا فقد عرجوا دائمًا على مصر وهـم فـى

طريقهم للصلاة أمام قبر المسيح فى القدس. ومن حاول منهم النظر أكثر عمقا فى ماضى مصر اهتم بآثارها القديمة، وكون مجموعات منها أصبحت فيما بعد رصيدًا علميا لعلم المصريات الروسى. وعلى الرغم من أن العلم الروسى لا يحمل اسم "أول مكتشف" لعلم المصريات (هكذا أرادت العناية الإلهية)، فلم يكن عندها أول الرحالة-علماء الآثار، مثل "جيوفانى باتيستا بلتسونى" أو "كارل ريخارد لبيوس"، أو"ك.نيبور" أو "لودفيج بوركهارت"، ولكن قدم أول جيل من علماء المصريات فى روسيا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الكثير من المفيد لتطوير هذا العلم، وقام بإعداد مجموعة جديدة من المتخصصين، فكون بذلك مدرسة علم المصريات الروسية.

إذا تحدثنا عن الرحالة فإن مساهمتهم ليست صغيرة، فلم يكونوا كلهم من جامعى الآثار، ولكنهم كتبوا فى مذكرات رحلاتهم عن تلك المعالم التاريخية التى أصبحت غير موجودة الآن، فقد تم نقل هذه القطع الأثرية إلى بلاد أخرى، أو هدمت أو تلفت بشكل لا يمكن إصلاحه. كما يوجد جانب آخر إضافى، قد يبدو من النظرة الأولى أنه ليست له علاقة بالنشاط البحثى، ولكن هذا فى النظرة الأولى فقط. ففى الحقيقة هناك أهمية كبرى للقدرة على نقل الانطباعات عن البلد، وعن طبيعته، وعن عادات المعاصرين به، وأخيرًا عن صور الحياة اليومية، لأن التاريخ يتضح عبر كل ذلك، فهو يبعث من جديد مستمرا فى المكان وفى الزمان بغض النظر عن تغير القادة السياسيين والنظم السياسية، والتبعية لبلاد أخرى والتغيرات التى تحدث فى الحياة الدينية.

يمكن الإحساس بالحضارة المصرية القديمة فى كل مجالات الحياة بمصر التى رآها الرحالة الروس. كانوا كلهم ينتمون إلى فئات اجتماعية ومهن مختلفة، بل إن أهداف رحلتهم مختلفة، فقد أرسل بعضهم إلى هذا البلد لإقامة علاقات دبلوماسية، وبعدهم حضر إليه مهندسون وجيولوجيون وأطباء ورجال الكنيسة.

والمجموعة الثالثة حضرت إلى مصر بهدف محدد ، وهو الحصول علـــى الآثـــار القديمة للمتاحف الحكومية الروسية. وفى النهاية زار مــصر روس كـــى يقــدموا إجلالهم للأماكن المقدسة أو ليتخلصوا من الحزن والملل. ولكن يجمعهم كلهم شيء واحد، هو الإعجاب بقوى الشعب الخلاقة التى تمكنت من خلق حضارة أبدية عانت حتى من تأثير استقلالها السياسى، ولكنها فتنت العالم لعدة قرون لاحقة. وقد يبــدو أحيانًا أن قليلاً من السذاجة يشوب الرغبة فى إخبار القارئ العصرى الذى أغوتــه المعارف والتفاصيل عن حضارة مصر القديمة، ولكن الكثير منهم عندما توجهــوا فى رحلة، تعرفوا على مواد خاصة مكتوبة فى عصرهم، وكــذلك علـــى أعمـــال المؤلفين القدامى وعلى فكرهم وأحاسيسهم، نتيجة لتعـــاملهم المباشـــر مـــع الفـــن المصرى القديم، والتى تمثل قيمة خاصة. فليكن هذا الكتاب دليلا على الاعتـــراف بالفضل لكل من كتب مذكرات يومية، أو سجل لرحلة، فأعاد التاريخ إلى الحيـــاة، وكذلك لهؤلاء الذين لم تحفظ الموسوعات أسماءهم، ولكـــنهم أضـــافوا إلـــى علـــم المصريات ولو بقدر بسيط.

شهادة تاريخية

ترجع أصول اتصالات بلدنا مع مصر إلى قـــرون بعيـــدة، عنـــدما ظهـــر الأسكوثيون المحاربون عند أبواب مصر، لم يحضروا إليها بنيات طيبـــة، ونجـــح الملك المصرى "بسامتيك" من إقناعهم بالعودة. هذا على الأقل ما رواه هيرودوت، ولكن علم التاريخ ليست لديه معلومات يؤكد بها هذه القصة. ولكـــن يمكـــن تتبـــع العلاقة بين البلدين بوضوح بدءًا من عصر "أخيمينيت"، حيث إنهما كانا معًا ضـــمن أول إمبراطورية عالمية كونها الملوك الفرس. وقد عاش فى مصر قوم مـــن مـــا

وراء النهر، كما أنه تم ترحيل الكثير من المصريين إلى وطنهم. ولكن حدث ازدهار فى العلاقات الدولية فى العالم المسكون، فى العصر اليونانى الرومانى، عندما جاءت سفن تجارية محملة بالبضائع من مدينة "تسوكراتيس" إلى مدن "البوسبور"(الاسم القديم للبوسفور) الواقعة على ساحل البحر الأسود. وتسلل الكثير من الحلى إلى أبعد الأماكن فى روسيا فى ذلك الزمن، حيث تم نقلها على طرق القوافل. وقد وصلت إلى قبائل ما قبل السلافية التى سكنت مدينة زاروب (مدينة وقلعة روسية قديمة كانت موجودة فى الفترة من القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر على ضفة نهر الدنيبر) على ضفاف نهرى "الدنيبر" و"بوج". وليس معروفا هل كانوا هناك يعرفون وجود هذا البلد "مصر"، ولكن من المعروف تماما أن الحجاج حضروا إلى مصر بعد نشوء الدولة الروسية القديمة منذ القرن الحادى عشر، وتشهد على هذه الرحلات المدونات التأريخية والكتابات التى حفظت فى المخطوطات الأقدم.

أول التجار الروس فى مصر

رحلة "فاسيلى جريجوريفيتش- بارسكى" المدهشة

وسَّعت روسيا حدودها فحصلت بذلك على مخارج إلى البحر، واقتربت بهذه الطريقة من بلدان الشرق وأدخلتها فى سياستها وتجارتها الخارجية. فقد سافر فى عام ١٦٣٦ "فاسيلى جاجار" القادم من مدينة "قازان" على سفينة فى النيل، وفى عام ١٧٢٣ خرج من كييف راهب طاف العالم على مدى ٢٤ عامًا كاملة، وقد حضر إلى مصر فى عام ١٧٢٧. كان هذا الشخص هو "فاسيلى جريجوريفيتش بارسكى" الذى ألف كتاب "السفر إلى الأماكن المقدسة". ولكن نشر هذا الكتاب بعد ٣١ سنة

من الانتهاء من كتابته، أى عام ١٧٧٨ فى مدينة بيتربورج بعد تدخل الأمير "جريجورى ألكسندروفيتش بوتمكين". ولكن حظى هذا الكتاب بشعبية كبيرة عند جمهور القراء، وانتشر بسرعة فى قوائم متعددة تطلب شراءه فورًا بعد عودة بارسكى من رحلته وكتابته للنسخة الأصلية. وقد اتبع الكثير من الحجاج الذين زاروا مصر والبلاد الأخرى فيما بعد (شكل ٢٠) ما جاء به.



(شكل ٢٠) القاهرة (رسم جريجوريفيتش بارسكى)

وقد أذاع بارسكى أن مصر ليست بلدًا عظيمًا فحسب، ولكن القاهرة نفسها كبيرة مثل بلد كامل؛ ففيها يعيش ممثلو شعوب مختلفة، ويتاجرون بنشاط فى مختلف البضائع النفيسة، ويوجد بها مأوى للتجار الهنود والعائدين إلى مصر. كما توجد فى القاهرة ثلاث كنائس أرثوذكسية، كنيسة القديس "نيكولاى"، وكنيسة الشهيد العظيم القديس "جرجس" الموجودة فى الدير، وكنيسة "العذراء قصرية الريحان". وقد أطلق بارسكى على الأقباط – أى المسيحيين المصريين – اسم "الهيراطيقيين" الذين يمارسون عملية الختان أثناء التعميد، ولهم بطريرك خاص. تعتمد رفاهية البلد على النيل، فعندما يفيض يحفر الناس القنوات التى توجه المياه لرى الحقول. وتعطى هذه الحقول محصولا وفيرا، يطعم البلد. كما أن البحر الأحمر من ثروات

مصر حيث تنقل البضائع عن طريقه من جنوب شبه الجزيرة العربية ومن الهند إلى النيل، عبر الطرق المعروفة، ثم تشحن فى مراكب نيلية وبعد ذلك يتم توزيعها فى كل أرجاء البلد وخارج حدودها. يوجد الكثير من البضائع المتنوعة فى أسواق القاهرة الصاخبة، فتوجد بها الفضة بوفرة، كما أن من يعمل فى الفن يكون غنيا بصفة خاصة. وقد كتب بارسكى عن القلعة(٦٨) التى كانت موجودة فى ذلك الوقت ما يلى: مكان مرتفع ، هناك يعيش الباشا، وتتم فيها المحاكم ، كما يقيم فيها مختلف الرؤساء، وتصك فيها العملات النحاسية والفضية والذهبية. كما قال عن الآثار القديمة ما يلى، فهنا كانت توجد قصور الفراعنة ويوسف الصديق، أما الآن فهذه الأماكن مقفرة ومهدمة.

"توجد هناك عدة أعمدة مبنية من حجر واحد، وهى ضخمة لدرجة أن الجميع تصيبهم الدهشة من تمكنهم من بنائها، حيث يمكن أن يحيط بها ثلاثة أفراد. أما ارتفاعها فكان ٦ أو ٧ ساجينات (وحدة قياس روسية قديمة تعادل متر و١٣ سنتيمترا). وتسمى هذه العمالقة "مسلات". وقد شيدها ملوك قدماء المصريين، وحفظت حتى يومنا هذا، حيث لم تهدم. وهى تشهد على غرور هؤلاء الملوك".

هكذا وصف بارسكى المسلات القديمة الموجودة فى القاهرة. وقد حفظت أطلال أحد المبانى القديمة، التى اعتقد أنها بقايا قصر يوسف الصديق، رسومًا لزهور رائعة وأشجار متنوعة وفواكه وطيور وأشياء أخرى، كما يوجد رسم ليوسف وللبئر على أحد الحائطين اللذين بقيا.

---

(٦٨)على الأرجح اختلط هنا الأمر فى ذاكرة الرحالة، حيث إنه زار مكانين، "قلعة محمد على" التى تعتبر المركز الإدارى والسياسى بالقاهرة فى تلك الأيام، وقلعة "بابيلون" القديمة، التى ترجع إلى ما قبل الفتح الإسلامى، والتى تعتبر مركز المدينة (القاهرة القديمة)، وهو المكان الذى فيه الأماكن المسيحية المقدسة، الكنائس والأديرة.

وقد رأى التاجر الروسى فى القاهرة القديمة (الفسطاط) المغارة التى اختبأت بها السيدة العذراء مع السيد المسيح وهو طفل، وقد شيدت فوقها كنيسة العذراء القبطية.

وقد ذهب بارسكى إلى الأهرام، وأطلق عليها اسم "الجبال التى صنعها البشر يدويًا"، أو جبال الفراعنة. وهو يروى هنا القصة الخيالية التى كانت على الأرجح منتشرة فى ذلك الوقت عن أنه قد تم بناء الأهرام للاختباء فيها أثناء فيضان النيل. وعند عودته إلى القاهرة، توجه بارسكى بعد ذلك عبر الصحراء العربية إلى السويس ثم بعد ذلك إلى سيناء.

فى القرن الثامن عشر، قام الكثير من التجار الروس برحلات إلى مصر عبر الطريق الذى أصبح معروفًا. كانوا غالبًا قد تمكنوا من معرفة الأسعار والبضائع وجغرافية مصر بدرجة كافية، فأقاموا علاقة تجارية منتظمة مع مصر. وعلى أية حال فقد ظهرت فى ذلك الوقت أول معلومات عن تكوين أول مجموعات حكومية من الآثار المصرية القديمة والمجموعات الخاصة التى تم جلبها من مصر، والتى تم شراؤها من التجار المحليين[٦٩].

الأمير العظيم نيكولاى فى دور عالم الآثار

من المعروف أن صهر الإمبراطور "نيكولاى الأول" قام بنفسه بعمل حفريات فى الجيزة فى المنطقة بين أبو الهول وهرم خوفو، وقد تمكن من اكتشاف توابيت أعضاء عائلة الملك "أماسيس" والتى تم ضمها لمجموعة الآثار المصرية

---

(٦٩) وقد تحدث عن تلك المجموعات عالم المصريات أ.د.بيرلف فى كتابه "تاريخ علم الاستشراق الروسى" (О.ДБерлев История отечественного востоковедения,-М.,1990)

القديمة بمتحف الإرميتاج، وفى الحقيقة كان ذلك بداية تكوين مجموعات الآثار فى مدن أقاليم روسيا.



(شكل ٢١) الأمير نيكولاى العظيم

بدأ تدفق النبلاء والتجار وأغنياء روسيا الراغبين فى السفر إلى مصر يتزايد، وتكوين مجموعات من الآثار القديمة الغريبة منذ بداية القرن التاسع عشر، ثم جاء بعدهم الرحالة إلى مصر بحثًا عن المعلومات عن تاريخ روسيا المرتبط تمامًا بتقاليد الكتاب المقدس والإنجيل.

جاء الدبلوماسيون و"الأطباء" من روسيا للبحث عن الآثار القديمة

لم تكن روسيا بعيدة فى القرن التاسع عشر عن الأحداث السياسية والثقافية فى أوروبا، لذلك فقد تجاوبت مثل باقى الدول، مع الصرخة التى تسبب فيها فك فرانسوًا شامبليون لشفرة الكتابة الهيروغليفية المصرية. تفاعلت أوروبا الحساسة للموضة بطريقتها الخاصة لاستكشاف مصر بعد حملة نابليون، فأحاط الوجهاء أنفسهم بأشياء صنعها الفنانون والنحاتون بالأسلوب المصرى. ولم يتخلف الوجهاء

الروس عن الغرب فى ذلك. أما على المستوى العلمي، فقد تغـذت روسـيا فـى الأساس على معارف العلماء الأوروبيين الذين تمت ترجمـة كتـبهم إلـى اللغـة الروسية. وقد ألقيت المحاضرات عن تاريخ الفن المصرى فى الجامعات، وتمـت دراسة مجموعات الآثار. ثم نمت بسرعة فى روسيا مجموعة مـن المتخصـصين ذوى المستوى العالى من علماء المصريات والتاريخ ومرمّمى الآثار.

لعب الدبلوماسيون الروس دورًا مهما فى تعريف روسيا بالآثار المـصرية القديمة. لم يكن ممكنًا وصف العلاقة بين روسيا والإمبراطورية العثمانيـة بأنهـا هادئة مطلقًا، وكان ذلك بسبب النزاعات المتبادلـة علـى الأراضـى، وانجـذبت الدبلوماسية الروسية فى أثناء هذا النزاع المشترك إلى مـصر. وطبقًـا لاتفاقيـة "كيوتشوك- كايناريسكى" للسلام التى أنهت الحرب بين روسيا وتركيا فى أعـوام (١٧٦٨-١٧٧٤)، فإنه أصبح من حق روسيا أن ترسل إلى مصر قناصلها. وقـد أصبح البارون "فون تونس" الذى حضر إلى البلد فى عام ١٧٨٣ أول قنصل عـام لروسيا فى مصر. وقد لعبت إقامة علاقات دبلوماسية مباشرة بين روسيا ومـصر دورًا مفيدًا جدا فى إنشاء مدرسة علم المصريات الروسى. ومن المعروف جيدا فى هذا الخصوص نشاط "ألكسندر أوسيبوفيتش ديوجاميل"، خاصة من "سيرته الذاتية"، فقد ربط ترقيه فى الوظائف الدبلوماسية بمعرفته العميقة بتـاريخ مـصر. وأثنـاء وجوده فى مصر فى فترة حكم الوالى المصلـح الكبير لمـصـر "محمـد علـى" (شكل ٢٢)، فإن ديوجاميل قدم المساعدة للرحالة الروس، وقـدم بعـضهم للباشـا نفسه، فقام بدوره بإعطائهم خطابات لحكام المدن المصرية كى يقدموا العون الـذى قد يحتاجه الرحالة أثناء سفرهم فى مصر، حيث كان من الممكن أن يقابلوا فى كل خطوة ظروفًا كثيرًا ما تكون غير سارة فى هذا البلد الغريب عنهم، والذى كانوا قد لا يعرفون عاداته. ولكن كان محمـد علـى يميـل بـصفة خاصـة للـسياسيين وللمتخصصين فى كافة المجالات العملية، التى كان يتوقف عليها نجاح الإصلاحات العظيمة فى مصر.



(شكل ٢٢) الوالى محمد على (د.روبرتس)

نظم استقبال رسمى عند الوالى لـــ "أ.س.نوروف" الذى زار مصر مـــرتين بفضل جهود ديوجاميل. لم يحضر إلى مصر فى المرة الأولى بصفته الشخـــصية، ولكنه فضل وصف نفسه بالحاج الذى سوف يتجه بعد ذلك إلى القدس، والذى يريد أن يتعرف على مصر بكل تفاصيلها. ويمكن الحكم على مدى ســعادته بإمكانيـــة زيارته لمصر بفضل جهود ديوجاميل من كلماته التالية:

"لأول مرة منذ سفرى من أوروبا، استراح قلبى للحديث الودى معـــه، وقـــد منحتنى المعلومات الكثيرة والملاحظات التى قدمها لى الفرصة كى أضم فى كتابى الكثير من المعلومات الإيجابية عن الوضع الحالى فى مصر".

تعامل النائب المصرى للسلطان التركى، أى فى الواقـــع الحـــاكم الأوحـــد المستقل، بلطف مع اعترافات نوروف، وكان مجاملا له لدرجة أنه زوده بخطابات مناسبة لحكام الأقاليم كى يعضدوا ويساعدوا هذا الرحالة العالم الروسى.

لم يكن أ.س. نوروف يمثل استثناءً سعيدًا بين من جاءوا من مختلف الدول، ومنها روسيا، ليفكروا ويشاركوا بالفعل فى الإصلاحات التى تحدث فـــى مـــصر، والتى خطط لها محمد على، فهو قد جامل أيضًا القادمين الآخرين من روسيا، الذين قدموا عونًا كبيرًا لبلده. كانت التغييرات التى اهتم بها الخديو سوف تغيـــر شـــكل مصر فى جميع مجالات الحياة. فقد كان كل من الاقتصاد، والزراعـــة، والنقـــل، والتعليم، والطب، والصناعة التحويلية والاستخلاصية بحاجة إلـــى الإصـــلاحات، وكان على الإصلاحات أن تحول البلد إلى قوة مزدهرة على الطراز الأوروبى.

وبفضل العلاقات الدبلوماسية القائمة تدفق إلى مصر بمعنى الكلمة العاملون فى مختلف المهن، خاصة المهندسين، والجيولوجيين، والأطباء اللازمين. وكان من بينهم الكثير من الروس الذين تقابلوا عدة مرات مع محمد على. لقد عاشوا لفترات طويلة فى مصر، وبجانب قيامهم بأعمالهم المهنية، درسوا بعمق حياة هـــذا البلـــد الحديثة بالنسبة لهم، بالإضافة إلى ماضيها، وكتبوا عن ذلك فى كتبهم العظيمة التى خصصوها لوصف حياتهم فى بلد الأهرام.

وقد سافر إلى مصر الطبيب الشهير فى وقته أخصائى الأمـراض الوبائيـة "أرتيمى ألكسييفيتش رافالوفيتش" (أعوام ١٨١٦-١٨٥٦) لدراسة وبـاء الطـاعون الذى قضى على حياة الكثيرين فى الأربعينيات من القـرن التاسـع عـشر. وقـد خصص فى كتابه عن مصر الدنيا والدلتا الكثير من الـصفحات لوصـف الآثـار التاريخية. وعند عودته إلى روسيا أهدى مجموعته من الآثار المـصرية القديمـة لمتحف مدينة أوديسا.

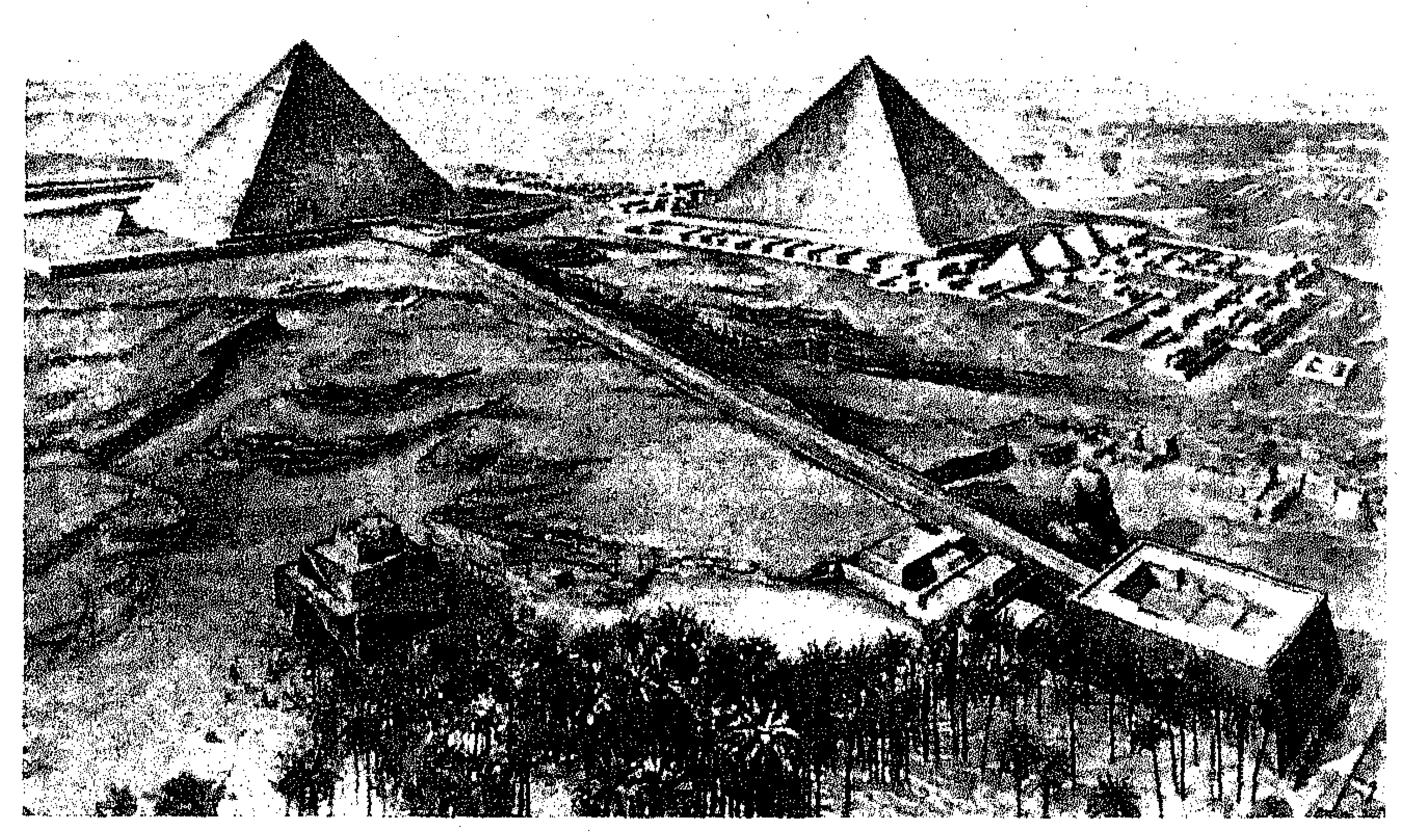
كما حضر إلى مصر فى منتصف القرن التاسع عشر الطبيب "أ.أومـانتس" مؤلف كتاب "رحلة إلى سيناء، مع سرد مقتطفات عن مصر والأرض المقدسة"[٧٠]، والذى قدم فيه الكثير من الوقائع التاريخية. وقد عاش فى مصر فـى نفـس هـذه الفترة، تقريبًا مهندس المناجم "يجور بتروفيتش كوفالفسكى" الذى نشر بعد عودتـه مؤلف "رحلة فى داخل إفريقيا"[٧١].

كانت زيارات بعض الروس لمصر أقصر من ذلك كثيرًا، ولكنهـا كانـت أيضا بالمثل "مثمرة" فيما يخص الفن المصرى القديم، فقد حضر إلى مصر الكونت "أورلوف" فى عام ١٨٣٣ فى مهمة دبلوماسية. وكان قبطان السفينة التى أقلته إلى مصر هو الربان- الملازم "إيفان بتروفيتش بوتينيف"، الذى أصبح مالكا لمجموعـة من الآثار المصرية القديمة حصل عليها من القنصل العام للسويد "أناستاس"، أمـين عام المجموعة الغنية. وفيما بعد منح إ.ب.بوتينيف هـذه الآثـار لمتحـف مدينـة "ريفيلى".

(٧٠) СПб.,1850

(٧١) СПб.,1849

قام الكثير من المستشرقين برحلات إلى مصر، وكـان مـن بيـنهم "بيتـر ألكسندروفيتش تشيخاتشيف" الباحث الذى لا يكل من دراسة منطقة ألتـاى (منطقـة جبلية فى سيبيريا الشرقية). ومن الجدير بالذكر التنويه عن بعض من ألف كتبًا عن رحلته لمصر مثل: عالم التاريخ "إ.ن.بيريزينا"، والكاتـب "ن.ف.بيرجـا"، وعـالم البيزنطيات الروسى الشهير "ن.ب.كونداكوف"، والرحالة الروسى "أ.ف.يلايسييف"، والإعلامى "ى.ل.ماركوف"، وكثيرين، كثيرين آخرين. وقد كتـب عـالم التـاريخ "أندريه نيكولايفيتش مورافييف" كتابه الرائع "رحلة فى الأماكن المقدسة"، كتب فيـه سطورًا عن مصر أدهشت الشاعر الروسى الفذ "أ.س.بوشكين":"قرأنا كتاب السـيد مورافييف بحنان وغيرة عفوية وهو لا يتوقف، يسرع، يتحاور مع مصلح مصـر الغريب، ويدخل إلى عمق الأهرام، ويدخل إلى الصحراء، التى تنعشها خيام البـدو السوداء وقوافل الجمال، ثم يدخل إلى أرض الميعاد، وفى النهاية ينظر فجأة إلـى القدس من أعلى"(٧٢) .



(شكل٢٣) أهرام الجيزة (إعادة تصور بنائها طبقا لهلشر)

---

(٧٢) Полн. Собр.соч. в 10Т.- Изд.4.-Л.,1878.- С.180-181

الإعجاب الحقيقى "لأوسيب سينكوفسكى" بمصر

(أحد أوائل المستشرقين الروس)

"يمكن أن نعجب فقط بما يستحق الإعجاب، فهذا يستحق".

هذه كلمات المستشرق "أوسيب إ. سينكوفسكى". وبالطبع فإن أوسيب إيفانوفيتش كان ينسب نفسه إلى فئة الرجال الرشيدين، ذوى الذكاء البارد وذوى الروح الانتقادية. كان واحدًا من أوائل المستشرقين الروس، وقد تلقى تعليمًا رائعًا بجامعة فيلنوس. كما أنه كاتب وإعلامى سافر كثيرًا فى الشرق. كان لا يزال شابًّا، عندما زار مصر والنوبة عام ١٨٢٠. وبعد عودته عام ١٨٢٠ نشر مذكراته التى تضمنها الجزء الأول من أعماله الكاملة، وقد انعكس فيها تأثره المباشر بالآثار المصرية القديمة التى تقع فى ضواحى القاهرة. وبالطبع تحتل الأهرام مكانًا رئيسيا فى كتاباته. فهى عامة يمكن أن تكون نوعًا من ورق عباد الشمس(*) لتحديد جوانب شخصية وعقلية أىٍّ من الرحالة، حيث إنَّه مهما قيل عن الأهرام، فهى رمز لمصر القديمة.

وفيما يلى كيفية تأثر ذلك الإنسان الصفراوى تماما، البراجماتى، وبالإضافة إلى ذلك الساخر للغاية "سينكوفسكى" .. فقد كتب عن أهرام الجيزة كما لو كانت ظاهرة، لا تكفى الكلمات لوصفها، حتى عند شخص بهذا القدر العالى من الثقافة.

"لا يمكن وصف الانطباعات التى تتركها مثل هذه الآثار، التى يعطيها هواء مصر الملتهب لمعانًا خاصًّا، يفتن البصر. فهى تبهت نظرات الجوال، وتخيفه، ولكنها لا تدهشه. لا يمكن ألا نندهش من رؤية هذه العمالقة، التى بنتها أيدى

(*) وهوالذى يستخدم لبيان نوعية المحاليل، قلوية أو حمضية. (المترجم)

الإنسان، ولكن من الصعب معرفة إلى ماذا نرجع هذه الدهشة: هل لعظمة البناء، أو لضخامته وحدها".

بعد ذلك بقليل يلاحظ أ.إ.سينكوفسكى، وهو يصف البنية الداخلية للأهرام، أنه " لا يوجد فى الداخل أى شىء مدهش أو جميل، وأنه لا يوجد ما يذكر بعظمة هذه المبانى من الخارج. كتب سينكوفسكى أن الأهرام يجب ألا تدعو إلى الإحساس بالدهشة، حيث "ليس هناك سر فى نوعية الشعب والحكومة اللذين كان يجب أن يوجدا كى يتم تشييد هذه العمالقة". فقد نجح محمد على فى إنشاء قناة من النيل إلى الإسكندرية بخسائر إنسانية فادحة، لا يحصيها الحكام.

اختلف سينكوفسكى عن الكثير من الرحالة الذين وصفوا عملية تسلق هرم خوفو، حيث إنه لم يقم بذلك، ولكنه قدم وصفا رائعا للمنظر الذى يظهر أمام النظر:

"يجرى النيل بعظمة عبر الشريط الضيق المغطى بخضرة رائعة، تشقه القنوات فى عدة أماكن، والتجمعات السكنية مبعثرة فى كل مكان، عددها من أربعين إلى ستين، تحيطها الأحراش الجميلة، وفى النهاية يظهر للنظر كل من القاهرة الجديدة والقديمة، والجيزة، ومبانيها الرائعة، المنقوشة بألوان زاهية وحية. يمثل كل ذلك لوحة مختلفة العناصر لبلد جميل، خصب وكثير السكان، ويظهر تناقضًا مدهشًا مع الصحارى الرملية القاحلة التى تحيط بها. لقد أطلقت النار عدة مرات من بندقيتى كى أعرف تأثير الصوت، صدى مكتوم وممطوط، يشبه الأنين، وينتهى بصوت حاد، مشابه لضربة الثور. وقد طارت الطلقات بصعوبة إلى منتصف الارتفاع".

تبين أن المثل الذى قدمه كان يمثل عدوى للرحالة الذين جاءوا إلى مصر ومعهم كتاب مذكرات سينكوفسكى وفعلوا مثله، فتركوا توقيعاتهم على قمة هرم خوفو.

بقى أ.إ. سينكوفسكى فى كتاباته من فوق قمة الأهرام كمستشرق بالإضافة إلى كونه كاتبًا، كرائد سباق لعلماء الآثار المعاصرين، الذين يرون التصوير من الطائرات ضروريا، فهو لم يصف المنظر الرائع الممتد تحته، وحده بالتفصيل، ولكنَّه وصف أيضًا التلال الشاهدة على المبانى الأثرية القديمة التى ما زالت مدفونة تحت الرمال:

"بين الحائط الغربى للهرم الأول (هرم خوفو) والحائط الشمالى للهرم الثانى (هرم خفرع) توجد مقابر مرصوصة مثل لوحة الشطرنج. وهى الآن مغطاة بالرمال، ويظهر رسمها بصعوبة. عند النظر من أعلى الأهرام يمكن ملاحظة أن الكثير من أكوام الحجارة، الراقدة عند سفحها كانت أيضًا أهرامًا. وما زالت حتى الآن تميز أثار قواعد الكثير من المبانى الكبيرة، التى لا يقل حجمها عن ضخامة الأهرام الكبيرة".

فى وقتنا الحاضر تم منذ زمن بعيد الانتهاء من الحفريات فى مدينة الموتى هذه، التى دفن بها وجهاء الدولة. ولكن تبين أنه لا يوجد أى مبنى يمثل هرمًا. فكانت هذه القواعد عبارة عما يسمى "مصاطب"، أما الهرم فهو مقبرة للحاكم الأعلى.

ويقارن أوسيب سينكوفسكى الأهرام بالتلال التى فوق القبور القديمة، والتلال التى يمكن رؤيتها فى المناطق من" بوميرانيا" إلى ضفاف "إيرتيش" فى سيبيريا أو فى أى أماكن أخرى:

"يتكلف الأمر مجرد ملاحظة بنية التلال التى فوق القبور فى أخيليسوف بترو، التى اكتشفها فى البداية شووازيل ثم اكتشفها السير روبرت ليستون، السفير الإنجليزى السابق ببلاط الآستانة، حتى يتضح أن الترتيب الداخلى مماثل لما فى هذه الأهرام".

ولكن لا يمكن أن نتفق مع تصريحه هذا، فهو عام للغاية.

فى ذلك الوقت لم يكن قد تم العثور بعد على مدخل الهرم الثالث (هرم منقرع) ولكن كانت توجد محاولات للعثور عليه قام بها من أطلق عليهم أ.إ. سينكوفسكى اسم "رجال الصناعة القاهريين الوحوش"، أى صيادى الآثار القديمة . كما أنه وصف فتح البئر العميقة التى كانت تحتوى على تمثال لأبو الهول حديثًا وإلحاق ضرر كبير به أثناء إخراجه. وتوجد الكثير من هذه الآبار قرب الأهرام حيث إنها كانت تؤدى إلى المدافن.

وقد ترك تمثال أبو الهول الكبير الانطباع الأكبر لدى المستشرق، وهو يقدم وصفا لداخل هذا الأثر الفريد فى عمارة مصر القديمة. وقد اكتشف بين قدميه مدخلاً لمعبد يتكون من خمس قاعات، غطيت جدرانها برسوم بارزة تمثل الحياة اليومية: جمع التمر وإعداد الطعام وكذلك مناظر لتقديم الذبائح. وقد حدد أوسيب كل ذلك على أنه أحسن نماذج للفن المصرى، ولكن كانت حالتها سيئة، حيث إن بعض المسلمين الحانقين قد أتلفوا جزءًا كبيرًا منها بلا رحمة. وهو يذكر أيضا العثور على كتابات هيروغليفية عند قدم أبو الهول. وهو هنا قد يقصد لوحة تحتمس الثالث.

ذهب مرة أخرى سينكوفسكى قريبًا من أبو الهول بعد سفره إلى مختلف مناطق مصر وإلى النوبة، وكانت الحفريات قد انتهت فى هذا الوقت، فكتب:

"هذه الصخرة الضخمة، التى أعطتها يد النحات صورة إنسان، سوف تثير دائما الدهشة؛ فعند النظر إليها، يمكن بصعوبة تصديق أن ضعف الإنسان كان يستطيع أن ينجز مثل هذا العمل الضخم".

لم يثبت قلبه عند رؤيته للأهرام فى الليل، فى ضوء القمر:

"يجب أن أعترف أن هذا المنظر كان بالفعل عظيمًا. فقد غطى القمر هذه الآثار القديمة بضوء سحرى، يفوق أى وصف. كان كل شىء يبدو ضخمًا، لا يمكن تحديد أبعاده، فقد اختفت الأشكال الخشنة، وسادت العظمة وحدها. وقد زاد صمت الليل الدهشة، التى تغرق فيها الروح رغمًا عنها فى الذكريات والأفكار، التى تتولد عند رؤية مثل هذه العظمة".

لو لم تكن الليلة السحرية، وضوء القمر الغامض، الذى يلون هذه الإنشاءات المدهشة، عمالقة الصحراء "الحامية" لمصر من الغرب، لما تفتحت أبدًا عند هذا الرجل الفطن الأحاسيس المكبوتة لرومانسى عظيم. قد يكون ذلك السبب الذى أدى بأوسيب إيفانوفيتش كى يتعامل بهذا القدر من الاحتقار والغيظ مع هواة الآثار القديمة الذين "يفقدون شعورهم بسبب أى شىء صغير فقط لأنه قديم"، وكان يشارك السكان المحليين السخرية من هؤلاء المجانين. لم يكن يطيق الباحثين عن السعادة، الذين كانوا يسافرون إلى مصر من أوروبا كى يخدعوا بحرية سكان هذا المكان، عندما كانوا يدفعون القليل فى مقابل الآثار القديمة، وكل ذلك تحت حماية القناصل الأوروبيين. كان يستنكر الكثير من التقاليد الفاضحة، ويكشف جوهر هذا العمل الفاسد:

"فشلوا فى تحقيق مآربهم فوجدوا طريقتين: أن يصبحوا من تجار العاديات أو أطباء. ويعمل بالمهنة الأخيرة أفاقون تمامًا. أما التجار الذين أفلسوا فهم يختارون عامة اسم تجار عاديات، وكثيرًا ما يصادقون الرجال ذوى المناصب الكبيرة، الذين لا يرضون عن كونهم قناصل، بل يريدون أيضًا أن يصبحوا علماء فى الوقت نفسه. ومن يرغب فى أن يكون تاجر عاديات يبدأ بإرسال ابن أخيه أو ابنه أو أحد أقاربه، إلى مصر العليا كى يجمع بعض القطع المهشمة فى طيبة أو أرمنت أو أى مكان آخر مميز فى القاهرة".

هكذا نشأ علم المصريات، وهو للأسف، كأى بداية، لا يخلو من سمات سلبية. فى أثناء وجود أ.إ. سينكوفسكى فى القاهرة اكتشف صدفة أحد موظفى القنصلية الفرنسيين الموجودين بها مدخل هرم زوسر.

وطبقًا للأقاويل التى وصلت إليه كانت قد اكتشفت فى الهرم سقالات نجارة وكتابات، وكثير من الأشياء الأخرى. وفى سقارة دخل فى إحدى المقابر متعددة الحجرات. كان مدخلها محاطًا بصفين من الأعمدة تغطيها الرمال إلى منتصفها. وكانت جدران حجرتين محفوظة على أحسن صورة، حيث كانت تغطيها رسوم بارزة منقوشة على ملاط. كانت توجد ردهة توصل من الحجرة الأولى إلى الثانية بها تابوت صنع بطريقة رائعة من الحجر الجيرى. وفيما بعد حاول الصيادون، الذين لم يحبهم سينكوفسكى أبدًا ، إخراجه ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك فتركوا مشروعهم بعد أن كسروا التابوت إلى عدة قطع. وقد حاولوا نقل المقبرة إلى باريس بأن خلعوا كل الملاط المحفور. وقد كتب أ.إ. سينكوفسكى أن ذلك كان قد يؤدى لفهم بنية المقابر ومحتويات الرسوم البارزة أحسن مما تفعل آلاف الكتب والرسوم والخرائط. ويضيف " من الأفضل، أن تكون هناك رسوم أكثر للعادات والأشياء، ولكن المقابر مليئة بالكتابات الهيروغليفية، التى لا تحدث العقل أو الفهم عن أى شىء". من الصعب أن يكون للعالم مثل هذه الأفكار، ولكن للأسف هذا هو الواقع، وعندما ولع كل العالم المرتبط بتاريخ الشرق بفك شفرة الكتابات القديمة فإن مثل هذه الاستنتاجات تظهر فقط لسان الاستشراق الاحترافى.

ولكن لم يكن سينكوفسكى عالم مصريات، ولم يدخل فى مناقشة تتعلق بأسس فك شفرة الكتابة المصرية القديمة، واسترشد بآثار الحضارة المادية. لم يكن قد جاء إلى مصر بعد زمن اكتشافات الآثار اللامعة. كان ذلك قبل أعمال "أوجست مارييت" بستين عامًا. كانت سقارة تمثل قطعة لذيذة للمجرمين من الأثريين، وينسب أ.إ. سينكوفسكى لهم ج.بيلتسونى، الذى اكتشف قبل ذلك بقليل مدخل هرم خفرع.

ولكن كان هذا المستشرق الروسى ينظر بشك كبير إلى هذا الاكتشاف، وأعلن أن بيلتسونى قد أزاح فقط حجرا كان يسد مدخل الهرم. كما أنه لم يفعل ذلك بيديه ولكنه أشرف على الفلاحين الذين قاموا بذلك. كما أن الرحالة الشهير "لودفيج بورهارد"، الذى كان يعرف باسم "الشيخ إبراهيم"، أراه مكان المدخل. فأحس نتيجة ذلك بيلتسونى بالإهانة، وعبر عن إحساسه بنشر تكذيب، أثناء زيارته لمدينة بيتربورج، أكد فيه على وجه الخصوص بأنه لم يسع أبدا كى يحمل لقب عالم عاديات. وبالمناسبة لم يكن الجدل وعدم الفهم يخصان فقط علماء هذا الزمن.

تحققت أمنية "أ.س.نوروف": إنه فى مصر

كانت لسفريات "أفرام سيرجيفيتش نوروف" (شكل ٢٤) إلى مصر أهمية رمزية كبيرة. كان عددها اثنتين، وكلتاهما حددت طريقه الروحى والإبداعى. كان أ.س.نوروف (١٧٩٥-١٨٦٩) ينتمى إلى سلالة النبلاء الذين يمتون بصلة قرابة إلى "يكاترينا داشكوفا" الشهيرة، فهى التى أسست أكاديمية العلوم الروسية. كان ضابطًا محاربًا ومدفعيًا، وشارك فى معركة "بورودينو" (ضد جيوش نابليون بونابرت) حيث قاد بطاريتى مدافع، ولكن طبقًا لكلام أ.س.نوروف نفسه هشمت كريات الرصاص قدمه إلى قطع، وأنهت بذلك مستقبله العسكرى. وقد سقط من أرض المعركة فى الأسر، وأجريت له جراحة فى المستشفى الفرنسى بموسكو، توجه بعدها إلى قريته "كلوتشى" بمحافظة "ساراتوف".



(شكل ٢٤) أ.س.نوروف

رحلة فى الأرض المقدسة

فى عام ١٨٢٣ ودع الضابط السابق أ.س.نوروف الخدمة العسكرية نهائيًا وتفرغ تمامًا للعمل العلمى، فدرس التاريخ والفنون القديمة. وقد جذبه ذلك إلى السفر، فسافر إلى إيطاليا، حيث تعرف صدفة على والدة نابليون، وزار جزيرة صقلية، التى كتب عنها مؤلفًا من مجلدين. هكذا بدأت حياة إبداع هذا الإنسان المميز الموهوب. ثم التحق فى عام ١٨٢٧ بالعمل فى وزارة الخارجية وأصبح فى الواقع عالمًا مدونًا للتاريخ بهذه الهيئة، فكتب مذكرات تاريخية عن العاملين بها وأنشطتهم منذ أن تم تأسيسها فى عام ١٨٠٢.

ترقى أ.س.نوروف فى مختلف المناصب بنجاح، ولكن روحه كانت موهوبة لشيء آخر، فقد كان إنسانًا ذا أفكار دينية، وكان يحلم بأن يرى عالم الكتابات المقدسة بعينيه، وأن يذهب إلى الأماكن التى ترك فيها الشهداء المسيحيون وشخصيات الكتاب المقدس والإنجيل آثارهم. وها هى الرحلة التى فكر فيها تتحقق، فقد بقى فى الشرق لمدة عامين من عام ١٨٣٤ إلى عام ١٨٣٦. وقد نتج من حجه كتابة المؤلف الرائع "رحلة فى الأرض المقدسة" الذى نشر لأول مرة فى عام ١٨٤٠ بمدينة بيتربورج. وقد تم إصدار طبعتين من هذا الكتاب فى عامى (١٨٤٤ و١٨٤٥). وكتب المؤلف فى مقدمة الطبعة الأولى أنه توجه إلى الشرق لكى يبحث عن ملجأ روحى لأنه كان يحتاج للعزاء، عندما بدأ طريقه كى يقبل آثار الرب العظيم. وكما بين "أ.ف.نيكيتنكا" مؤرخ سيرة نوروف، فإن مؤلفات هذا الرحالة حظيت بتقييم عال من أ.إ.سينكوفسكى، وقد قدرها أيضًا رواد الاستشراق فى أوروبا فى ذلك الوقت.

وقد قام أ.س.نوروف برحلة إلى مصر والنوبة فى عامى ١٨٣٨-١٨٣٩ ووصف انطباعاته فى عمله "رحلة فى مصر والنوبة"، فى مجلدين نُشرا لأول مرة فى عام ١٨٤٠ وأعيد طبعهما فى عام ١٨٥٣. أصبح فكره الأساسى مرتبطًا بعلاقة مصر بموضوعات الكتاب المقدس والإنجيل، ولكنه كان مهتما جدا من الجانب العملى بهذا البلد وبآثاره القديمة. وكانت فى ذلك الوقت قد توجهت أنظار رواد العلم الأوروبى إلى تاريخ مصر بعد حملة نابليون إليها، وبالإضافة إلى ذلك نالت شخصية الباشا المصلح محمد على اهتمامًا كبيرًا.

حصل أ.س.نوروف على ما بحث عنه فى مصر، راحة البال، والفهم العميق للنسك المسيحى، وآثار الشهداء المسيحيين الأوائل. كما أنه اكتشف فى نفسه إعجابًا بقوة الخلق فى الحضارة المصرية القديمة، حتى لو كان ذلك من خلال الكتابات المقدسة. وقد عاد بهذه الأفكار إلى وطنه وبدأ نشاطه التنويرى مع شغله لوظائف حكومية كبيرة: رئيس أعمال لجنة تسلُّم الالتماسات للقيصر، وعضو الجمعية الإمبراطورية لحب الإنسان، ووزير المعارف الوطنية.

ويرجع الفضل لجهوده فى إعادة دراسة اللغات القديمة فى الجامعات الروسية، وأنه قد تم تشكيل لجنة أثرية رأسها بنفسه، حيث أصدرت فى حياته ٣٥ مجلدا عن أهم الأعمال التاريخية، ومنها المدونات التأريخية الروسية. وبالإضافة إلى نشاطه التنظيمى وتمويل اللجنة، مارس نوروف النشاط العلمى أيضًا، فقد ترجم مؤلف رئيس الدير دانيل، الذى عاش فى القرن الثانى عشر وقام برحلة إلى الشرق، إلى مصر وفلسطين. كما أنه نشر العهد الجديد عارضا النص الروسى واليونانى معًا.

فى عام ١٨٤١ أصبح نوروف عضو شرف فى قسم اللغة الروسية وعلوم آداب اللغة بأكاديمية العلوم الروسية، وفى عام ١٨٥٨ تم تعيينه بأمر عالٍ عضوًا فى مجلس الدولة.

وها هو هذا الرجل الذى ابيض شعره من الشيب، والذى يحترمه الجميع رجل دولة، وعالمًا نشيطًا، يسافر مرة أخرى بعد أكثر من عشرين سنة إلى الشرق، إلى مصر. كانت هذه الرحلة تمثل النتيجة النهائية لطريق حياته، فلقد سافر للبحث عن السلوى هناك، فى المكان الذى يجب أن تختفى فيه كل الأحزان وكل القلق المتمثل "فى ذكريات حية عن أعظم الأحداث العالمية"، كما كتب أ.ف.نيكيتنكو. فى المرة السابقة ولع نوروف بجمع الآثار القديمة والوثائق العتيقة، فنسخ جزءًا كبيرًا منها بنفسه، بينما كان يعمل فى الأديرة، ثم قام بنشرها عند عودته إلى الوطن. كانت زيارته لأرض مصر المقدسة تمثل بالنسبة له إلهامًا عظيمًا، كان يسعى إليه فى فجر صباح وفى غسق مساء حياته اللامعة.

بذلك نفتح تلك الصفحات المثيرة جدا، التى كتبها أ.س.نوروف بعد زيارته الأولى لمصر. فى الواقع، تمثل هذه الصفحات دراسة تفصيلية لكل جوانب حياة مصر بعد إصلاحات محمد على: اقتصاد البلد والزراعة والمالية والأسطول البحرى بما فيه التجارى وبناء السكك الحديدية والمصانع، والكثير غير ذلك. بهذه الصورة كان عمل أ.س.نوروف يمثل قيمة عظيمة لوزارة الخارجية الروسية، التى كان يعمل بها. ولكن بالنسبة لكتابنا، فإن الأجزاء الأهم هى تلك التى خصصت للفترة السابقة لظهور المسيحية فى مصر، وكذلك الفترة المبكرة للمسيحية بها.

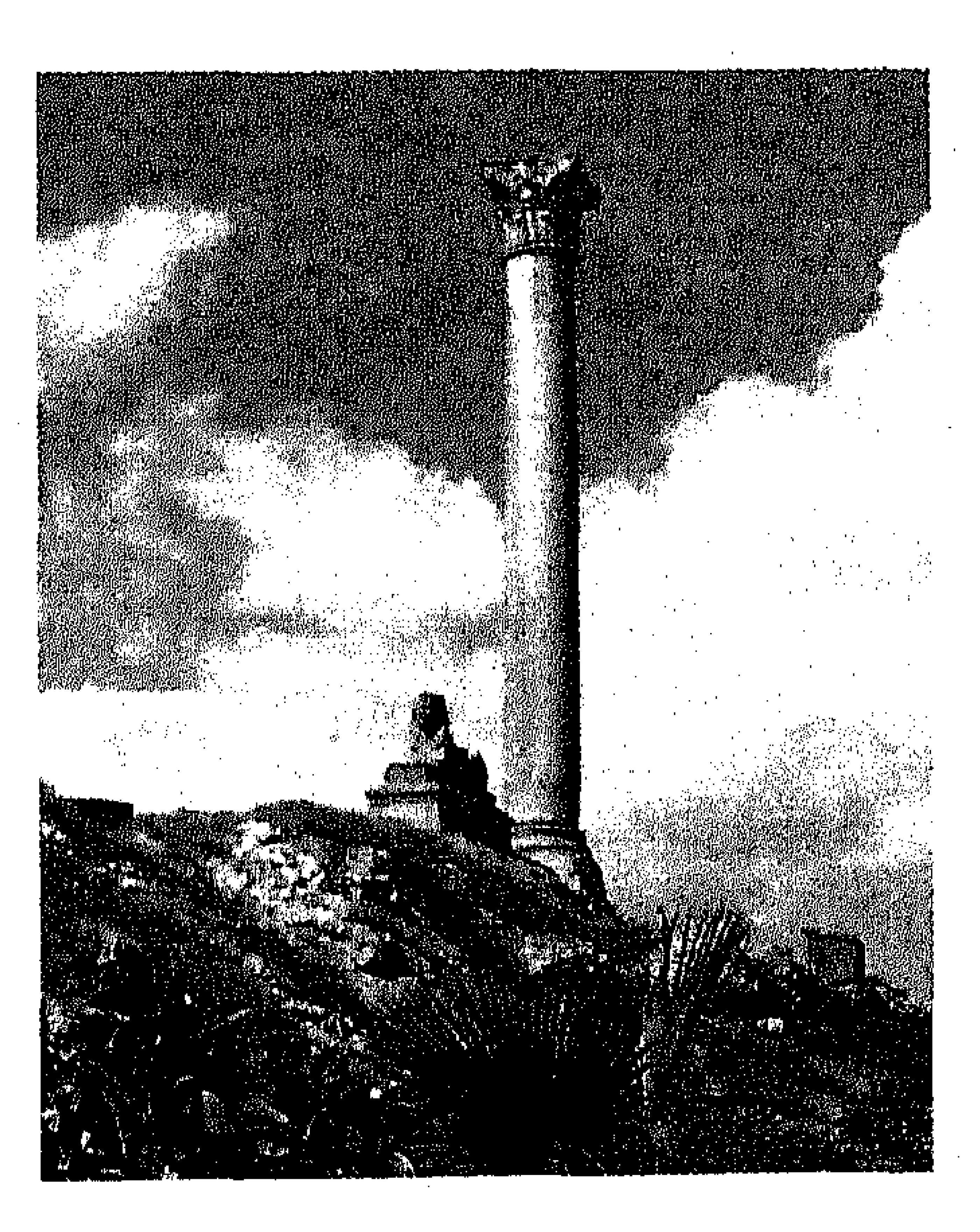
هذه الصفحات فى تاريخ مصر متصلة بعضها ببعض بحيث لا يمكن فصلها: كان أتباع الديانة الجديدة الذين طاردهم الملوك الرومان يجدون ملجأ فى الأماكن الصحراوية فى مصر، وأيضًا فى المقابر الصخرية الخاصة بملوك وعلية القوم من قدماء المصريين، وفى أطلال معابد قدماء الآلهة الوثنيين، حيث أقاموا مناسكهم وكنائسهم الصغيرة. وبعد ذلك، عندما توقفت مطاردة المسيحية، حيث وجدت أنصارها بين سكان مصر الأصليين الأقباط. وطوال رحلته على مركب على النيل، قام أ.س.نوروف بذكر الأديرة القبطية المعروفة له. وقد قدم بذلك خدمة لا تقدر بثمن للباحثين فى كنائس عهد المسيحية المبكر، حيث إنّ جزءًا كبيرًا منها لم يحفظ، وإنه قد تم هجر أو هدم الكثير من تلك الأديرة قبل قيام نوروف بهذه الرحلة.

الآثار القديمة والمقدسات المصرية

كما رأتها عين رحالة القرن التاسع عشر

بدأ أفرام سيرجبيفيتش تعرفه على مصر فى الإسكندرية، مثله مثل الرحالة الآخرين، فبقى فيها مدة صغيرة وتعرف عليها بصورة سطحية. إنه يذكر فى قائمة معالمها مسلتين. كانتا فى ذلك الوقت لا تزالان موجودتين فى الإسكندرية، ولكن كان قد تقرر مصيرهما، فقد تم إرسال إحداهما إلى إنجلترا والثانية إلى فرنسا. كانت هاتان المسلتان هما اللتيان كتب عنهما بلينى واللتان أحضرتا فى عهد البطالسة إلى الإسكندرية من ممفيس. وللأسف كان محمد على عادة يهدى الآثار المصرية فى مقابل المساعدة على عمل الإصلاحات.

ذكر الرحالة الروسى كذلك السيرابيوم وعمود بومبى الذى زاره عند بحيرة ماريوت، والذى – لحسن الحظ – ما زال فى مكانه حتى الآن (شكل٢٥).



(شكل ٢٥) أطلال السيرابيوم وعمود بومبى

وقد روى تفصيليا عن دخول الأفكار المسيحية إلى مصر، وذكر أسماء أول نساكها، كما ذكرأ.س.نوروف أنه كانت توجد كنيسة مسيحية قديمًا فى مكان الدير اليونانى الذى نسخ فيه وثائق قديمة الآن.

هذا الملاك وعلم المسيح
قد باركنى على هذا الطريق
عندما تنظر صلبان وطنى روسيا
من أعلى الكنائس المقدسة

قال الرحالة هذه السطور عفويا، وهو متجه من الإسكندرية فى رحلة بعيدة عن طريق النيل إلى النوبة. حضر إلى القاهرة عندما اجتاح الطاعون مصر الدنيا، قاتلا لآلاف كثيرة. لم يتوقف الرحالة هناك تقريبا حيث إنَّه كان مستعجلاً للسفر، ولكنه زار فقط بعض الآثار فى ضواحى الجيزة وسقارة.

عبر الطريق إلى القاهرة على ذهبية، وتقريبًا لم ينزل إلى الضفة، لذلك فقد وصف الدلتا بسطحية تامة. وقد أوضح أن نوكراتيس (مستعمرة يونانية قديمة أنشئت فى الدلتا فى منتصف القرن السابع ق.م. وكانت مستقرا للجنود والتجار اليونانيين) وجدت فى مكان الرحمانية حاليًا، وأنه قد تبقى من مدينة سايس بضعة مبان من الطوب اللبن، وحدد مكانها فى موقع صان الحجر الآن. كما بين أنه تبقى أيضًا من هليوبوليس القديمة، التى ذكرت فى الكتاب المقدس باسم "أون"، جدران من الطوب لمعبد، مكونة شكل مستطيل كانت تقف داخله فى يوم ما مسلة نقلت إلى روما، وكانت تزين فى زمن أ.س.نوروف ميدان جوان لاتران.

عرض أ.س.نوروف أكثر من مرة ، طوال روايته، فكرة عن ارتباط تاريخ مصر بتاريخ الكتاب المقدس. حتى عندما تقابل مع الأهرام العظيمة فى الجيزة حاول أن يفسر وجودها والهدف من بنائها، اعتمادًا على الفكر المسيحى فى القرن التاسع عشر، حتى إنه قدم فكرة أنه تم بناؤها كى توضع عليها صلبان. فى رأى

الرحالة الروسى لم يقم المصريون أبدًا ببناء الأهرام، ولكن بناها قساوسة من أتباع الكتاب المقدس قادمون من آسيا. (فطبقًا لرواية هيرودوت، ليس من الصدفة أن المصريين القدماء كانوا يكرهون الملوك الذين بنوا الأهرام). وقد أحضر هؤلاء القساوسة إلى مصر مفاهيم نقية عن الله، وهم قد اختفوا بعد خروج اليهود من مصر فى غياهب وثنية عبادة الأصنام.

قدم أ.س.نوروف، بعد عودته من الرحلة، آراءه فى تتابع الأحداث وفى تاريخ مصر القديمة فى الباب ١٤ من المجلد الأول "نظرات إلى تاريخ مصر البدائية". كان تابعًا لنظرية "تاريخ الكتاب المقدس" السائدة فى ذلك الوقت فى علم التاريخ، وكذلك تابعًا مخلصًا للعقيدة المسيحية، لذلك فقد رفض تمامًا كل ما لم يكن يدخل فى إطار الكتابات المقدسة. وقد كتب هذا الإنسان البالغ ٤٣ سنة من العمر: "كتابة البحوث الجديدة عن مصر أصبحت الآن مقبولة من الكتاب المقدس".

"وقد أعلن روسيللينى وريث شامبليون فى تلك الأبحاث، أنه راض عن الدرجة التى شرح بها تتابع الأحداث فى الكتاب المقدس تاريخ مصر، وعن درجة التطابق بين هذا التتابع للأحداث مع الكتابات على الآثار التى سلمت، وأنه ينوى رفض كل أجزاء تاريخ مصر البدائية، التى لا يمكن أن تدخل فى الحدود التى حددها كتاب حياة الكون...كان هناك وقت اعتمد فيه غير المؤمنين على غموض آثار مصر، وعلى تتابع الأحداث طبقًا للصينيين، وعلى طبقة سائل بركان الجبال النافثة للنيران، حتى تحافظ، فى مواجهة الكتابات المقدسة، على قدر الآثار القديمة غير المحدودة للعالم. ولكن العلوم التى تقودها تعاليم العهد القديم والعهد الحديث الإلهية رفعت ستار الكتابة الدنيوية وبينت كل الشكوك الباطلة لجهود عدم الأيمان".

بذلك لمس أ.س.نوروف بطريقة أو بأخرى موضوع التعامل بأسلوب آخر مع مواضيع ترتيب الأحداث، مع فصل علاقة العلم والدين. وقد قام مختلف العلماء والمؤرخين والفلاسفة بمناقشة هذا الموضوع الصعب عدة مرات. وفى هذه المرة

نكتفى فقط برأى الفيلسوف "أليكسى فيدروفيتش لوسيف"(*) "العقيدة فى أساسها معرفة حقيقية، وهذان المجالان ليسا فقط غير متقبلين للفصل، ولكن حتى لا يمكن تمييزهما بعضهما عن بعض"(٧٣) .

وعلى الرغم من ذلك فإن منظر الأهرام كان جذابا لدرجة أن أ.س.نوروف لم يتمكن من كبت مشاعره:

"إن المنظر من أعلى هرم خوفو مهيب. فكل الدلتا، التى كانت مقدسة فى الماضى القديم، والتى تكونت وتنقسم إلى فروع، تقع أمامكم فى الشمال، وعليها نقط من التجمعات السكنية، وغابات النخيل، والحقول الخضراء الزاهية الموزعة بحدود واضحة على أرض النيل الخصبة السوداء. يبدو أن هذا النيل كأنما يضيع فى الخلود، وهو يمتد كشريط لامع فى الشمال وفى الجنوب. فى الشرق تظهر القاهرة كلها بقباب المساجد، متكئة على صخور المقطم، وبعد ذلك سلسلة الجبال العربية تحجب البحر (الأحمر) المذكور فى الكتاب المقدس، الذى كان يمكن أن يظهر لولاها، حيث تبعد أقل من مئة فرستا (الفرستا = ١٠٦٠ مترًا) عن الأهرام. أما الجنوب والغرب فمحكوم عليهما بالموت؛ رمال الصحراء الليبية التى لا نهاية لها تصل إلى خط الأفق، عند غرب الأهرام، وما زالت قمة الهرم الثانى (هرم خفرع)، ما زالت مجللة بالمرمر، وتبدو على بعد عدة خطوات منا. وفى الجنوب توجد مجموعة كاملة من الأهرام الأخرى تمتد فى الاتجاه نحو ممفيس التى اختفت تحت الرمال وتحت غابات النخيل. وقد عاشت هذه المقابر أكثر من عاصمة الفراعنة".

(*) فيلسوف روسى عظيم عاش فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. (المترجم)

(٧٣) А.Ф.Лосев.Диалектика мифа// Из ранных произведений.- М.,1990, С.496-497

لم تسمح النظرة المسيحية لنوروف له بالهدوء حتى فى جوف هرم خوفو، فقد دخل إليه زاحفًا على بطنه أحيانًا عن طريق تيه دهاليز،فى جو خانق، على ضوء مشعل. وهو قد حلم هنا أيضًا بتنصير الأهرام وفكر فى الهدف الذى شيدت من أجله هذه المبانى الشاهقة، ففى رأيه أنه قد تم بناؤها ليس فقط من أجل دفن الملوك، ولكن أيضًا كمعابد لأسرار دينية مقدسة، متعلقة بمياه النيل المقدسة، التى تجرى تحت أساساتها. وتشهد على ذلك الآبار الموجودة فى أساسات هرم خوفو. وفى رأى هذا الرحالة أنه قد يكون من الضرورى البحث تحت أبو الهول عن طريق يؤدى إلى داخل حجرات الأهرام؛ حيث إن شكل أبو الهول يقدم مبررات لهذه الافتراضات. ومن الغريب أن هذه النظرية قد تأكدت، ولكن مع فارق واحد بأن هناك دهليزًا حجريا تحت الأرض يؤدى إلى المعبد الجنائزى عند الحائط الشرقى لهرم خفرع، ولكن ليس بدءًا من أبو الهول الكبير (لم يتم التأكد النهائى من انتسابه لهذا لفرعون)، ولكن من معبد تم العثور عليه فيما بعد به العديد من تماثيل خفرع، كتب عنه فيما بعد رحالة آخرون. وقد اعتبر نوروف أن أول مكتشفى تمثال أبو الهول الكبير هما "كاليو" و"سالت"، اللذان أزالا من عليه رمال عدة قرون. وقد عثر قبل ذلك بين قدميه على مدخل إلى المعبد، اعتبره نوروف معبدا لخفرع، وهو يتحدث عما تم العثور عليه هنا فيكتب عن تمثال أسد موجود عند المدخل وموجه إلى أبو الهول، وكذلك عن بعض التماثيل الأخرى المهشمة، ومذبح موجود قبل مدخل المعبد. وقد استخدم الحجر الجيرى، الذى أحضر من جبال المقطم الموجودة على الضفة الشرقية للنهر إلى الضفة الغربية للنيل ، لتغطية جدران حجارة الأهرام والأبنية الأخرى للمجمع الجنائزى فى الجيزة.

لم يكن قد عثر بعد على مدخل هرم منقرع قبل وقت رحلة أ.س.نوروف، لذلك فهو يصف المخطط الداخلى لحجرات خوفو وخفرع التى لم يعثر فى التوابيت الموجودة بها إلا على عظام بعض الحيوانات الضخمة، مما دعا إلى أسف كل من

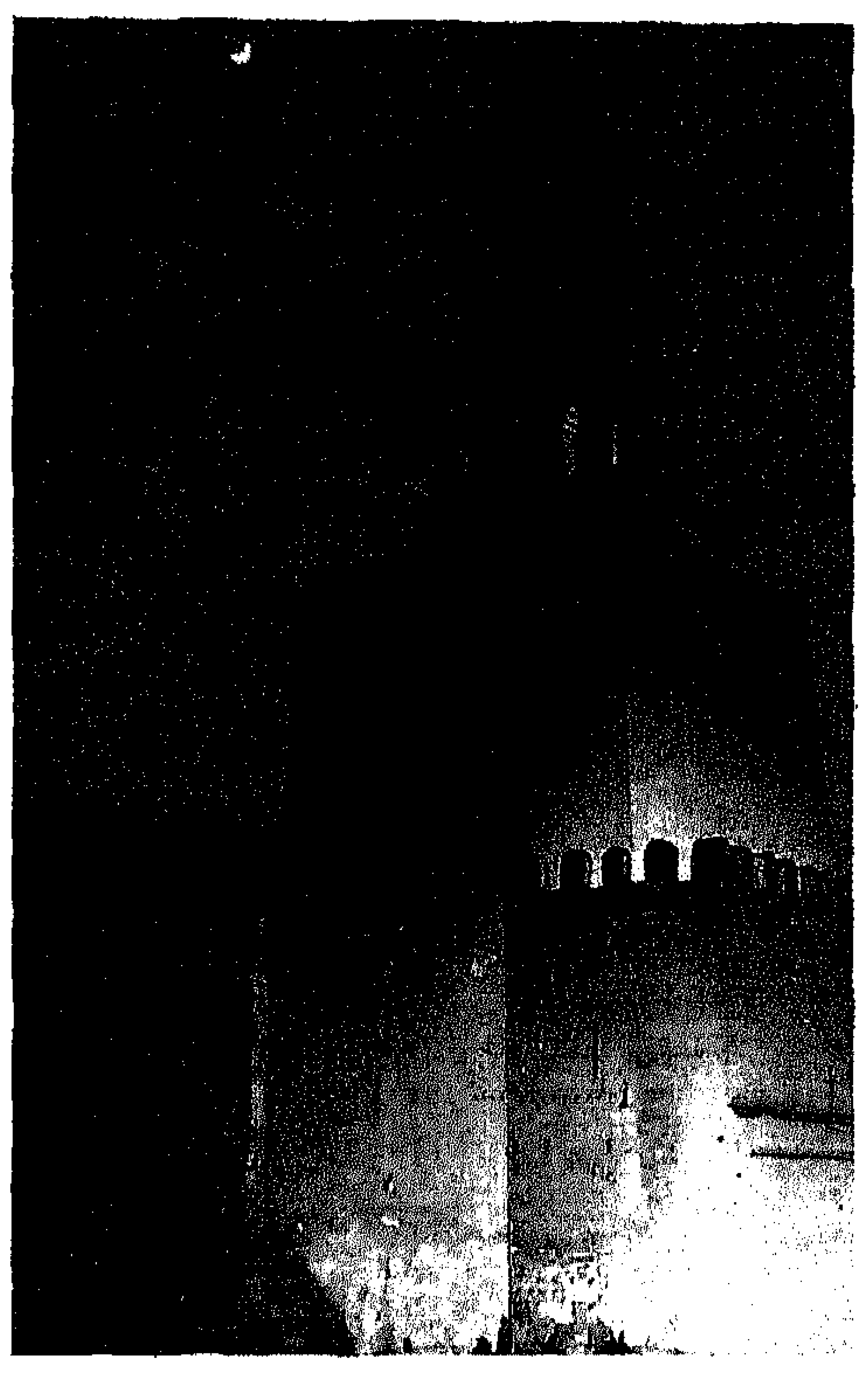
العلماء ومحبى الآثار المصرية القديمة. استمر فى التفكير فى الهدف الذى شـيدت من أجله الأهرام فتوصل إلى نتيجة تفيد بأنه إذا أخذت مقاسات زوايا ميل القنـوات التى تحت الأرض، فإن الأهرام قد بنيت لأهداف خاصة بعلم التنجيم.

ومن بين الآثار القديمة فى القاهرة، لفت مقياس النيل بجزيرة الروضة نظر نوروف. ويصفه الرحالة كأنه عمود سداسى الأضلاع صنع من المرمر الأبـيض، عليه علامات ورموز، موضوع على قاع حوض من الحجر يؤدى إليه درج. فـى الماضى كانت للحوض قبة تحملها أعمدة بقيت منها فقط أطلال. يرجع مقياس النيل إلى القرن الثامن، ولكن كان يوجد فى هذا المكان مقياس أقدم للنيل، كان يـستخدم لعمل القياسات الموسمية لارتفاع منسوب مياه النيل أثناء الفيضان السنوى، وكـان يعتبر أى عام وافر المحصول إذا وصلت المياه إلى علامة ١٦ ذراعًا. كمـا ذكـر أ.س.نوروف أيضًا مقاييس النيل الموجودة فى كل من ممفيس، وفيلـة، ودنـدرة، وطيبة، وإيليتى، وقبطس.

ولا تقل أهمية ما قدمه فى مذكراته عن الأماكن المقدسة القبطية: "القـاهرة القديمة، الفسطاط" التى تقع [قرب] مكان قلعة بابيلون القديمة، والتى كانت لا تـزال باقية منها، فى ذلك الوقت، أجزاء من حوائط حامية وبوابة، وبرجـان مـستديران يرجعان إلى العصر الرومانى (ما زال أحدهما موجودًا حتى الآن). كان يقع هنـا الحى القبطى، الذى ضم الكنائس القبطية واليونانية: كنيسة السيدة العذراء قـصرية الريحان وكنيسة القديس سرجيوس. يمكن الدخول إلـى كنيـسة الـسيدة العـذراء الموجودة تحت الأرض عن طريق قبو مغارة محمول على تسعة أعمدة. ويعتقد أن السيدة مريم اختبأت مع الطفل السيد المسيح فى هذا المكان بالذات. وقد وجد هنـا دير للراهبات منذ القرن الثامن عشر.

بعد ذلك مر طريقه بكل من سقارة ودهشور. حتى ذلك الوقت لم تكن منطقة سقارة قد اكتشفت عمليا بمعرفة الأثريين، وقد تركت انطباعًا عند نـوروف بأنهـا

أرض واسعة للمومياوات، أخرجها بعض العرب الجشعون، "الذين يتاجرون في الموتى القدامى، كأنهم بضاعة". كما أن الماء قد "قام بعمله" بأن كسح الرمال. ونتج من ذلك أن "غشاوات وشرائط مذهبة عليها كتابات هيروغليفية غامضة تصعد متضافرة بواسطة الهواء مع الرمال القائظة". كانت هذه هى الصورة التى ظهرت أمام عينى الرحالة.

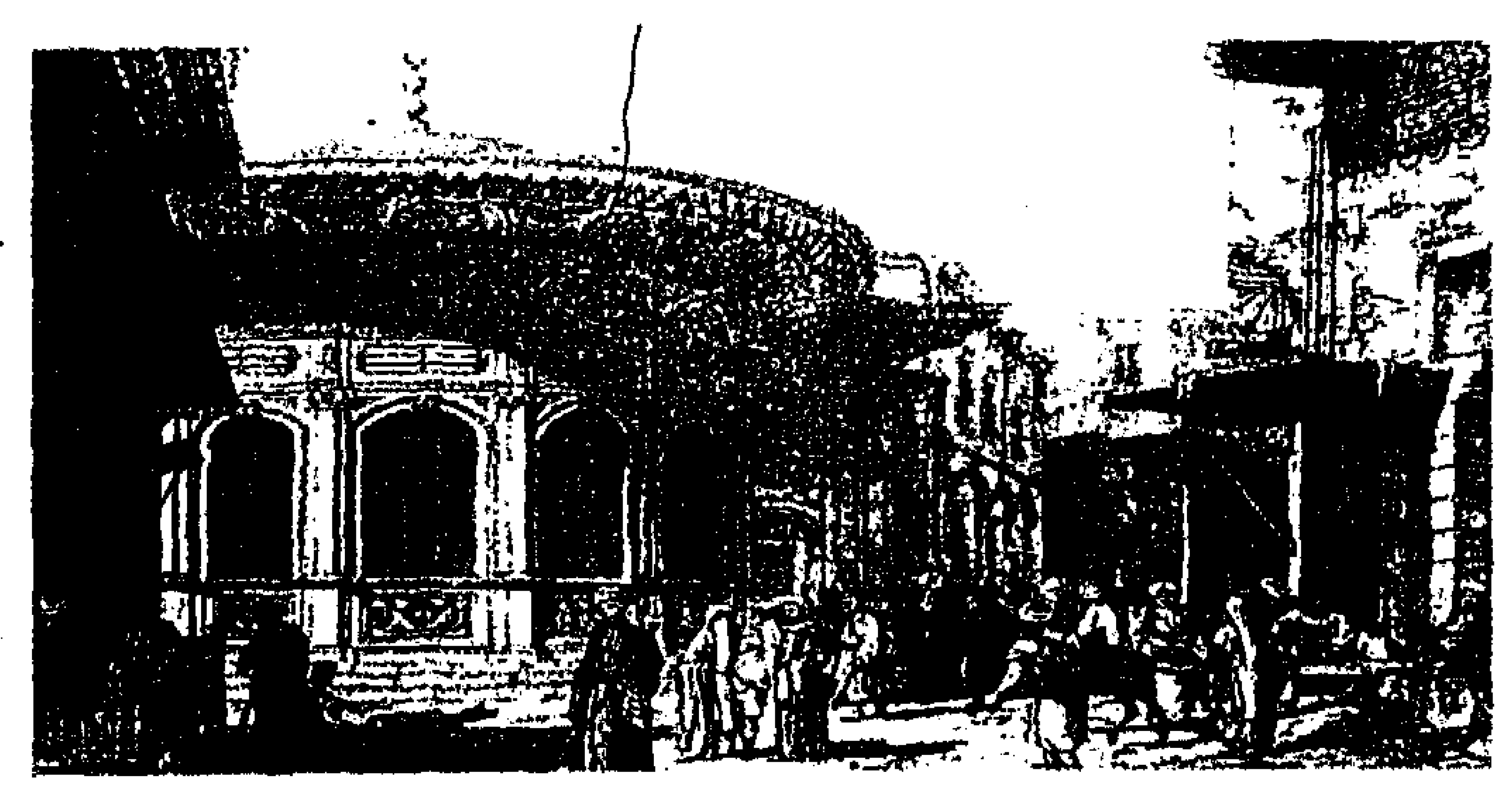


(**شكل ٢٦**) منظر القلعة (صورة حديثة)

عامة فإنَّ العرب النشطاء أدهشوا الروسى بطريقة غير سارة، فهو لم يكد يظهر هناك حتى أسرعوا بإحضار عدة مومياوات، اشترى إحداها. شاهد نوروف فى سقارة مقبرتين صخريتين بهما عدة حجرات وآبار دفن، وكانت جدرانهما مغطاة برسوم بارزة. أكثر ما يدهش هو أن هرم زوسر المدرج نفسه أو الأبنية

المكونة لهذا الأثر الجنائزى لم تترك تقريبًا أى انطباع عند الرحالة، حتى إنه لم تظهر عنده رغبة لدخول الهرم عن طريق البئر التى كانت قد اكتشفت قبل ذلك عند سفح الجدار الشمالى للهرم.

كانت مدينة الموتى بسقارة عبارة عن مساحة واسعة، هضبة مسطحة بها حفر منفرجة فى أماكن مختلفة، وجد تحتها "تيه دهاليز المدافن، حيث كدست أجيال كاملة من الأشخاص البدائيين". كانت المومياوات راقدة فى المدافن فى عدة صفوف، وكان من النادر جدا أن يعثر عليها واقفة أو متكئة على الجدار، كما فى الرسوم البارزة. هنا حصل الرحالة على بعض التماثيل الصغيرة التى تمثل أشخاصًا ممسكين بالسلاح، مصنوعة غالبًا من الخشب ومن الحجارة. وقد أهداه طبيب اسمه "كلوت بك" تمثالاً صغيرًا من البازلت، منقوشًا عليه اسم ميريس (مينا)، عثر عليه فى ممفيس.



(شكل ٢٧) القاهرة

(كارت يرجع إلى بداية القرن العشرين)

لم يبق أى شىء من العاصمة القديمة نفسها تقريبا[٧٤]، حيث وجدت مكانها بضع قرى حديثة. أسعد أ.س.نوروف فقط مشاهدة تمثال رمسيس الثانى، المستلقى

---

(٧٤) المقصود هنا ممفيس.

مقلوبًا على وجهه (شكل ٢٨)، والذى تغمره مياه النيل، وتغطيه طبقة سميكة من الطمى. وهو يرقد فى نفس المكان الذى كان يوجد به فى عصر الدولة القديمة معبد "بتاح" القديم. وقد وصف أيضًا هذا التمثال فيما بعد الكثير من الرحالة الآخرين الذين قاموا بزيارة أطلال ممفيس.



(**شكل ٢٨**) تمثال رمسيس الثانى (صورة ترجع إلى القرن التاسع عشر)

بدأ نوروف عند عودته إلى القاهرة، يستعد لرحلة طويلة إلى مصر العليا والنوبة. ولكنه تمكن قبل ذلك من تدوين بعض الكتابات المتعلقة بالأمور المسيحية فى دفتر مذكراته اليومية. مثلت هذه الكتابات معلومات عن الكنيسة اليونانية فى القاهرة وعن علاقة نيكولاى الأول بها: "وصل كرم قيصرنا أيضا إلى هذه الكنيسة البعيدة، فقد نفذ وصية الإمبراطورة أنا يونانيفنا وأهدى الكنيسة القاهرية مبلغ ٤٠ ألف روبل" للمسيحيين المحليين الأقباط. وبعد ذلك، عند عودته إلى روسيا، تسلَّم نوروف رسالة من بطريرك الإسكندرية أفاد بضرورة ترميم حائط الأيقونات فى الكنيسة. وقد سلَّم هذا الخطاب إلى الكونتيسة "أنا ألكسييفنا أورلوفا شيسمنسكايا"، فقامت بإرسال حائط أيقونات كامل إلى القاهرة، رسمه الفنانون بمدينة سان بطرسبورج.

من القاهرة إلى أعلى، عبر النيل إلى طيبة

ترك أ.س.نوروف القاهرة، وتوجه فى رحلة إلى أعالى النيل على "الدهبية" نفسها التى حضر عليها إلى هنا، مستعيناً بالرياح التى هبت فى نفس الاتجاه. وقد دلت ابتكارات الطبيعة والأيدى البشرية الرحالة على سبب بناء قدماء المصريين للأهرام مأوى الحياة الخالدة. ألا يتمشى شكلها جيدًا مع الصحراء الحجرية غير المحدودة، بينما الحياة على الأرض قصيرة، مثل مساحة الأرض الخصبة المحدودة؟ هكذا أثرت الطبيعة نفسها على عقلية قدماء المصريين وعلى تجسيدها المادى، التماثيل التى أدهشت جنس الإنسان فى كل العصور. جاءت هذه الأفكار إلى بال أ.س.نوروف، عندما مر بالقرب من أهرام دهشور.

بعد ميدوم ظهر الهرم وقد تهدمت درجته العليا الثالثة أمام عينى الرحالة الروسى. كان النيل هناك متسعا جدا، ظهرت خمس قباب وحيدة لدير القديس أنطونيو القبطى على الضفة الشرقية، على خلفية جبل أبو نور، على شريط الأرض الخصبة الضيق. وبالإضافة إلى ذلك يذكر أيضًا أفرام سيرجيفيتش فى الكتاب، وهو ماضٍ فى طريقه، أماكن مسيحية أخرى مقدسة. بعد الإبحار لمدة نصف ساعة إلى أعالى النيل ظهرت قرية صغيرة يبدأ من عندها طريق يؤدى إلى البحر الأحمر، إلى دير القديس أنطونيو ودير القديس بولى. كان يوجد دائمًا فى هذه القرية أدلة بجمالهم للسفر عبر الصحراء. وأعلى قليلاً، أيضا على الضفة الغربية كان يوجد دير قبطى قديم مختفٍ فى غابة نخيل عند قرية جيادة.

فى غضون ذلك، اقتربت الجبال العربية من النيل تمامًا، تاركة شريطًا ضيقًا من الأرض الخصبة. كانت الجبال على الضفة الغربية فى منطقة الفاشى تستخدم محاجر، بينما على الضفة المواجهة، عند شارونة، ظهرت أطلال حصن رومانى ملاصقة للصحراء العربية. وكان سكان المنطقة لا يزالون يعثرون على عملات قديمة بالقرب من هذا الحصن الذى يسميه نوروف جيبون.

قبل الوصول بقليل إلى ذلك المكان الذى ينحرف فيه النيل فجأة فى اتجاه الصحراء العربية، كانت توجد أطلال طابقها نوروف بالمدينة المصرية القديمة أنوبيس- كينوبوليس- التى تواجه بنى مزار. ومن هنا يظهر جبل الطير الذى كان يوجد على قمته دير العذراء، الذى أسسه أفرام السورى الذى زار القديس أنطونيو. وفى طريق العودة من النوبة زار رحالتنا هذا الدير. وقد وصف كيف شق طريقه وسط الجبال، وكيف عثر على محجر حجرى ومغارة مقبرة بها رسوم بارزة على جدرانها الداخلية وتجويف كان به ثلاثة تماثيل. كما كانت توجد أيضا رسوم بارزة على حافة هذه المقبرة منحوتة فى الصخر، تمثل رموزًا هيروغليفية، تمكن من أن يميز منها اسم رمسيس الرابع مكتوبًا فى خرطوشة. فيما يلى وصف نوروف لهذه الآثار قبل اكتشافها وهو يقترب منها على دهبيته: "بدءًا من شارون تبتعد الجبال العربية مرة أخرى عن النيل مكونة قوسًا من الأرض الخصبة. وفى مواجهة مدينة المنيا على الضفة الغربية للنيل، حيث كان يوجد من قبل الحصن الرومانى، الذى أعطاه نوروف اسم إيبيوم، أو حصن إيبيس، فإن الجبال الشرقية تقترب مرة أخرى من النهر بحيث لا تتركه حتى الجنادل، تاركة شريطًا ضيقًا من الأرض المستوية، زرعها الفلاحون المحبون للعمل فى مصر الوسطى والعليا من قديم الزمان".



(شكل٢٩) منظر على النيل فى مصر الوسطى

(من "نبذات عن مصر والنوبة" د.روبرتس، عام ١٨٤٦)

فى منطقة مدينة المنيا وأعلاها على طول النيل، امتدت الصخور التى بها المحاجر والكهوف، والتى وجد الكثير من النساك المسيحيين فى جوفها مأوىً أخيرًا. وقد اشتهرت هذه الأماكن فى كل العالم المسيحى باسم خلوات طيبة، على الرغم من أن طيبة كانت أسفل ذلك المكان بكثير.

ثم رست دهبية نوروف فى منطقة "بنى حسن". فى قديم الزمان كان يوجد فى هذا المكان "نوم" أنتيلوبيس (تقسيمة إدارية قديمة، وكان هذا المكان يعرف بإقليم الوعل) حيث تم دفن الحكام المحليين فى عهد الدولة الوسطى، ومنهم "أمينى" الذى عاش فى فترة حكم الملك سنوسرت الأول. وقد رسم هنا فى مقبرته تاريخ حياته، مما خلد ذكرى أخلاقه الكريمة وعطفه وعنايته فى علاقته بخدمه وحسن إدارته. زار أ.س.نوروف هذه المقبرة(شكل ٣٠)، وأطلق عليها اسم مقبرة ديانا.

صعد رحالتنا الضفة العالية فرأى قبة محمولة على عمودين صغيرين من النوع الدوريكى (من تلك التى تسمى بروتودوريكى). كان الرواق مغطًّى بالنقوش الهيروغليفية. دخل أ.س.نورروف إلى قاعة شبه مستطيلة أبعادها ١٧ × ١٣ خطوة. وقد حفظت فى وسط السقف قبة مدخل بين الأعمدة مقطوعة فى الصخر. وتوارت فى نهاية القاعة فجوة بها تابوت، كما حفظت بقايا تمثال على الحائط المقابل للمدخل، وعلى جانبيه تمثالان لشخصين أو إلهين على هيئة مشابهة للإنسان، وكل جدران القاعة كانت مثل التابوت، مغطاة بالنقوش التى تبين مناظر عائلية والأعمال المختلفة. أما السقف فكان مزخرفًا كرقعة الشطرنج. فى إحدى المقابرالتى شاهدها نورون كانت الأعمدة ملونة باللون الأخضر والأصفر والأحمر. وقد استنتج الرحالة أن حجرات الدفن فى بعض المقابر كانت مخصصة لعدة دفنات.



(شكل ٣٠) كهوف مقابر بنى حسن

وقد زار نوروف كهوف مقابر مصر الوسطى فى طريق عودته أيضًا، ولكن كان تطابقها مع ما كتبه من قبل صعبًا. وقد رأى الرحالة نفسه هذه الصعوبات، لذلك فقد قدم إلى حد ما وصفًا عامًا للمكان كى يساعد الباحثين فى المستقبل. ونظرًا لرغبته فى زيارة مقابر حدثوه عنها، مليئة بمومياوات أشخاص وتماسيح، فقد نزل إلى قرية المنابدة على الضفة الغربية للنيل. كان يطلق على هذه الكهوف اسم "سامون" وكانت موجودة فى سلسلة الجبال العربية، التى تبين أن تسلقها صعب جدا. وقد أشار دليله من سكان المنطقة، العارف جيدًا، إلى فتحة فى الصخر غير مرئية تمامًا، نزل فيها الرحالة الروسى فاستطاع على ضوء مشعل رؤية تيه من الدهاليز الضيقة والمنخفضة، كانت منخفضة لدرجة أنه اضطر للزحف على بطنه. وتبين وجود عدد كبير من المومياوات مرصوصة على غرار الحطب فى هذا التيه الكبير.

ولكن لم تكن الرحلة إلى المغارات الصخرية قد انتهت بعد، فعند قمة الصخور الموحشة لسلسلة الجبال العربية عند جبل الشيخ سيد، وهى أقل انخفاضًا من قمة أبو الفدا، كانت توجد أيضًا كهوف مقابر، صاحب فيها أ.س.نوروف دليلاً من سكان المنطقة للبحث عن الآثار القديمة. شاهد أيضًا مقابر أخرى، ذكرت رسومها وبقايا زخرفتها السالفة الرحالة ببنى حسن وإيليتيا. كانت كل منها تتكون من عدة غرف، وحوائطها مغطاة بنقوش هيروغليفية وزخارف، كما كان بها أيضا تماثيل منحوتة. طبقًا لأقاويل العرب، كانت توجد هنا فى الماضى مقابر قديمة استخدمت كدير مسيحى به صوامع للرهبان، استخدمت المقبرة القديمة فيه لهذا الغرض. وبالإضافة إلى إدراك نوروف لقيمة اكتشافه هذا للعلم، فإنه أكد بدقة مكان وجود هذه المقابر:

"لكى يتم تحديد هذا المكان الغريب بشكل أوضح للباحثين عن الآثار، أضيف أن الجبل القريب يسمى جبل العمارنة، وبميل من هنا تظهر جزيرة البرشة، وبينه

وبين الشاطئ الكثير من المضاحل؛ لذلك فلا يمكن لأى قارب أن يرسو فيه، وتقع مدينة مِلَّوِى (حاليا مَلَّوى) على بعد ساعة من العوم من هنا.

قدم أ.س.نوروف وصفًا لمدينتى "الأنطينون" و"هرميبوليس" لكى يرسم آثار مصر الوسطى القديمة والمسيحية بشكل نهائى، كانت الأولى موجودة على الضفة الشرقية للنيل جنوب بنى حسن والبرشة. ترجع هذه المدينة إلى العصر الرومانى، وتحيطها المحاجر والمقابر التى ترجع إلى العصور القديمة، وقد ظهرت إلى الوجود مكان مركز سكنى أقدم سماه نوروف "بسى". وبعد ذلك منحت أطلال الأنطينون ملجأً للنساك المسيحيين، واستخدم البناة العرب مكوناتها المعمارية، فاحتلت أجزاء بوابة أنطينيون مكانًا فى عقد بوابة "باب زويلة" بجانب مسجد المعايدة فى القرن الخامس عشر فى القاهرة. كان مصير إنشاءات هيرموبوليس القديمة (الأشمونين الآن) التى كانت تواجه مدينة أنطينون مماثلا، ولم يبق أى شىء من هاتين المدينتين حتى بداية رحلة نوروف، وهى معروفة فقط من رسوم اللجنة المصرية الفرنسية، وفى رسوم الرسام الشهير "فيفيان دينون".

طبقًا لرواية نوروف، كانت توجد هنا فى سنوات المسيحية الأولى فى هذا المكان أسقفية مصرية، كما كان يوجد هنا فى القرن الرابع اثنا عشر ديرًا نسائيًّا، أعلى من ذلك بقليل على النهر، رأى الرحالة بعينيه ديرًا مسيحيًّا مزخرفًا بالرسوم أسسه "ستيفان".

وقد تهدم الكثير من الأديرة والكنائس المسيحية، ومنها دير "القديس يوحنا" فى ديروط الشريف. كما كتب أ.س.نوروف أن الحدود القديمة هنا كانت محددة بحصن فيلق طيبة، كما أنه فى عصر الرومان كان يوجد هناك معبد فينوس أورانيا. وهنا أيضًا عند بداية قناة يوسف، التى تظهر فى خرائط مصر الحديثة، كانت توجد نقطتان للجمارك. ويشير نوروف إلى وجود "دير القصير" على قمة تل العمارنة على الضفة اليمنى للنيل، تقدم مسافة أخرى فرأى مدينة "القوصية"، التى

ظهرت فى عهد الفراعنة والتى احتلت مكانها بعد قرون كثيرة، استحكامات رومانية. ذكر نوروف ديرين آخرين هما دير "أبولونيا" و"أبيسينا" (الحبشة) بالرجوع إلى خريطة دانفيل، ووصل إلى استنتاج عميق فكريًّا "أن الصخور الموحشة المصرية أصبحت ملجأً لكل من وقف أمام الله يتعبد".

وقد أنهى مذكراته بتلك الكلمات ليتعرف على أسيوط (ليكوبولس القديمة). كان مصير كهوف مقابر علية القوم بمصرالقديمة فى الضواحى غير سار، فقد هدم الكثير منها عند بناء المصانع التى شيد الجزء الأكبر منها فى عهد حكم محمد على. ولكن بقيت ثلاث كنائس قبطية سالمة، أراها أتباع الأبرشية المحليين للرحالة الروسى، وخمسة كهوف، وضعت فيها صلبان قبطية واستخدمت ديرًا نسائيًّا، وطبقًا لتأكيد الأقباط فقد اختبأت السيدة العذراء فيها ومعها السيد المسيح الطفل أثناء هربهما إلى مصر. وقد عرفنا بعد ذلك من رحالة آخرين عن العدد غير العادى من الكهوف المصرية فى الأنحاء المختلفة بمصر، التى منحت ملجأ للمسيح الطفل وللعائلة المقدسة. وهنا فى مغارات أسيوط كانت توجد أسقفية، أصبحت هى الأهم فى الوقت الحاضر فى مصر الوسطى.

كانت توجد عند الجنوب، حيث تنفرج الجبال العربية، مدينة أنتينوبوليس القديمة (الشيخ عبادة حاليًا)، ولكن عند زيارة نوروف لمصر لم يكن قد تبقى منها إلا مدينة الموتى، أما المدينة نفسها فقد كانت تجرفها مياه النيل تدريجيًّا، وبقيت منها أطلال.أتم وصف هذه المنطقة بمعلومة عن أنه كان يتم استخراج الزمرد فى منطقة "طهطا" على الضفة الغربية للنيل.

أثناء الحملة الفرنسية على مصر كان يوجد فى الجنوب ديران: "الديرالأحمر" و"الديرالأبيض". وكان أحد الجبال المجاورة يحمل اسم "أفون"، وطبقًا لما ذكره أ.س.نوروف، كانت توجد فى كهوفها رفات الشهداء المسيحيين، الذين عانوا من المطاردة فى عهد "دقلديانوس". كان المسيحيون المعاصرون

لنوروف من الأقباط واليونانيين والكاثوليك يعيشون فى الجنوب، فى أخميم، حيث عثر فيها فيما بعد على مدينة موتى ترجع إلى العصر الرومانى والقبطى. كانت توجد فى هذا المكان بانوبوليس القديمة، كما كانت توجد أيضًا قرية فى مكان البتوليمايدة الرومانية القديمة، فى ذلك الوقت، وكانت توجد آثار للحياة المدنية السابقة، التى كان يمكن الاستدلال عليها من عناصر معمارية.

ثم مرة أخرى أماكن مسيحية مقدسة. فقد شاهد الرحالة فى "البلينا"، على الضفة الغربية للنيل، دير "السيدة العذراء" القبطى وبه كنيسة لها ست قباب وحائط أيقونات من الخشب المنحوت (بعض الأيقونات كانت قد رسمت فى أورشليم). كان هذا الدير قديمًا جدا، حيث إنه أسس فى عام ٢٨٥، ولكن للأسف هدمه المماليك.

كان يوجد طريق يمر من البلينا إلى معبد "أبيدوس" القديم، وصل إليه نوروف فى ساعتين ممتطيا ظهر حمار. وقد لفتت نظره مقبرة مرسوم عليها سلسلة نسب ملوك الأسر ٢٥ – ٢٧ (مدونات التأريخ الأبيدوسية الشهيرة). وقد التقى فى طريق عودته من النوبة، فى منفلوط، القنصل العام لفرنسا السيد "ميمو"، وهو إنسان لطيف وودود واجتماعى للغاية، كما أنه محب للآثار القديمة بشغف، كما وصفه أ.س.نوروف. وقد سأل أفرام سرجيفيتش بحماس عن رحلته، وعن إمكانية الحصول على آثار. كما أنه اهتم بصفة خاصة بهل رأى نوروف مدونات التأريخ الأبيدوسية أو لا؟ وبرأيه فى إمكانية نزع هذه النقوش من على جدران المقبرة؟ وقد أقنع نوروف بنفسه محدثه بألا يفعل ذلك أبدًا، وإلا اعتبر هذا التصرف حقيرًا وغير لائق، كما أنه ذكر القنصل بمصير ج.ف.شامبليون، الذى تعامل بهمجية مع زخارف وادى الملوك، حيث حطم أجزاء كاملة منها ودفع ثمن ذلك بأن مات فى وقت ازدهار قوته الإبداعية فى ريعان شبابه، وقد أصبح بذلك أول ضحايا لعنة الفراعنة الشهيرة، التى يتحدث عنها الكثيرون بجدية حتى اليوم.

ولكن كيف يمكن فى هذه الحالة تقييم نشاط نوروف نفسه فى جمع الآثـار، حيث إنه نقل الكثير من الآثار القديمة من مصر إلـى روسـيا؟ بالمناسـبة، لقـد برر عمله بأنه قد أنقذ الآثار القديمة من أيدى التجار الجشعين أو من إمكان القضاء عليها. يجب القول بأن أ.د.بيرلوف- عالم المصريات الروسى من الدرجة الأولى- المعاصر لنوروف الذى توفى للأسف منذ وقـت قريـب، قـد اعتبـر أن أفـرام سيرجيفيتش نوروف نفسه مذنب بأفعال مماثلة لأفعال شامبليون، لأن أ.س.نوروف بالذات قد شارك فى الحقيقة، فى سرقة مدينة الموتى الخاصـة بالأسـرة الحاديـة عشرة بطيبة الغربية، فى المقابر الملكية متعددة الأعمدة، كما أنه قد نقل من مقـابر "أنتيف" كتلتين من جدار مقبرة (منحت بعد ذلك لمتحف روميانيف)، مما تسبب فى عدم تحديد صاحب هذه المقبرة إلى عهد قريب.

استكمالاً لقصة قطعة مدونات التأريخ الأبيدوسية، يجب أن نتـذكر نهايتهـا المأساوية، التى رواها نوروف فى كتابه. فكما هو معروف، فقد قطع هذا الأثر وتم نقله إلى لندن. ولكن لم تكن باريس أيضًا بعيدة عن هذا الاكتشاف العظيم، فقد تـم نقل زخارف من معبد حتحور الشهير فى دندرة، مرسوم عليهـا رمـوز الأبـراج الفلكية، التى كانت تزين سقف إحدى الحجرات. وقد ذكر نوروف أنه كانت توجـد زخارف مماثلة على أسقف معابد "إسنا" و"هرمونتيس" (أرمنت حاليا).

زار نوروف "قنا" بعد "دندرة"، وتوجه منها على الطريق إلى القصير، حيث كان يوجـد الميناء القديم "ميوس جورموس" (الذى اعتبر أحيانًا كميناء بيرينيكا). أما الميناء الآخر بيرينيكـا الذى كان هو أيضًا موجودًا فى العصر اليونانى الرومانى، فكان يوجد فـى الجنـوب، وكـان يتصل بالنيل بطريق على الأرض فى منطقة "كوبتوس" (قفط حاليًا). كانت هذه المدينة بالـذات تعتبر مركزًا تجاريًا عربيًا وهنديًا رئيسيًا فى مصر، على الرغم من أن كلا الميناءين شارك فى التجارة البحرية مع جنوب الجزيرة العربية والهند والصين. وتفتح الحفريات الأثرية فى هـذين

الميناءين الكثير من الصفحات الجديدة فى بنية التجارة القديمة، وفى تخطيط المـدن الساحلية.

من الطبيعى جدا، عند التحدث عن الآثار المصرية القديمة أن يصف أ.س.نوروف أو يكتفى بذكر تلك الآثار التى حفظت على السطح على هيئة أطلال، لذلك فإن بعضها التى أصبحت الآن مدروسة، وهى آثار من عصور التاريخ القديمة تمامًا، لم يشر إليها على الإطلاق، حيث إن حفرياتها بدأت فى نهاية القرن العشرين تماما.

هكذا مر أ.س.نوروف مبحرًا بالقرب من "نجادة" و"بلاص"، التى عمل بها الأثريون الإنجليز بعد زيارته بحوالى ٤٠ سنة وحققوا اكتشافات ضخمة، حيث وجدوا هناك بقايا مدن "من عصر ما قبل الأسر"، وكذلك جبانة ضخمة، تنتمى إليها. ولكن فى ذلك الوقت تمكن الرحالة الروسى فقط من أن يكتب أن هذا الجزء صعب جدا للمسافرين فى النيل. فعلاً يكفى النظر إلى خريطة مصر، لمشاهدة "الانحراف الحاد (ثنية قنا) فى الاتجاه من الشرق إلى الغرب"، فى الوقت الذى يجرى فيه النيل عامة من الجنوب إلى الشمال. وعند وصفه لنجادة، وجه أ.س.اهتمامه للأديرة المسيحية الواقعة بين نجادة وطيبة. وقد تم بناء أقدم الأديرة، دير "القديس باليمون" ودير "القديس باخوميا"، فى القرن الرابع. وقد حصل على معلومات عنها من أحد مبعوثى روما الدينيين، فعرف أنه كانت توجد هنا ثلاثة أديرة قبطية فى القرن الثالث عشر.

قبل بداية القرن الأخير، كان ما تبقى من الآثار المسيحية فى مصر قليلاً، ولكن ما هو مدهش هو أنَّ نوروف توجه فى رحلته للبحث عن الراحة الروحية بسببها على وجه الخصوص، وحصل عليها بدرجة كبيرة بالتعامل مع آثار مصر القديمة، التى لم تتركه مشاهدًا باردًا لها، ويمكن لمس ذلك على وجه الخصوص بقراءة الصفحات التى خصصها لطيبة:

"أنا أمام طيبة!... أحدهم قال إن هدم طيبة تم قبل تأسيس أقدم المدن في العالم. كم هو جذاب هذا "المهد للشعوب البدائية، الذى بدأ فقط من عهد هدمها على يد جيوش قمبيز".

كان نوروف متعجلاً للقاء طيبة، لدرجة أنه أهمل مقابلاته فى قنا، فقد كانت قوة جذب طيبة الخالدة كبيرة لهذه الدرجة! المشاركة فى التاريخ، وفى مصادره نفسها هى تلك الأحاسيس والانفعالات، التى تسيطر على كل الرحالة بلا استثناء، وكذلك على العلماء ورجال الدولة الذين يعتقد أنهم رابطو الجأش. لم يستثن أيضًا من ذلك "أفرام سيرجيفيتش"، الذى أحس بالدهشة والإعجاب، بالدهشة من أن الشعب القديم قد صنع حكمة عظيمة وإعجابا به واحتراما له، لأنه خلق حضارة عظيمة، حولت أفكارها العميقة المعابد المغطاة تمامًا بنقوش الهيروغليفية إلى كتب تجب دراستها على مدى الحياة. على الأرجح، كانت أقوى الأحاسيس التى انتابت أ.س.نوروف، كانت أثناء مشاهدته للرسوم البارزة والزخارف، التى تصور تفاصيل الحياة الروحية والقوة الحربية للملوك المصريين. أليس كل ذلك مرتبطا بتاريخ الكتاب المقدس الذى لا يشك أبدًا فى حقيقته؟ وبصفة خاصة أدت العلاقة بين صور الكتاب المقدس المصرية المكرسة فى البحر وفى البر، إلى ارتجاف الرحالة، كما لو كان قد رأى بأم عينيه التاريخ المصرى وأفعال فراعنتها، التى ذكرها العهد القديم؛ فقد أحيا بفكره هذه الصور التاريخية، وتأكد من صحتها.

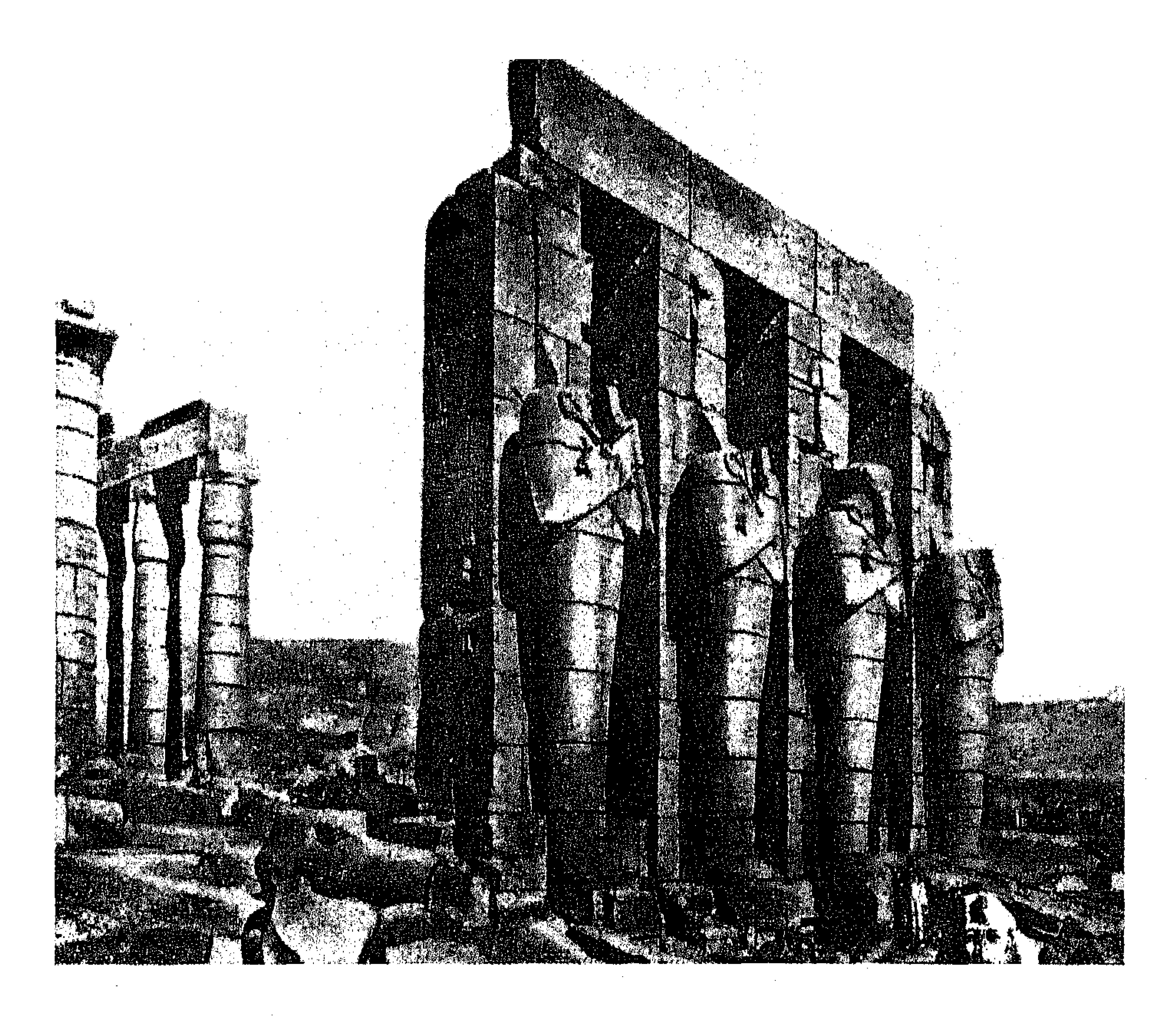
ليلة فى وادى الملوك

جاءت الليلة الشاعرية التى قضاها نوروف فى مدينة "أبو" إليه بأفكار وكلمات عن الشعب المدهش الذى أنشأ كل هذا:" ما رأيته فاق كل تصوراتى". ثم

يضيف بعد تفكير:"تختبئ فى رموز اللوح الأسطورية لقدماء المصريين حقائق قديمة جدا، نعتبرها الآن الأحدث". لم يكن يشك فى ضرورة فهم أهمية دراسة هذه الحضارة، وآثارها القديمة المتعددة كمصادر مهمة لدراسة حياة قدماء المصريين، فهى تنتظر من يقوم بدراستها، وسوف تكتب مجلدات كاملة عنها، فهنا يوجد ما يدعو للتفكير فيه. وعلى الأرجح، لكى يفهم بعمق أكبر هذه الحضارة من الداخل، واكتشاف الحقائق الأكثر وضوحًا، التى عاشها قدماء المصريين، أقدم أ.س.نوروف على خطة متهورة تمامًا، قد يكون بها تجاوز بالنسبة لشخص تعدى مرحلة الشباب، شخص شاهد الحرب.

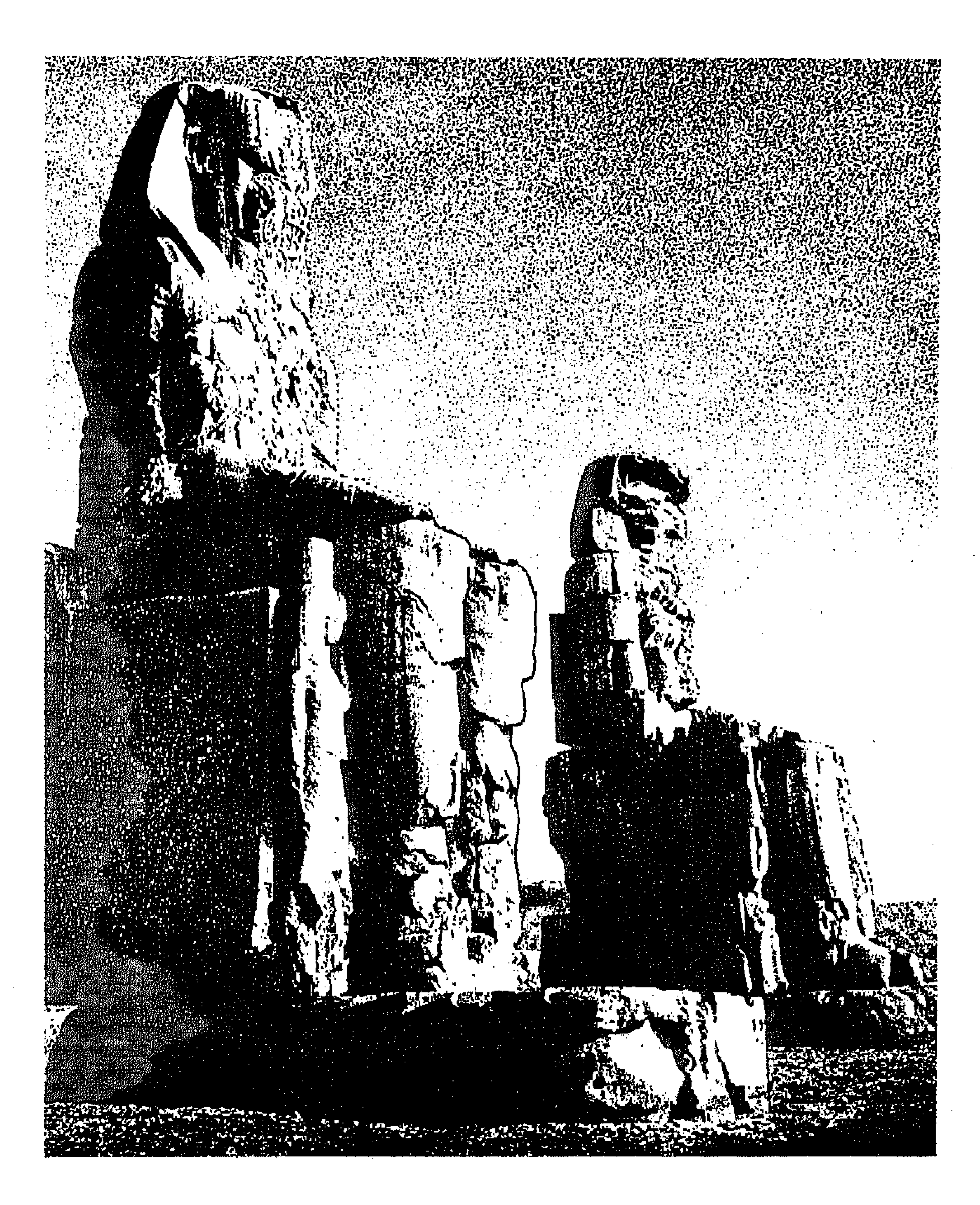
تغلب الرحالة المتحمس المشتاق للمغامرات على الإنسان العاقل داخله، الذى يبحث عن آثار الله الذى فوق كل شىء. لقد نوى أن يقضى ليلة فى إحدى المقابر فى "بيبان الملوك"، المشهورة أكثر باسم "وادى الملوك". منح الملك سيتى الأول نفسه ملجأً لهذا الغريب، حيث إنه بنى واحدة من أعظم المقابر الصخرية فى هذا المكان البعيد الرائع تحت ظل الجبل، الذى أطلق عليه قدماء المصريين اسم الإلهة "ميريتسجر"، أى "المحبة للسكون"، والذى اختاره فراعنة الدولة الحديثة من أجل دفنهم.

يبدو أن أ.س.نوروف قرر أن يمضى كل هذا اليوم فى جلسة وذية مع الملوك المصريين. تناول إفطاره فى "الرامسيوم" (شكل ٣١)، فى حضور رمسيس العظيم نفسه، الذى تجمد لدهر ويداه معقودتان على صدره، مع رموز السلطة العليا، وهو يحيط ضيفه بتماثيله الضخمة دليلاً على التبجيل أمام عابر السبيل القادم من روسيا المليئة بالثلوج.



(شكل ٣١) الرامسيوم (صورة ترجع إلى بداية القرن العشرين)

أدار حديثًا بفكره مع صاحب المعبد عن انتصاراته العظيمة على أعداء مصر، وكان يستطيع أ.س.نوروف أن يرى على بعد تماثيل أثرية أخرى جبارة لأمنحتب الثالث أو كما سماها قدماء اليونانيين:"تماثيل ممنون الضخمة" (شكل ٣٢) تحكى أسطورة، وقد يكون ما تحكيه قد حدث فعلاً، أن أحد التماثيل كان يبدأ فى إصدار أصوات غريبة قبل طلوع الشمس.



(شكل ٣٢) تماثيل ممنون الضخمة

أطلال المعبد عبارة عن عدد كبير لا يمكن إحصاؤه من هشيم التماثيل والأعمدة، ومن العناصر المعمارية الأخرى، وهى أيضًا قد أصبحت معروضات فى المتاحف الأوروبية. تذكر أ.س.نوروف "رأس ممنون الشاب " التى رآها يومًا فى المتحف البريطانى، وهى جزء من تمثال ضخم لرمسيس الثانى استولى عليه ج.بيلتسونى. وقد سحب هذا الرأس إلى مرفأ طيبة ١٣٠ من العرب. أما أ.س. نوروف نفسه فقد نقل من طيبة الغربية إلى مدينة سان بطرسبورج زوجًا من

تماثيل أبو الهول لها وجه أمنحتب الثالث، وهى موجودة حاليا على شاطئ نهر النيفا (شكل ٥).

قضى نوروف كل هذا اليوم متأثرًا بانطباعاته عن صور مصر القديمة العظيمة، وآلهتها وحكامها، التى انتشر تمجيدها خارج حدود مصر إلى البعيد. كان كما لو أنه قد استوعب الحضارة المصرية القديمة من الداخل؛ لذلك قرر أن يبقى طوال الليل فى مقبرة، بحيث يؤرق النوم الخالد للحاكم. وقد لا يكون قصد أ.س.نوروف أن يجرب الخوف، ولكنه مثلما فعل دانتى أراد أن يدخل إلى عالم الموتى، الذى آمن بوجوده القوم فى الماضى السحيق، وأراد أن يرى بعينيه محاكمة أرواح الموتى، وأن يكون موجودًا فى عالم به عدل وحقيقة وجمال إلهى!

ها هو الليل يقترب. دخل أ.س.نوروف على ضوء القمر والمشاعل مقبرة سيتى الأول، التى اكتشفها بيلتسونى فى عام ١٨١٧م. وفيما يلى وصف نوروف هذا المشهد من رحلته فى مصر:

"هدأ كل شىء، وساد صمت المقبرة، وكان مشعل واحد فقط يضىء قاعتى الغامضة. لم يسمح لى أوزيريس ورفاقه، الذين كانوا ينظرون إلىَّ لفترة طويلة بالنوم. أعطيتهم ظهرى فوجدت نفسى وجهًا لوجه مع مومياوات ملكية، وأحلام غريبة كانت تطير فوق رأسى طوال الليل".

يجب منح التقدير المناسب لجرأة رحالتنا ولفكره المحب للاستطلاع، حيث إن الخوف صفة ملازمة للإنسان. يبدو أنها كانت أول مرة ينام فيها رحالة روسى- وليس روسيًّا فقط- فى مقبرة مصرية. وقد تكون هذه إحدى سمات شخصية الإنسان الروسى، لأن هناك قصة أخرى مشهورة عن محاولة أجنبى قضاء الليل فى مقبرة فرعون، ولكن هذا الأجنبى جاء إلى هنا لغرض مختلف تمامًا.

كان "ريتشارد بيكوك" أول أوروبى قام بزيارة لوادى الملوك فى عام ١٧٤٣. شاهد ١٤ مقبرة ملكية، ولكن كان ذلك فى أثناء النهار عندما كانت الشمس ساطعة تمامًا. وها هو أحد بلدياته "جاك بروس" حاول قضاء الليل فى حجرة دفن رمسيس الثالث قبل ٧٠ سنة من نوروف. وفى ذلك الوقت، كما فيما بعد أيضًا، كانت تحكم منطقة وادى الملوك عصابة من المجرمين أو أكثر من واحدة، حيث كانت تعمل فى البحث عن الآثار القديمة. كان هؤلاء القوم يمثلون – بوجه خاص– خطرًا حقيقيًا للرحالة، وكانت المشاكل متوقعة منهم، أكثر من غضب وانتقام الملوك، الذين كان يؤرق نومهم ضيف حضر بلا دعوة. رفض الأدلة المحليون البقاء مع بروس، وتركوا هذا الأجنبى المجنون وحده مع اللعنات، وحده تمامًا. بالإضافة إلى ذلك لم يكن عنده أى من المشاعل اللازمة له، ولم يتمكن من نسخ الرسوم البارزة التى على الجدران بدون مشاعل، على الرغم من أنه قد قضى طوال الليل مختبأ من العصابات المحلية، لهذا الغرض بالذات. وقد تمكن بصعوبة من الخروج فى الظلام الدامس من المقبرة ومن إلقاء نفسه فى النيل. وبمجرد صعوده إلى قارب انهال عليه وابل من الطلقات النارية وسيل من الحجارة التى مثلت "الشركة المنافسة"، ولكنه نجا منها بأعجوبة.

على الأرجح لم ينم نوروف جيدًا فقط فى المقبرة التى منحها له الملك مأوى، ولكنه حصل من ذلك على مباركة للقيام بإنجازات أخرى. فقد استمر فى دراسة وادى الملوك وبيده "جغرافية" سترابون (مؤرخ وجغرافى يونانى قديم عاش تقريبًا فى السنوات ٦٤ – ٢٤ قبل الميلاد، وألف "الجغرافية" فى ١٧ مجلدًا)، وقد كتب عن بناء وتجهيز عدد من المقابر هنا يصل عددها إلى أربعين، وكان قد تم اكتشاف ١٧ فقط منها قبل رحلة نوروف.

"فكر أ.س. نوروف فى أن جوف هذه الصخور قد يكون مازال محتفظًا داخله بمقابر تحت الأرض Hypogenion لم تكتشف بعد، والتى يمكن أن تكون

قد سلمت من بربرية الفرس وسكان هذا المكان، حيث إن شكلها الخارجى قد أصبح مماثلاً تمامًا لجدران الصخور".

لقد توقع الرحالة الروسى اكتشاف مقبرة "توت عنخ أمون"، التى تم اكتشاف مدخلها تقريبا بعد ١٠٠ عام من ذلك.

فى ذلك الوقت رغب أ.س.نوروف فى رؤية الثعابين الإفريقية، التى قابلها فى أثناء محاولته الدخول إلى دهليز مقبرة زحفًا. يمكن أن نقول إن فقدان هذا الباحث لرجله هو وحده الذى أرشده إلى الصواب لكى لا يلقى حتفه فى هذه المرة أيضًا. وعلى الرغم من ذلك لم يتنازل عن رغبته. ناول مسدسه للأدلاء العرب الذين كانوا مسلحين بخناجر، وأعطاهم مكانه، فأصبح الآن يسير وراءهم. استمرت المعركة لمدة ١٥ دقيقة، أحضروا له بعدها ثعبانا أصفر ملطخًا بالدم طوله ٣ ساجينات(*). كان هذا ثعبانًا صغيرًا، حيث إن أمه تمكنت من الاختباء، لأنها اضطرت للهرب تحت ضغط هذا الأجنبى الغريب للغاية.

بعد كل مغامراته فى وادى الملوك، عاد أ.س.نوروف إلى طيبة الشرقية للراحة. ولكن عند اقترابه من الشاطئ، شاهد دهبيات مرفوعًا عليها أعلام كل من الولايات المتحدة الأمريكية والنمسا وروسيا على رصيف الميناء. هكذا قابل "بيتر ميديم" و"أ.أ. ديوجاميل"، وأمضى فى صحبتهم أربعة أيام، متجولاً فى أطلال طيبة الغربية. زاروا فى "الحساسيف" معبد تحتمس الثالث الذى به ممر تماثيل أبو الهول، التى كانت مهشمة لدرجة كبيرة.، كما شاهدوا معبد "حتحور" وتيهًا به الكثير من المقابر فى دير المدينة . وقد زاروا أيضًا معبد "ميربتاحن" الذى "تحيطه بيوت العرب والأشجار".

(*) الساجينلت وحدات قياس روسية قديمة. (المترجم)

هنا حصل أ.س.نوروف، من عند تاجر آثار، على عدة جعارين ولفة بردية "كتاب الموتى" دفع ثمنها مرتين فعليا. كان السبب هو أن هؤلاء الماكرين قد قاموا بتقطيع البرديات إلى عدة قطع، فى محاولة للحصول على ربح أكبر. وقد حدث ذلك مع البردية التى اشتراها نوروف، فإن الجزأين كانا ينتميان إلى بردية واحدة. وبعد عودة نوروف إلى مدينة بيتربورج أعطى البردية التى اشتراها إلى المكتبة الإمبراطورية العامة. وقبل ذلك كان قد اشترى تمثالاً كبيرًا للإلهة "سخمت"، عثر عليه فى المنطقة التى بين الأقصر والكرنك، ونقله إلى روسيا، وكتب مفسرًا ذلك "بسبب الحرص على حماية بقايا طيبة الثمينة من تدنيس البرابرة لها، وليس إغضابًا لإيزيس وأوزوريس". وهذه العبارة تعطى انطباعًا كأنها صلاة للآلهة القديمة.

وجد نوروف فى مدينة "أبو" هيكلا مسيحيًا، ودهاليز كانت تمثل صوامع للنساك المقدسين. هنا كان يوجد الساكن "القديس باخوميا" الذى رباه الكهنة المصريون فى عهد الإمبراطور "ماكسيمين". وقد أدخل هذا القديس سبعة آلاف من الفلاحين المحليين إلى المسيحية (كان معظم سكان المنطقة مسلمين).

وبعد ذلك إلى النوبة

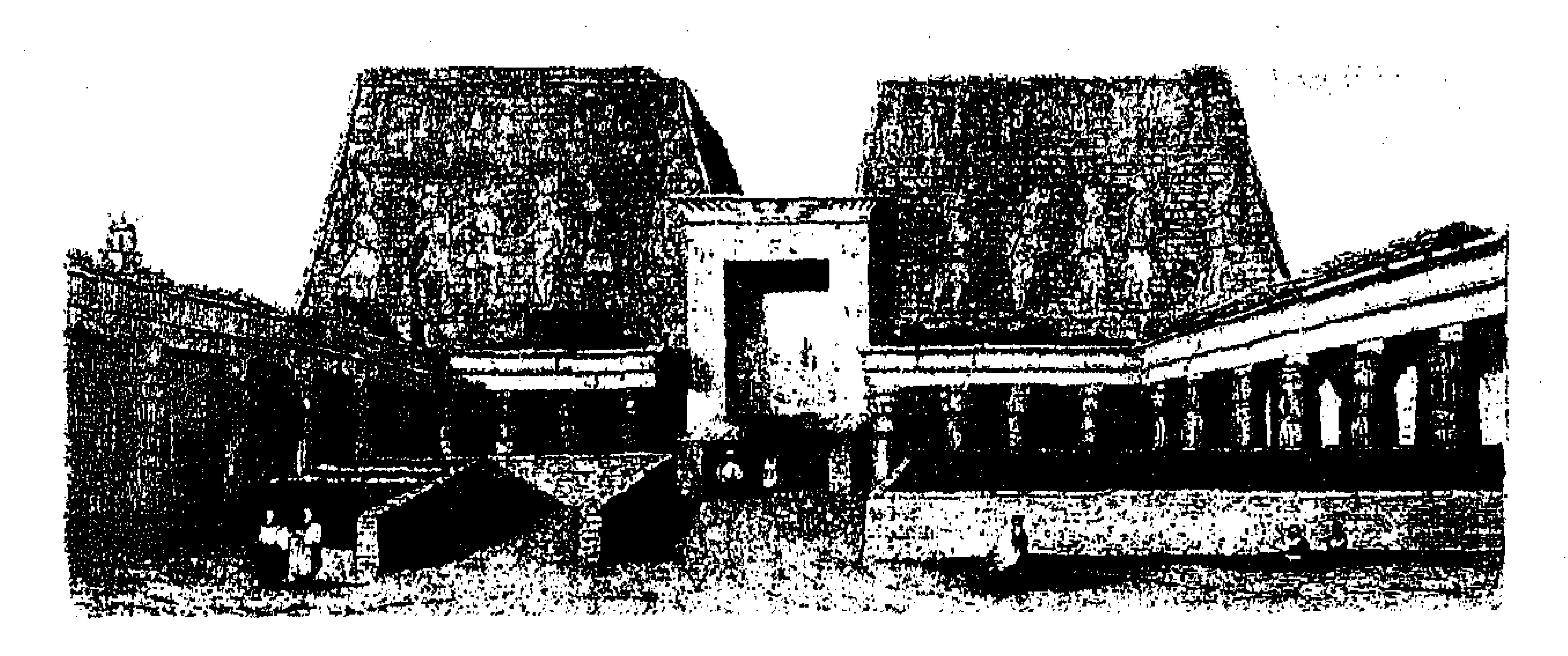
جاءت ساعة وداع طيبة قبل العودة إلى النوبة. وكان قد تبقى أمامه "أرمنت"– مدينة هيرمونتيس القديمة – حيث وصف نوروف المعبد الرومانى، الذى شيد مكان مصرى أقدم. وقد حفظت فى المعبد كتابات، تمثل أساسًا مناظر ميلاد بطليموس سيزاريون ابن كليوباترة. وقد فقد كل ذلك الآن بلا رجعة؛ حيث إن حكام المنطقة فى ذلك الوقت استخدموا المعبد لغرض آخر غير الغرض الذى بنى من أجله، فقد تم بناء "زريبة" للحمير فى هذا المكان.

كانت النقطة التالية للرحلة هى مدينة "إسنا". زار فيها نوروف الأطلال القديمة، التى كانت تجرفها مياه النيل . كان يوجد هناك مكان مخازن التجارة النوبية، وكان يوجد "دير القديس مانقى" ودير آخر هو "دير الشهداء المقدسين"، الذين أراق دماءهم "ديوكليتيان"، وفى المواجهة على الضفة الشرقية، كانت توجد أطلال دير قبطى قديم آخر ومدينة قديمة. وقد أشار نوروف إلى وجود الكثير من بقايا الحياة السالفة فى الطريق إلى مدينة "القابا" (مدينة نيخين المصرية القديمة)، حيث حفظت مقابر مثيرة للغاية توجد على جدرانها رسوم، وقد تم بناء هذه الكهوف أو المقابر مكان محاجر محلية، وعند انتقائهم للحجر ترك البناة على الجوانب وفى الوسط أبنية حجرية ضخمة تتسع لأعلى، مثل دعائم عند مدخل المقبرة.

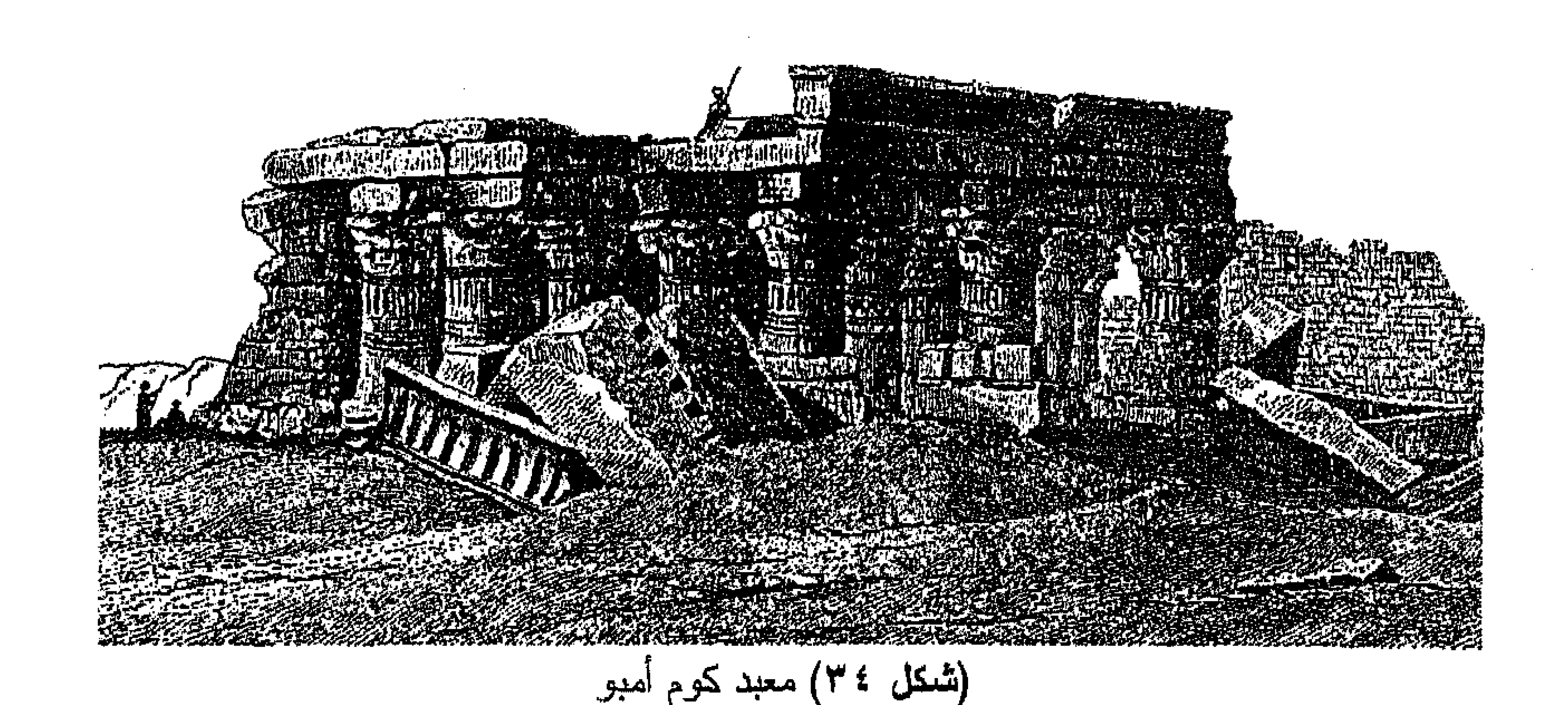
ترجع هذه المقابر إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة، وتنتمى إحداها لأحمس ابن إيبانا، حيث كان والده "بابا" يخدم عند الملك سيكينينر الثالث. وقد أمر صاحبها بكتابة روايات على جدرانهاعن ترقيه الوظيفى العسكرى فى عهد أحمس الأول الذى حرر مصر من احتلال الهكسوس، فقد كان ضابطًا فى أسطول الملك، كما كان ضابط مشاة. وقد تمت مكافأته بمنحه ذهبًا لشجاعته، ثم قاتل الأمراء الثائرين فى النومات التى تقع فى جنوب القابا، وقد تم منحه كمية مضاعفة من الذهب مكافأة له على ذلك. وقد شارك فى الاستيلاء على مدينة "أفاريس" (عاصمة الهكسوس) وأخذ أربعة أسرى أهداهم له الملك عبيدًا. فيما بعد قاتل بالقرب من "شاروهين" (فى فلسطين)، وقد كافأه الملك مرة أخرى بمنحه ذهبًا لشجاعته، ثم أرسل أحمس إلى الجنوب وحصل على أراضى القابا وخمسة من العبيد مكافأة على شجاعته مرة أخرى. كما خاض معارك مع متمردين وحصل على مكافآت أخرى، وقد روى أحمس كل ذلك فى الكتابات التى فى مقبرته.

شاهد نوروف فى القابا أطلال مدينة قديمة فى الوادى، وقلعة فى التل، كلها مبنية باستخدام الطوب النيئ. ولاحظ فى شرق مدينة القابا القديمة وجود بقايا طريق حجرى قديم، أنشئ فى اتجاه البحر الأحمر، كما افترض الباحث على حق؛ فقد كان فى اتجاه ميناء بيرينيكا Berenike (تحت رأس جبل باناس). وأمام القابا، على الجانب الأيمن للنيل، على بعد نصف ساعة من السير مشيا من عند النهر، رأى نوروف هرمًا عند الحدود مع الصحراء، كتب عنه أنه آخر هرم فى جنوب البلد، وقد ذكر أنه يسمى "كوم".

وفى المدينة المجاورة "إدفو" زار الرحالة معبد "حورس"، الذى تم بناؤه فى عصر البطالسة، وقد عاش العرب فى ذلك الوقت على أرضه (شكل ٣٣). شاهد أيضا معبد "كوم أمبو" (شكل ٣٤)، الذى خصص له نبذة صغيرة، ثم سافر إلى جزيرة فيلة. كانت قد استكشفت فقط فى بعض الأماكن جدران، ودرجات، ونخس معبد أنوبيس. وفى عام ١٨٢٨ أمر محافظ أسوان بإزالة كل الأطلال بالحفر، وتم بناء مبان محل مخزن، واستخدمت عناصر البناء المعمارى فى المبانى التى شيدت. وقد زار أ.س.نوروف المحاجر القديمة غير البعيدة عن أسوان، حيث شاهد المسلة الناقصة "لحتشبسوت" التى تشرخت أثناء قطعها، والتى بقيت فى مكانها هناك على مدى القرون.



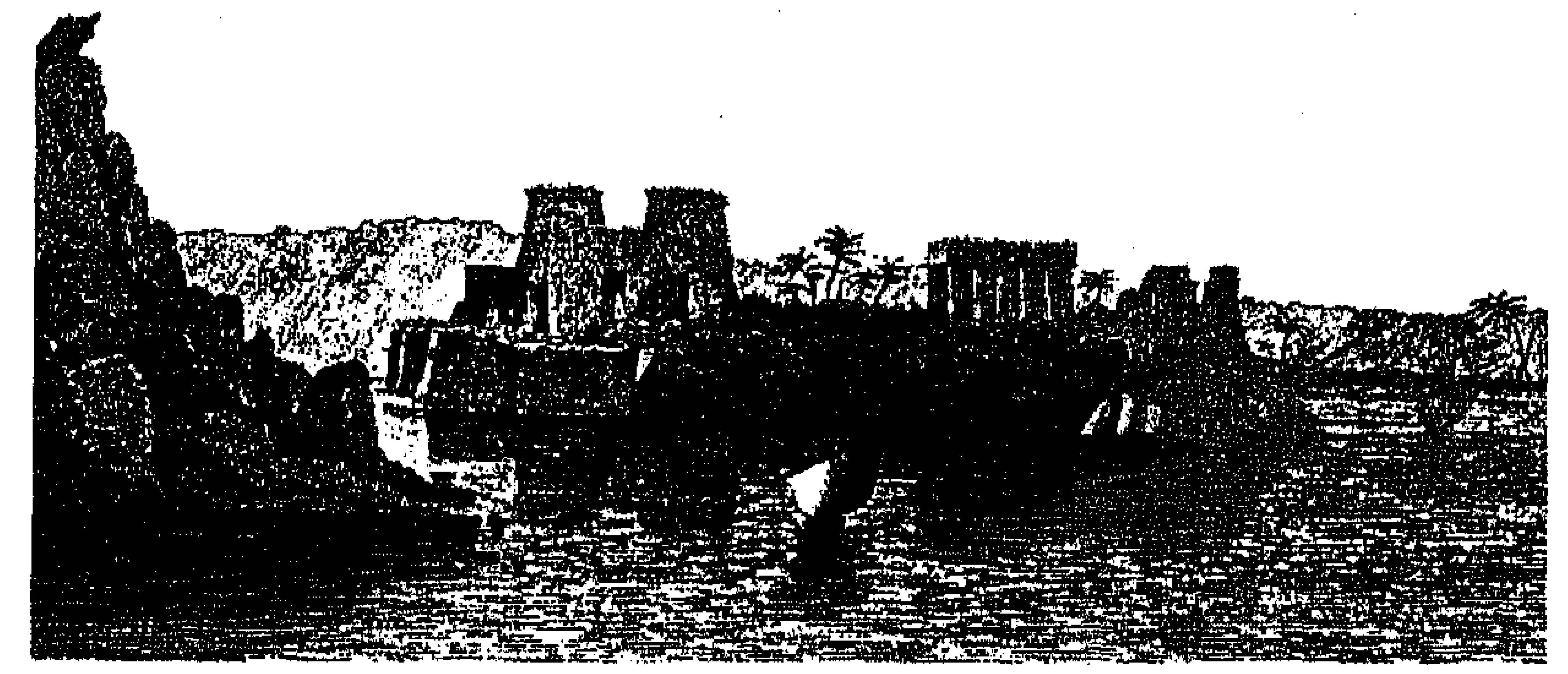
(شكل ٣٣) معبد حورس بإدفو(من كتاب "رحلة إلى مصر والنوبة" لأ.س.نوروف)



(شكل ٣٤) معبد كوم أمبو

(من مؤلف أ.س.نوروف "رحلة فى مصر والنوبة")

لم يكن إطلاق العرب اسم جزيرة المعابد على جزيرة فيلة من قبيل الصدفة أبدًا. وقد كتب الرحالة الروسى وصفًا لما رآه فيها (شكل ٣٥). لقد وجد فى مكان غير بعيد عن الطريق الذى أنشئ فى قديم الزمان كتابة رومانية، جاء فيها أن الجبل الذى كان يستخرج منه الجرانيت كان مكرسًا لكل من "جوبيتر" و"أمون" و"أنوبيس" و"يونون" وفى عهد الأباطرة "ألكسندر سيفير" و"أنطونين" و"خيتى".



(شكل ٣٥) معبد إيزيس على جزيرة فيلة
(من مؤلف أ.س.نوروف "رحلة فى مصر والنوبة")

وقد ترك معبد إيزيس أقوى انطباع عند أ.س.نوروف، فوصفه بالتفصيل، وأضاف أن المسلة التى عند الرواق، بالقرب من الضفة الجنوبية لفيلة، مماثلة لمسلتين أخريين، كانتا تقفان أمام النخس ونقلتا إلى إنجلترا. وقد استخدم المعبد، بعد إهماله كنيسة مسيحية. وقد تبقت من ذلك الزمن صلبان مرسومة ومحفورة، كما كان يوجد هناك حجر مكعب من الجرانيت، استخدم كمذبح، وكان عليه أيضًا رسم للصليب. وكانت توجد كتابات يونانية مرسومة على المذبح، تحكى عن الكنيسة التى بنيت هنا فى عهد أسقف اسمه "ثيودوسيوس". وقد افترض نوروف أن الحديث يدور عن الأسقف الشهير "موبسويت" القادم من سوريا، والذى عاش فى عهد "فيودوسيا العظيم". ولكن كم كانت دهشة الرحالة عندما كان يدرس النقوش، فقرأ كتابة بلغته الأم: "ألكسندر الأول حكم الروس لمدة ٢٥ سنة بمجد ورفاهية". "كم من اللذيذ للروسى، أن يعثر على صدى فى ذكرى ملكه المبارك حتى عند حدود النوبة". يمكن فهم حماس وحنان نوروف، فهاتان الصفتان كانتا يمكن أن تكونا موجودتين عند إنسان، سافر من روسيا الأرثوذكسية فى رحلة بعيدة إلى مصر، التى حفظت بها الكثير من المقدسات القبطية، للبحث عن آثار الله العظيم الذى هو فوق كل شيء. وكانت هذه الكتابة تعتبر رمزًا لتقارب الكنيسة الروسية الأرثوذكسية والكنيسة القبطية.

لقد بقى الكثير من الكتابات والتوقيعات على الآثار المسيحية فى مصر، وقد خلدت أسماء من زار هذا البلد على مدى قرون، سواءً كانوا من الخاصة الملكية أو فقط من الرحالة الجوالة، من العلمانيين أو ممن يخدمون فى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية. ترك "بورفيرى أوسبينسكى" هو أيضًا كتابته عندما زار دير "سان أنطونيو"، وما زال سكان هذا الدير يتحدثون عن ذلك حتى الآن.

كان القياصرة الروس يحاولون، فى معاركهم السياسية الخارجية مع القوى العظمى الأوروبية لوراثة الإمبراطورية العثمانية العظيمة، استغلال التقارب الدينى بين الكنيستين الأرثوذكسية والقبطية. وكثيرًا ما أرسلت السلطة الروسية العليا، إلى مصر والشرق الأوسط، بعضًا ممن يخدمون فى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، المتمتعين بسمعة جيدة عند قادة الأقباط. وكانت الدول التى لا تريد أن يقوى موقف روسيا فى الشرق، تراقب هذه البعثات. فقد كانت إنجلترا مؤثرة فى مصر لفترة طويلة، فلم تسمح بأية محاولات جرت لتعديل الوضع السياسى. وعلى الرغم من ذلك كانت هناك محاولات محددة نحو تقريب روسيا ومصر اعتمادًا على أرضية العقيدة المسيحية (بغض النظر عن الاختلافات الكبيرة بينهما فى مجال علم اللاهوت).

قام الروس الذين يخدمون فى الكنيسة بالكثير من الزيارات إلى الكنائس والأديرة المسيحية المصرية. كما كانت الإتصالات بين الكنيسة الروسية والقبطية تحتل أحد الأماكن الأولى بالنسبة لهم. وكان يصاحب هذه الرحلات نشاط فى جمع الآثار، ونتيجة لذلك حصلت روسيا على وثائق بها معلومات دينية. كان للآثار المصرية القديمة التى وصلت إلى الهيئات العلمانية الحكومية أو إلى متاحف

الكنائس، مكانة خاصة. وقد قامت الشخصية الدينية الشهيرة وعالم التاريخ "بورفيرى أوسبينسكى" بجمع مجموعة كبيرة لدرجة ما من الآثار. كما أنه ترك مذكرات مهمة جدا عن رحلاته إلى الشرق الأوسط ومصر.

عندما كان بورفيرى أوسبينسكى رئيسًا للكنيسة القنصلية فى فيينا، تم إرساله فى عام١٨٤٣ إلى الشرق، وبعد ثلاث سنوات من ذلك زار سوريا وفلسطين، أما فى عام ١٨٥٣ فقد عين رئيسا للبعثة الروحية الروسية بأورشليم. وفى عام ١٨٥٨ توجه أوسبينسكى مرة أخرى فى رحلة إلى الشرق آخذًا معه متاعًا ثقيلاً من معرفة تاريخه. لقد قام بأول رحلة له إلى مصر فى عام ١٨٤٥، ولكن كتابه "رحلة إلى مصر وإلى الأديرة"[٧٥] كان نتاج زيارته التالية.

كان بورفيرى أوسبينسكى راويًا ممتعًا، متميزًا بلغته الحية والفريدة، وضمن مذكراته "زخارف متنوعة للطبيعة ولوجوه أشخاص وأفكار ومشاعر وعقائد وأعمال"، كانت لغته مناسبة لأسلوب فكره العالى، ولإحساسه بالعالم: "أحب هذا البحر (المتوسط)، كطريق وصل عن طريقه الإنجيل إلى كل من أوروبا وإفريقيا". وكتب أوسبينسكى ما يلى عن الهدف من رحلته:

"الرغبة فى الصلاة فى المكان الذى دعا الله فيه ابنه من مصر، والرغبة فى تلقى معارف جديدة، ومراجعة المعارف السابقة، وتخليص معاونى من الملل والتعب الناتجين من الحياة الرتيبة، وكذلك توسيع دائرة مداركهم، هذه رغبة لا يمكن التغلب عليها. وهكذا، أذهب، يا ربى، باركنى".

ولكن يتضح، مما هو مكتوب بعد ذلك، أن الهدف الرئيسى من رحلة بورفيرى أوسبينسكى كان محاولة التقريب بين الكنيستين الأرثوذكسية والقبطية.

---

(٧٥) СПб., 1856

رست السفينة التى كان عليها الأرشيمندريت الروسى ورفاقه، فى الإسكندرية، وأُلقيت المرساة قرب رصيف جديد، بالقرب من قلعة "مسننة" قديمة بنيت مكان جزيرة فاروس الغارقة، التى عمل بها فى يوم ما فى الماضى ٧٠ من المترجمين الأذكياء على ترجمة "العهد الجديد" من اللغة اليهودية إلى اليونانية. ومنذ اليوم الأول من وصول أوسبينسكى مع رفاقه إلى مصر، بدأ فى دراسة اللغة العربية. يفترض أن الهدف من ذلك هو التفاهم بطريقة أفضل عند التعامل مع السكان المحليين، وقول "شكرًا"، وطلب إحضار ماء أو لبن، أو توضيح اتجاه الطريق، إلخ. كانت معرفة اللغة تجعل العرب تحت أمرْ الرحالة، فى هذه الحالة كان العربى يفتح قلبه، ويكون مخلصًا لرفيقه ومعاونًا له. على أية حال هذا هو ما لاحظه الكثير من الرحالة الروس.

"أرواح الأصدقاء، كمجرى النيل" هكذا شبه بورفيرى أوسبينسكى حديثه اللطيف مع رئيس دير "سافين"، الذى كان قد تعرف عليه من السفرة السابقة الأب "نيكيفور". أما الدير نفسه فقد تم بناؤه عند المرسى الجديد فى القرن السابع مكان معبد "نبتون" القديم. زار ب.أوسبينسكى متحف الآثار القديمة الموجود فى بيت القنصل النمساوى السابق "ج.لاورين"، الذى كان قد تلقى هدية عبارة عن قطعة أرض من "بوجوس بك"، وجد فيها أثناء البناء عليها أول معروضات ترجع إلى "العصر اليونانى الرومانى". اهتم الأرشيمنديت بإحدى المعروضات بصفة خاصة، أبو الهول صغير يمثل شخصية نسائية. فكر فى معنى هذا التمثال، ففهم تصور قدماء المصريين عن أساس كل الطبيعة، أى أن النمط الأنثوى هو محيط الماء، أما الأسد فكان يمثل طارئ النار، ولكنه لم يراع أن تمثيل كل من الأسد والأنثى معًا، عبارة عن تحوير يونانى رومانى لأبو الهول المصرى القديم. أما فى الإسكندرية فقد زار ب.أوسبينسكى كنيسة "مارك الإنجيلى" القديمة والفقيرة تمامًا، والمملوكة للأقباط.

ولكى ننقل جو الإبحار فى النيل على دهبية إلى القاهرة، يستحق الأمر إعطاء الكلمة مرة أخرى لبورفيرى أوسبينسكى نفسه، حيث إنها تعكس الحماس المميز للكثير من الرحالة الروس، لمقارنة ما رأوه فى الغربة بالصور الموجودة بوطنهم روسيا:

"عندما نظرت إلى دفق هذا المجرى المائى الهادئ والشفاف، تذكرت رحلتى العائمة السابقة فيه، والتى كانت لطيفة وخطرة. رسمت فى مخيلتى التماسيح، والقسس الأقباط، والأهرام والمقابر الملكية، ومعابد طيبة، ومساكن النساك القدماء، والنقوش الهيروغليفية، وتماثيل أبو الهول. أما رفاقى فقد أحبوا هذا النهر الحديث فى أول الأيام ومنهم من قارنه بنهر النيفا، ومن قارنه بنهر الدنيبر، ومن قارنه بنهر سوسنيا. اخضرت الحقول بوضوح على ضفته المقابلة، والحدائق بأحراش النخيل، ومن ورائها بزغ فجر الصباح فكسا السماء باللون الذهبى واللون الأحمر. انعكس ضوء قوس قزح فى الماء. وتبادلت أشعته القبل مع الدفق وحيًّا كل منهما الآخر فى الصباح الرائع".

بهذا الوصف، يصبح من الأوضح تصور مصر القديمة، وطبيعتها الغريبة، والحياة الروحية لشعبها الأصيل، الذى صنع حضارة فريدة، انعكست بطريقة أسطورية على الأعمال الفنية والكتابات. كان أوسبينسكى يعرف كمستشرق، أنه كانت توجد فى مكان ما فى منطقة شمال دلتا النيل، فى الرحمانية، مدينة نافكراتيس، التى أسسها "المليتيونط فى عهد الفرعون بسامتيح. وقد شاركه فى هذه المعلومات كل من هيرودوت وسترابون. وبالمناسبة طوال رحلة بورفيرى أوسبينسكى فى مصر، كان الأخيران يمثلان أحسن الأدلة له.

انزلقت الدهبية أبعد إلى الجنوب. كانت تسحب بالحبال عندما تهدأ الرياح، ثم توقف الزمن وجلب الملل. كان الماء ضحلاً أحيانًا، فيبدأ الفريق فى سحب الدهبية من أسر الجزيرة بنجاح متفاوت، ثم تجرى على سطح النيل مرة أخرى.

جاء النهار الساطع كى يزيح ضباب الصباح. وقد أدت هذه التغيرات المزاجية للطبيعة إلى أن بدأ الأرشيمندريت ينشغل بالتفكير فى تبدل مزاج الروح:

"وجدت أن أرواحنا أنفسها ليست متماثلة، ففى بعض الأحيان تلمع من البرق فتنهمر سيول الأفكار، أو تلمع مثل الشفق القطبى، أو تضطرب مثل بحر هائج، أو تدمر بسبب تضارب المتناقضات، ومن غموض ما هو غير مفهوم، ومن ململة الاهتياج وهواجس الكثيرين. وفى أحيان أخرى يستقر فيها هدوء السماء الصافية، ويعود توازن كل قواها، تحل العقيدة الهادئة محل الحكمة النشطة، وتفوح الصلاة المقدسة، ويكون هناك إحساس بقوة القرون القادمة، والإحساس بالاستسلام التام لله".

ولكن الدهبية تقترب من قاعدة الدلتا، حيث يتفرع النيل إلى فرعين كبيرين، فرع رشيد، وفرع دمياط. أما أفكار ب. أوسبينسكى فقد بدأت تنهمر فى اتجاه آخر: لماذا حدث ذلك؟ أى لماذا تفرع النهر إلى فرعين؟ ولكن قطعت رياح الخماسين التى هبت فجأة أفكار الأرشيمندريت. هبت عاصفة حقيقية، النيل يضطرب، ودفعت الدهبية إلى الشاطئ، واختبأت الشمس خلف سحابة رملية. أحس رحالتنا بالملل بوضوح. مرة أخرى ها هو موقف لم يتوقعه، هدأت العاصفة قرب المساء، وهبت رياح شمالية فى نفس اتجاه السير، وانتفخت الأشرعة، ووصلت المركب بسرعة إلى بولاق، فى طرف القاهرة. حمد الجميع وشكروا الله على النهاية السعيدة لرحلتهم العائمة.

نزل ب.أوسبينسكى فى القاهرة عند البطريرك "إيروفى"، الذى كان يعرفه من قبل. وفى خلال المناقشة التى تناولت مواضيع مختلفة استمع الرحالة إلى الآراء التالية عن الطباع الروسية: "أنتم الروس قوم صلب، حتى النساء عندكم يتصفون بالصلابة بطريقة خاصة". ثم أضاف البطريرك: "لن أنسى أبدا هذه الناسكة الروسية، التى سارت إلى سيناء من زمن قريب بقدميها المريضتين على

الطريق البرى وعادت سالمة. لا أعرف ما هو الأقوى عندكم؟ هل هى عظـامكم وعضلاتكم؟ أو عقيدتكم وإيمانكم بالله؟ أو أن كليهما متساويان فى الصلابة وأنهمـا لا يحطمان؟" أجابه أوسبينسكى: "كلاهما". ثم أضاف: "الثلج والعواصـف يقويـان، فكثرة البرق والرعد تمنحنا الجرأة، ونحن بإيماننا وبرسـمنا للـصليب مـستعدون للدخول فى النار وفى الماء".

تم إنشاء بطريركية أرثوذكسية جديدة فى مصر بمساعدة إمبراطور روسـيا "نيكولاى الأول"، وكذلك بفضل تبرعات "سينوديس" (اللسان العالى للكنيسة الروسية الأرثوذكسية) المقدس، وعالم التاريخ "أ.ن.مورافييف"، والكونتيسة "أنـا ألكـسييفنا أورلوفا"، والمسيحيين الأرثوذكسيين المصريين والروس. وقد تم الانتهاء من بنائها فى ٢٦ نوفمبر عام ١٨٣٩ كما تقول الكتابات التى عند مدخل الكنيسة. كانت توجد فى البطريركية مكتبة رائعة احتوت على كتب مطبوعة وكذلك على كتـب بخـط اليد، وقد تم إعداد رسوم القديسين بكنيسة "نيكولاى صانع المعجـزات" فـى ديـر "يوريف"، وقد اهتمت بذلك الكونتيسة "أ.أ.أورلوفا".و قد حفظت هنا الشهادات التـى أنعم بها القياصرة "ألكسى ميخيلوفيتش"، و"إيفان ألكـسييفيتش"، و"بطـرس الأول" لديرى "القديس سافا" و"القديس جيورجى"، والتى تم إرسالها فى عـام ١٧٣٦ إلـى بطريرك الإسكندرية "كوزما" ومعها مقتطفات من "إنجيل مرقس" (البـابين ٩، ١٠) باللغة اليونانية مكتوبة على رق. وقد أخبر البطريرك إيروفى ب.أوسبينسكى بـأن هذه مخطوطات مكتوبة بيد "الحوارى مرقس" نفسه، وأهدى الرحالة قطعتين منهـا. وبالإضافة إلى ذلك حفظ فى الكنيسة أربعة أناجيل باللغة اليونانية ترجع إلى عـام ١٢٧٢، والتى يدور بها قسيس حول الكنيسة فى أثناء إجراء الطقوس. وقد كتـب أوسبينسكى عن التعاملات مع هذه المقدسات: "الممتلكات الحقيقية من مخطوطـات العهدين الجديد والقديم لم تفقد ولم تتلف، وفى النهاية أرى أن ذلك يمثل درسًا لنـا

لكى نحترم الآثار القديمة وأن نحافظ عليها، كأنها فى عينينا". وتظهر هذه الموعظة كما لو كانت تنطق فى العصر الحديث.

عمل أوسبينسكى فى مكتبة الدير بجد، فقد نسخ أبواب مخطوطة المطـــران "بايسى" عن البطريرك الروسى "نيكون"، كما وجد مخطوطة ممتعة له بها قائمـــة بكل البطاركة المقدسين مع حصر لكل الأسقفيات التابعة لهـــم فـــى فتـــرة حكـــم القيصر"ليو الحكيم". وبعد قائمة البطارقة، كانت توجد فى المخطوطة مقالات تمثل أهمية لدراسة العلاقات بين روسيا ومصر، مثل رسالة المطـــران "بايـــسى" لأحـــد النبلاء الروس اسمه "بيتر ميخايلوفيتش" عن أنه من المفيد حفظ سر القيصر، كمـــا كانت بها مواضيع متنوعة عن الأمور الكنائسية التى اقترحهـــا القيـــصر "ألكـــسى ميخايلوفيتش" على هذا المطران، وكذلك الإجابات عنها. كان من بين الأسئلة مـــا يلى: كم كان عدد المسامير التى ثبت بها السيد المسيح إلى الصليب؟

عمل أيضًا بورفيرى أوسبينسكى فى دار حفظ الكتب بممثلية ديـــر ســـانت كاترين فى القاهرة، حيث عثر على وثيقة عـــن الحـــوار بـــين المطـــران الليبـــى "صمويل" الذى أقيم على عرش الإنجيلى مرقس فى عام ١٧١٠. أمر أوسبينـــسكى مساعده "كريلوف" بنسخها، حيث إنه كان يعانى من ضعف النظر ومـــن مـــرض عينيه، الذى ضايقه فى خلال كل الرحلة، خاصة فى أوقات رياح الخماسين. كـــان صمويل لاهوتيًا عارفًا وواعظًا ماهرًا، فى رتبة رئيس الشماسين، وقد زار موسكو فى عام ١٦٨٣ وحصل من القيصر على تبرع سخى لـــدفع ديـــون البطريركيـــة السكندرية وترميم الجدار الغربى بدير "سافا"السكندرى.

بعد عيد القيامة أمضى بورفيرى أوسبينسكى ثلاثة أيام فى دير آخـــر، هـــو "دير مار جرجس" فى مدينة الفسطاط. عند وصـــوله إلـــى هنـــاك أهـــداه رئـــيس الشماسين "ديونيسى" سجلين "أكافيست" (ترانيم غنائية مـــسيحية) لكبيـــر الملائكـــة ميخائيل، وسجلاً قديمًا به مجموعة مختارات دينية. وقد تبين للأرشـــيمندريت مـــن

المخطوطات التى اطلع عليها أن هذا الدير كان موجودًا فى القرن الخامس عشر، وأنه قد تم بناؤه على جدار مدينة قديمة، وكان تشييده فى عهد استيلاء الفرس على مصر. وعندما شاهد المقابر الأرثوذكسية القريبة من جدران الدير رأى الرحالة الروسى كتابة على كنيسة صعود السيدة العذراء، تفيد بأنها قد بنيت مكان كوخ اختبأت فيه السيدة مريم والمسيح الطفل، على الرغم من أن الأقباط أكدوا له أن هذا الملجأ موجود تحت كنيسة صعود السيدة العذراء فى الدير.

انتهت رحلة بورفيرى أوسبينسكى فى القاهرة وضواحيها بمنطقة "ممفيس"، وعندما مر عائمًا بجانب هذه العاصمة القديمة تردد، هل يستحق الأمر أن يلقى المرساة فى هذا المكان، أو أن يسرع فى الطريق نظرًا لتغير اتجاه الريح، بحيث يقوم بزيارتها فى طريق العودة. وبالطبع تغلبت بسرعة الرغبة فى زيارة دير "القديس أنطونيو" الشهير ودير القديس القادم من طيبة "بولى" القريب منه، فتوغلت القافلة فى عمق الصحراء العربية وتركت نهر النيل خلفها.

وبهذا، الوداع يا ممفيس. ولكنه عاد بفكره إلى الآثار القديمة التى شاهدها فى طريقه الطويل. كان يميل للتفكير العميق، فشبه هرم زوسر المدرج فى سقارة بروح الانسان:

"الإحساس والوجود والخيال والذاكرة والعقل والإرادة تناظر درجاته، أما العقيدة فتناظر قمته التى تحت السماء. الهرم عبارة عن أشعة الشمس، أما الروح فهى صورة ومثيل لأب الدنياوات. الهرم لغز، أليست أرواحنا أيضا كذلك؟ الهرم خالد على مر العصور، والروح لا تموت. هذا لا يمكن أن تزنه، وهذه ليس لها وزن. هذا كله غارق فى الأشعة، أما هى فغارقة فى الأفكار والأمنيات".

قد يكون التمثيل الرمزى لدرجات الهرم لا يزيد على كونه خيال الرحالة، ولكن يجب إعطاء مجازية فكره حقها؛ فأوسبينسكى يقارن من ناحية بين شىء

مادى مرئى، ومن ناحية أخرى، شيء غير مرئى. وبالإضافة إلى ذلك فهو يقارن ظاهرة خاصة بالوثنية بظاهرة مسيحية. ولكن على الرغم من ذلك فإن هذه المقارنة صحيحة بدرجة ما، حيث إن كلا هاتين الظاهرتين مرتبطة بتصور الخلود والدوام الموجودين فى كل من مصر القديمة والمسيحية؛ ففى مصر القديمة تم تشييد الهرم والمصطبة أماكن لآخر راحة للميت، من أجل الروح "كا"(٧٦)، أو قرين فرعون أو أصحاب المقام الكبير الذين توفوا. كانت الروح "كا" تستطيع أن تتركهما بلا عوائق ثم تعود إليهما مرة أخرى.

كان بورفيرى أوسبينسكى، مثل كثير من علماء القرن التاسع عشر، مؤيدا للنظرية التى تقول بأن أصل وهدف الأهرام كان أن يحتمى فيه القوم القدماء من الطوفان.

عامةً، فإن كتابه به معلومات كثيرة مشكوك فيها، أو على الأقل لم يتم التأكد منها. فعلى سبيل المثال، يذكر أنه عثر على كتابات هيروغليفية مصرية قديمة فى "فالاخيا" (برومانيا). ولكن فى يومنا هذا يظهر أن ذلك لدرجة كبيرة غير محتمل، نظرا لأن الأشياء المنتمية للحضارة المصرية كانت منتشرة تماما بعيدا عن حدود البلد منذ قديم الزمان. ومن ناحية أخرى، كان مصدر معلومات أوسبينسكى هو "هيرودوت" الذى جعل، على الأرجح، الأرشيمندريت يظن أن الفراعنة المصريين قد حكموا منطقة "مونت نجرو"، وكذلك على أرض "الأسكيثيون" والفراكيتسيين" (بمنطقة رومانيا حاليًا) فى عهد سيزوستريس (سنوسرت الثالث). على أية حال لم يؤكد الأثريون هذه الاستنتاجات.

ولكن على أية حال يجب أن نعطى معرفة الرحالة وقدرته على الملاحظة حق قدرهما، ففى أكثر الحالات يمكن الوثوق تمامًا فى ما يكتبه ويقدمه من

---

(٧٦) أحد الأسماء السبعة للروح، طبقا للديانة المصرية القديمة.

معلومات، فنصائحه التي يقدمها للأجيال القادمة عقلانية، بل إنها ببساطة ضرورية. فإنه، على سبيل المثال، يدعو لدراسة اللغة القبطية، ليتم إحياؤها، باستخدام القواميس القبطية العربية، المتوفرة بكثرة والمتربة في الأديرة القبطية. هل يا ترى، ما زالت هذه الكتب التي لا تقدر بثمن محفوظة؟ والكثير من ملاحظاته الحياتية تستحق الاعتبار. كان يعرف مدى الاحترام الذي يقدمه العرب للأجنبي الأنيق في ملبسه، والذي سوف يصاحبونه أثناء الرحلة، لذلك قرر أوسبينسكي أن يبدل ملابسه وهو في طريقه إلى دير "القديس أنطونيو". وهو لم يخطئ في ذلك عندما لبس الحرير وأصبغ على هيئته مظهرًا مهيبًا.

هكذا دخلت القافلة المكونة من ١٨ جملاً إلى الصحراء العربية. كان الطريق شاقًا، كما صاحبته رياح الخماسين المنهكة. وصل الضيوف إلى الدير بالطريقة المعتادة في ذلك الوقت، في سلات تم رفعها بواسطة آليات معينة. من الأسهل أن نقول إنه قد تم وضع الحجاج ومتعلقاتهم في سلات كبيرة، تم رفعها بالحبال على حائط مرتفع به فتحات خاصة. لم تكن تبنى مداخل عادية في أديرة الصحراء بسبب تعدد حالات هجوم اللصوص والمجرمين عليها.

استقبل رئيس الدير والآباء المقدسون بورفيري أوسبينسكي وحاشيته استقبال ضيوف مهمين قادمين من روسيا. بعد الخدمة الاحتفالية، شاهد الأرشيمندريت الروسي الكنائس التي في الدير وما في داخل حدوده. ومرة أخرى نشهد على المعارف الواسعة لبورفيري أوسبينسكي؛ ففي أثناء مشاهدة كنائس الدير لفت نظره رسم غير مألوف لسيرافيم (أحد ملائكة الطبقة العليا في المسيحية)، أو (في قول آخر) لأحد الملائكة في كنيسة القديس أنطونيو القديمة جدا، والتي أسست في القرن الرابع. كان مرسومًا كمخلوق حيواني على هيئة إنسان (جريفون، مخلوق له جسم أسد وأجنحة ورأس نسر، أو رأس أسد. أو نسر) رأسه مدارة في وضع جانبي "بروفيل"، وأجنحته منخفضة في وضع أمامي (أنفاس) وله يدان

آدميتان مبسوطتان وعدة أزواج من العيون علـــى جســـمه (شـــكل ٣٦). لاحـــظ أوسبينسكى فى هذا الشكل تأثير كل من الفن التطبيقى المصـــرى القـــديم وتقاليـــد دلالات الكلمات. ٠



(شكل٣٦) سيرافيم (الإنجيلى؟) من دير القديس أنطونيو

بالطبع لا يوجد فى الفن المصرى القديم ما يماثل بطريقة مباشرة رسم هـــذه الأيقونة، ولكن يتضح فيها تمامًا تأثير كل من الأسلوب المصرى القديم والمواضيع الدينية الأسطورية؛ فقد تم رسم النسر فى الأيقونات القبطية رمزًا لتصور مشـــمس لمصر القديمة، ولكن فى تقليد آخر يتم رسم نســـر أو جريفـــون. ارتـــبط النســـر

بأسطورة مصرية قديمة مهمة جدا عن "أوك" الألوهية العليا، "أتوم" أو "رع" أو "حورس"، ولكن حصل شكل الالوهية "أوك" الذى تم فهمه على أساس الأساطير المسيحية، على مفهوم فنى جديد[٧٧] فى رسم الأيقونات القبطية .

بالطبع فقد تناولت أحاديث الضيف الروسى مع سكان الدير أساسًا المواضيع الدينية، وقد قرأ بورفيرى أوسبينسكى فى ممثلية دير القديس أنطونيو موعظة للقساوسة الأقباط، تشرح لهم مزايا الأرثوذكسية الروسية، موضحًا الفروق فى فهم "الله – الإنسان" فى الكنيستين الأرثوذكسية الروسية والقبطية. توجه للرهبان بطلب لكى يقوموا بغناء الأغانى الدينية، وقد أدهشته تمامًا نغماتها الخاصة:

---

(٧٧) تظهر التأثيرات المحددة لنماذج الأساطير المصرية القديمة على الأساطير المسيحية، وهى ظاهرة فى رسومات الأيقونات التى تمثل سيرافيم، وعلى مستوى دلالات الكلمات فى الأسماء التى يقدمها "سيرافيم"، أصلها SRF، مع مراعاة الجوهر النارى السماوى لهذا التصور المسيحى الأسطورى، الذى يربط بين معانى الكلمات من ناحية، بحيث تعكس فيه مفاهيم "ساخن" و"حار" و"حرارة" الذى يصاحب فيها رمز النار أساسها الصوتى، ومن ناحية أخرى الألفاظ "حار" و"ريح" و"هواء" مع محدد على هيئة شراع (Erman A.Grapov H.Wöterbuch der Aegyptischen Sprache.- Lpz, 1930.-Bd.4.S.195-197.) كما يتضح، لا يمكن إغفال المصادر المصرية القديمة، عند تفسير موضوع أصل تسميات هذه الشخصيات فى الكتاب المقدس. وبالإضافة إلى ذلك، لا يمكن استبعاد أن قدماء المصريين بالذات، وليس قدماء اليهود (Мифы народов мира.- T.2.-M.,1982.-C.427-428)عند النظر كمصدر أساسى لكلمة، تمثل نموذجًا مسيحيا. على الرغم من أنه فى كلتا اللغتين المصرية القديمة واليهودية توجد دلالات قريبة لكلمات "نارية" و"ملتهبة" و"حرق" و"إشعال".

الكثير من النماذج الفنية المصرية القديمة، التى تمثل أصولاً لرسم الأيقونات القبطية، فى الوقت الحالى أطول بكثير، وكل منها يمثل موضوعا لدراسة خاصة مفصلة، ولكن لن يكون من المبالغة القول عن أصول كل هذه الاتجاهات إنه كان يوجد قوم مثل بورفيرى أوسبينسكى التقطوا فكرة أبدية وتتابع الحضارات.

فى الوقت الحالى فإن أعمال الباحثين الذين كتبوها اعتمادا على معلومات مؤكدة ومتعددة السمات، مكرسة للمشاكل المعقدة لأساليب وآليات الاقتباس من الحضارة المصرية القديمة، وللعمليات الداخلية لهذه الظواهر الحضارية. فى هذه الحالة يكون الموضوع المتعلق التالى لهم هو: هل الأمر يتعلق فقط باقتباس رسم الأيقونات، أو أنه يمكن فى حالات معينة التحدث عن استيعاب الحضارات التالية لأفكار الحضارات السابقة لها، ولكنها تكون مناسبة للتصورات والقيم الدينية الجديدة.

"غناؤهم لا يشبه الغناء اليونانى أو الأرمينى، وهو شجى تماما. وعلى الرغم من أن الصوت يتلوى ويرتفع بالتدريج، فهو لا يصل إلى النغمات العالية، كما لا يصدر أصواتًا حادة، ولكنه عامة يحافظ على نغمتين بسيطتين (علا مة رفع ونوتة أصيلة)، أحيانا مستوية، وأحيانًا مكسرة، بحيث يشابه الغناء ترجحا رتيبا لأرجوحة، يرتفع وينخفض بهدوء وبطء... فى الغالب لا يعبر الغناء القبطى عن كل الأحاسيس والإعجاب المسيحى، فهو عبارة عن صدى اعتراف صارم، وتهدئة نسكية من أمور الحياة، وصدى للصحراء الرتيبة. يمكن الاعتقاد بأن الأقباط قد حافظوا على غناء أجدادهم وكهنة أوزوريس وإيزيس والآلهة الآخرين، الذين يرمزون إلى مختلف الحيوانات. لأنه طبقًا لمعتقداتهم فإن أصواتهم الكنائسية حتى اليوم المسماة عندهم، أحدها باسم ثور مخصى، والثانى بقرة، والثالث ذئب، وغيرها".

مثل هذه المعلومات لا تقدر بثمن للباحثين فى حضارة مصر القديمة، وفى أساطيرها وديانتها، حيث إنها تسمح بالكشف عن الصفحة غير المعروفة فى الحضارة المصرية القديمة، وهى التى تتعلق بالموسيقى. على الأرجح وصل الكثير إلى العصر القبطى من مختلف الحضارات القديمة، ومنها الموسيقى المصاحبة للطقوس. ويبين ذلك، على الأقل، أن أوسبينسكى يذكر تلك الحيوانات التى تم تقديسها بدرجة أكبر فى مصر القديمة، والتى لها علاقة بعقيدة إيزيس وأوزوريس.

قص رئيس الدير داود، القس القبطى من بوش، والذى صاحب بورفيرى أوسبينسكى، قص عليه قصة دير القديس أنطونيو. فقد ولد مؤسسه القديس "أنطونيوس" العظيم فى قرية "جيمان العروس"، بالقرب من بوش. كان بالفعل قديسًا فى ذاكرة الناس، حيث إنه عند سماعه صوتًا من أعلى ترك أملاكه وتوجه إلى الصحراء، وأقام فى كهف، تم قام أتباعه ببناء دير غير بعيد عنه، وقد كبرهذا الدير اعتمادًا على تبرعات المسيحيين. وقد حافظ عليه المسلمون الذين جاءوا إلى مصر، ولكنه دمر فيما بعد. يعتقد أن ذلك كان بسبب معاصى الرهبان الذين كانوا يعملون

على استخراج الذهب فى السر بمساعدة عبيد، قاموا بحرق الدير. وبعد مرور ٧٠ عاما، أعيد بناؤه.

قامت عاصفة أثناء زيارة الرحالة للدير، حرقت الرياح اللافحة الوجوه بالرمال، واقتلعت الأشجار. كتب أوسبينسكى أن هذه الرياح تسمى فى الصحراء "سموم"، أما فى مصر نفسها فتسمى "خماسين"، وهى تنتهى بأمطار رملية.

"فى ساعات هبوب السموم فإن النفس يضيق، ويزيد النبض بشدة ويكون غير منتظم، والعيون تجف، ويتم الإحساس بمرارة فى الثغر، وكلال فى كل الجسم لا يمكن شرحه".

ذكر ب. أوسبينسكى فى حديثه مع داود أن ٣٣ ألف كنيسة أرثوذكسية وأكثر من ٥٠٠ دير تعمل فى روسيا. وأوضح رئيس الدير بدوره، أنه توجد فى القاهرة وحدها ٥ أديرة للنساء. وقد وصلا خلال حديثهما إلى كهوف القديس أنطونيو، كان عددها اثنين، واحد منهما أكبر قليلاً، والكهف الآخر بجانبه، وهو ضيق ومنخفض (كان يعيش فيه أنطونيو)، ومن هنا كان يظهر منظر وادى نهر "عرب" الذى قام أحد الطلبة الروس المصاحبين لأوسبينسكى برسمه، وكان اسمه "سولوفيوف".

وفى وقته اتبع مسيحيون آخرون المثال النسكى لأنطونيو، فأسسوا الأديرة فى كل من سيناء وفلسطين وسوريا وما بين النهرين (نهرى دجلة والفرات). قاموا بهدم "أماكن عبادة الأصنام"، واستأصلوا سحر الكهنة بقوة اسم السيد المسيح، كما قاموا بترجمة العهد القديم والعهد الحديث إلى اللغات المختلفة، وكتبوا وصفا لحياة الشعوب، وحافظوا على أحسن ما كان فى حضارات الشعوب الوثنية وفى حكمتهم، والمدونة فى المخطوطات القديمة التى قاموا بنسخها.

كان دير القديس بولى القادم من طيبة يوجد على بعد عدة كيلومترات من مسكن القديس أنطونيو، ولكن سارت القافلة إلى هناك فى مدى يومين على طريق

ممهد يصل إلى البحر، ثم ينحرف فقط بعد ذلك فى اتجاه جنوب الشرق. كان المضحل الممتد فى البحر الأحمر يسمى "كوبرى الفراعنة"، وكان يوجد مضحل مواز أطلق عليه اسم كوبرى "موسى" (هل يا ترى غرق هنا جيش فرعون؟، وفكر بورفيرى أوسبينسكى: هل يا ترى جاء هذا المسمى "كوبرى فرعون" من ذلك؟). وبعيدًا عنهما كان يوجد تل "الزعفرانة" الصغير، كانت تنهمر منه مياه مالحة جدا. وطبقًا لرواية البدو المحليين، فإن سيدنا موسى قد حول هذه المياه لتصبح حلوة، فى أثناء خروج الإسرائيليين من مصر.

هكذا تصور بورفيرى أوسبينسكى حياة النساك القديسين فى الصحراء. كان أنطونيو وبولى معاصرين بعضهما لبعض، وقد تقابلا وتحدثا عن الديانة. وكانت كهوف القديس بولى موجودة على أرض الدير، خلف هيكل كنيسة "الشيوخ الجليانيون". أمضى الرحالة الروس هناك عدة أيام، ثم تحركوا فى طريق العودة "الطريق السابق المألوف، بدا كأنه أقصر".

وها هى الأفكار التى جاءت بها الرحلة فى الصحراء المقدسة لأوسبينسكى:

"حياتنا تشبه ساحة لمعارك، فعندما تصل إلى الهدف المحدد، وتستريح بنشوة الانتصار، تاركًا عنده اسمك أو هدية نذرتها، ثم تأخذ معك ذكريات جميلة وتعليمية. هنا فهمت بصورة أحسن أن الحقيقة عبارة عن حياة مقدسة، وبكيت على حياتى المزورة. لقد عرفت هنا بصورة أفضل أن حياة المقدسين هى مرآة نظيفة، لترى فيها العزة غير الأرضية للروح، ولكن أنا بدورى تمنيت هذه الهبات من السماء. أنا فهمت بطريقة أفضل أنه أينما كان الخير الوحيد الذى منح لنا غاليًا، توجد أيضًا روحنا، وأسفت على أننا أصبحنا نقلل من العناية بها، فسألت ربى بحرقةٍ البركةَ التى تؤدى إلى إنقاذ الروح".

ليس هذا الذى ينتاب الرحالة الروس إحساسًا بالمشاركة فى التاريخ، بل هذا هو حج الروح وتطهيرها، وهذه المعاناة هى الأهم. هذا ما رسمته كلمة بورفيرى

أوسبينسكى. كان الرحالة نفسه يدرك مدى أهمية كتابة يومياته عن الرحلة، حيث إن الأهم أن يلتقط فيها ذلك المزاج الذى يكون فى لحظة اللقاء مع ما هو مدهش، وأن يصبح الناس رحالة للبحث عما هو مدهش وللبحث عن الذات.

"كان يجب أن يكون فى أمتعة الرحالة بجانب الخبز والملح ريشة كتابة. يفسد هذا السلاح بسرعة، ولكن ما خطه ليس كذلك، فيمكن أن يتم تصوير كل شيء به لزمن طويل، كل ما تراه العين، أو تسمعه الأذن، أو يحس به القلب، أو يدركه العقل".

حفظ لنا الزمن كلمته، رأى وإحساس هذا الكاتب الرائع، فإنه يمكن باستخدام كتاباته أن يتم الحج بالمثل على أثره إلى مصر.

الرحلة الخاصة للأمير العظيم نيكولاى

كانت رحلة الأمير العظيم "نيكولاى نيكولايفيتش"، الذى سوف يصبح فيما بعد قائدًا عامًا للجيش الروسى فى البلقان أثناء الحرب الروسية التركية التى قامت فى عام ١٨٧٢، ذات سمة فاخرة مختلفة تمامًا. زار نيكولاى فى خلال هذه الرحلة الإسكندرية والقاهرة بصحبة مجموعة من الضباط، كان من بينهم ياوره "د.د.سكالون"، الذى وصف هذه الرحلة فى كتاب "رحلة فى الشرق وفى الأرض المقدسة فى حاشية الأمير نيكولاى العظيم فى عام ١٨٧٢".

عرضت أوبرا ج.فيردى "عايدة" بمناسبة زيارة هذه الشخصية الخاصة ذات المقام العالى. كانت الملابس والديكورات مصممة تحت إشراف مدير متحف بولاق، عالم المصريات الشهير الفرنسى "أوجوست مارييت" الذى رافق الأمير العظيم، حتى خلال مشاهدته للمتحف، وفى مدينة الموتى فى سقارة التى كان قد تم

فيها فتح السيرابيوم، الذى كان محفوظاً فيه ثيران مقدسة تمثل الإلـه أبـيس، فـي توابيت ضخمة. وقد تم إعداد هذا الأثر المصرى القديم الشهير فـى العـالم كلـه احتفالا لاستقبال هذه الشخصية المهمة الخاصة، فقد أشعلت مئات من الشموع فـى البهو الرئيسى، كانت مشتعلة فى شمعدانات مرتفعة يمسك بها صبية عرب وقفـوا بلا حركة، كما كانت العقود المرتفعة والجدران مضاءة بـضوء أحمـر، وكانـت فتحات الكوات المحتوية على التوابيت مميزة كبقع سوداء.

فى طريق العودة مرت الزيارة بجانب غابة نخيل نمت مكان "ممفيس"، حيث كان يرقد تمثال ضخم لرمسيس العظيم. وقد أطلق المؤلف اسم "الثور الأسود" على الهرم المدرج لفرعون الأسرة الثالثة "زوسر"، غالبًا اعتمادًا على المعلومات التـى أعطاها له الإعلاميون المحليون.

صعد الأمير العظيم إلى قمة هرم خوفو، كما نزل إلى حجراته الداخلية. وقد كتب د.د.سكالون، بأنه طبقًا للتقليد السائد، فقد صاح كل المرافقين للضيف الكبيـر الروسى، بمن فيهم العرب، ثلاث مرات "أورا"، من فـوق قمـة الهـرم، لتمجيـد الإمبراطور الروسى. جرى هذا العرض غير العادى فى الصحراء المصرية، التى أصبحت مكانًا لدفن فراعنة الأسرة الرابعة، الذين بنوا الأهرام الضخمة التى تحدت الزمن نفسه ورنت ببقائها هى نفسها إلى الخلود.

كان مصير الكثير من الآثار المصرية القديمة الأخرى أسـوأ. وقـد فكـر د.د.سكالون، بهذا الخصوص، فى الضرر الذى تـسببت فيـه المـسيحية للآثـار المصرية القديمة. فقد تم هدم أكثر مـن ١٤٠٠٠ أثـر منهـا، فـى فتـرة حكـم الإمبراطور البيزنطى "فيودوس" فقط، عندما كانت مصر تنتمى لبيزنطة. ولم تكـن الآثار المصرية التاريخية والحضارية القديمة فى وضع أحسن بعد أن فتح العـرب مصر، حيث إنهم حولوا مدينة ممفيس إلى محجر حقيقى، كانت تؤخذ منه حجـارة البناء والتكسية لتشييد الأبنية فى القاهرة.

رحلة "ف.أندريفسكى":

سيكولوجية الرحالة الروس

"مصر...هى عالم لا يتغير، مدهش بتاريخه الذى تم كشف نصفه فقط، وبالحكمة والتى وجدت أربعة آلاف سنة قبل زمن إبراهيم ويعقوب".

ف.أندريفسكى

حدثت تغييرات كبيرة فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فيما يخص النظرة إلى التاريخ القديم، فلم يعد ترتيب الأحداث فى بلاد الشرق القديمة يعتمد بطريقة جامدة على تقاليد الكتاب المقدس. أما دراسة الكتاب المقدس نفسه فقد ولدت كعلم، وقد انعكست هذه التغييرات أيضًا فى كتاب ف.أندريفسكى، الذى قام برحلة إلى مصر فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وألّف كتاب "مصر"[٧٨].

اهتم أندريفسكى، كرحالة حقيقى، بكل نواحى الحياة الحالية والسابقة فى البلد، كما أنه قدم نصيحة ذكية:

"عندما تهتم بشعب ما، أول ما يجب أن توجه عنايتك له هو كل من الملابس والمعمار، حيث تظهر فيها العقائد والأفكار الروحية الدائمة للشعب وكل ما هو مستقر فى طبيعته وعاداته أكثر تركيزًا".

المجالات التى كتب عنها وفكر فيها متسعة جدا؛ فعلى سبيل المثال كتب بإعجاب شديد عن زيارته لمتحف بولاق الرائد السباق(المتحف المصرى حاليًا) الشهير فى كل العالم الآن باسم متحف القاهرة، حيث كان يحفظ به حتى ذلك الوقت

---

(٧٨) СПб., 1886

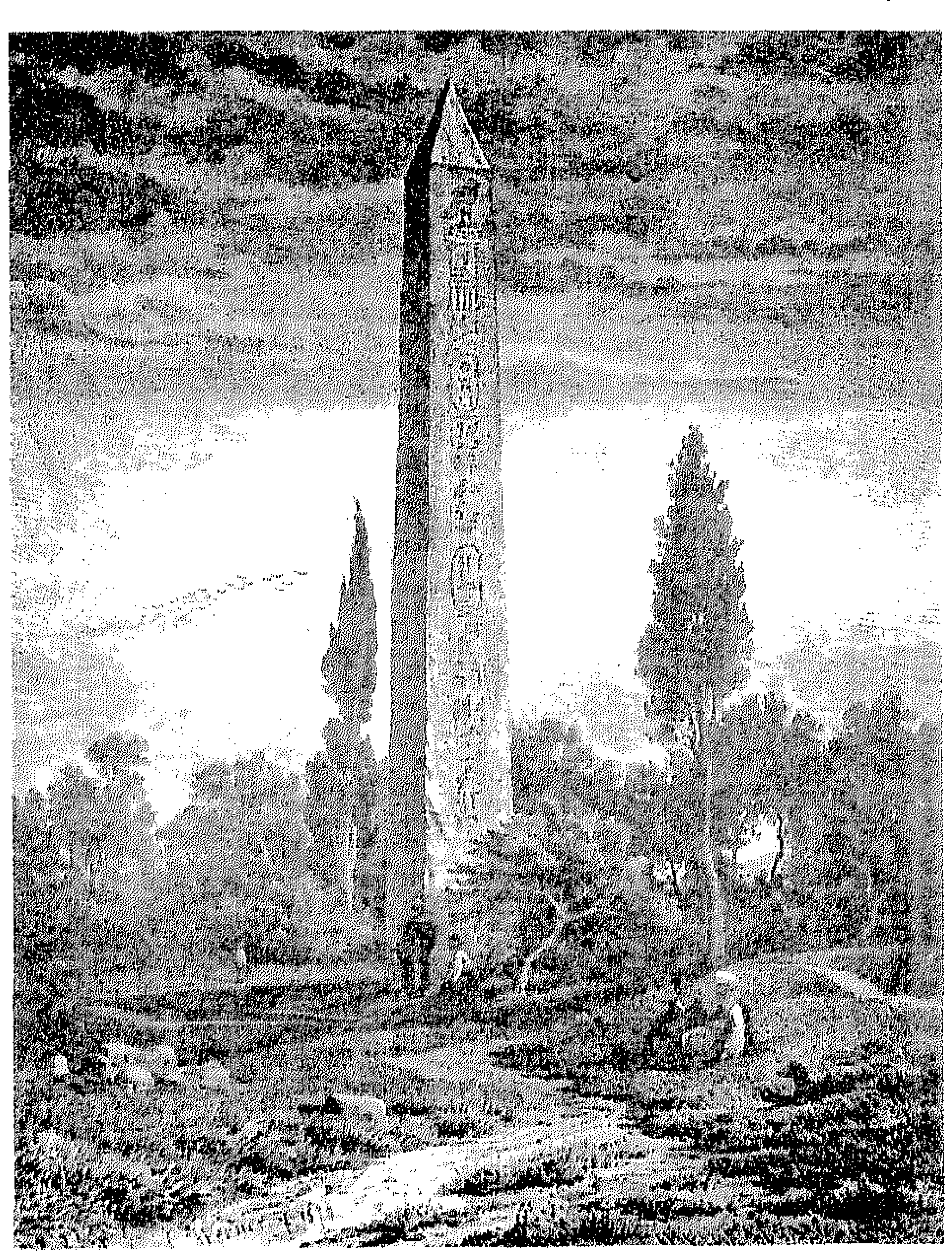
ما لا يزيد عن ١٠٠٠ قطعة، ولكنها تمثل قطعًا فنية مصرية قديمة من الدرجة الأولى. لقد تم افتتاح هذا المتحف الأول تحت رعاية الوالى "محمد على" الذى منع نقل قطع الآثار القديمة خارج حدود مصر، محافظة على تاريخها السابق. ولكن كما يبين التاريخ فيما بعد، فإن هذا المنع لم يمتد إلى الحاكم نفسه؛ فقد قدم الهدايا بيد سخية للدول الأوروبية المشاركة فى عملية الاصلاح، مما أدى إلى توديع مصر إلى الأبد قطعًا فنية فريدة من آثار مصر القديمة، فقد أهدى تماثيل ونُصبًا أثرية كاملة.

كان يحب أن يذكرنا كثيرًا "بالإسكندر المقدونى"، حيث إنه قد ولد هو أيضا بمقدونيا، ويبدو أنه يشابهه فى أعماله؛ فقد كان للإسكندر ولع خاص بمصر، وبحكمتها القديمة التى تجسدت فى التصورات الدينية المعقدة، وفى القوة السحرية التى كان يمتلكها الكهنة،الذين نقلوا للإسكندر العظيم الأسرار الغامضة فى المعابد العظيمة. فى الحقيقة، كانت محاولات تحويل مصر إلى بلد متقدم صناعيا مصحوبة بالتضحية بالكثير من الآثار القديمة المقدسة، التى اختفت من على وجه الأرض، حيث إن الأحجار التى كانت مبنية بها قد استخدمت لتشييد مصانع ومبانٍ أخرى فى مكانها. وقد كتب ف.أندريفسكى عن ذلك بالتفصيل عندما انتقل إلى الحديث عن موضوع الحضارات، وقد وصل إلى النتيجة التالية بعد تفكير: "ما يمكن تحت خط عرض معين، لا يمكن تصوره تحت خط آخر، الحضارة تتوقف تبعا للمناخ، وسوف يكون مصير العادات والآراء المفروضة هو الفشل".

ومن ناحية أخرى، عندما فكر ف.أندريفسكى فى فن مصر القديم، فقد درسه فى إطار ديناميكية التطور الحضارى، فهو يفترض أن ما يبدو ظاهريا أنه بقى بلا تغيير يكون فقط نتيجة لضعف دراسته.

توجه الرحالة الروسى من القاهرة إلى المطرية حيث كانت توجد مدينة "هليوبوليس" القديمة. وقد بقيت منها مسلة واحدة فقط، يبلغ ارتفاعها ٢٢ مترًا، فى وسط سور متسع يحيط بمعبد "رع" القديم (شكل ٣٧). وقد بدأ الرومان الذين سادوا

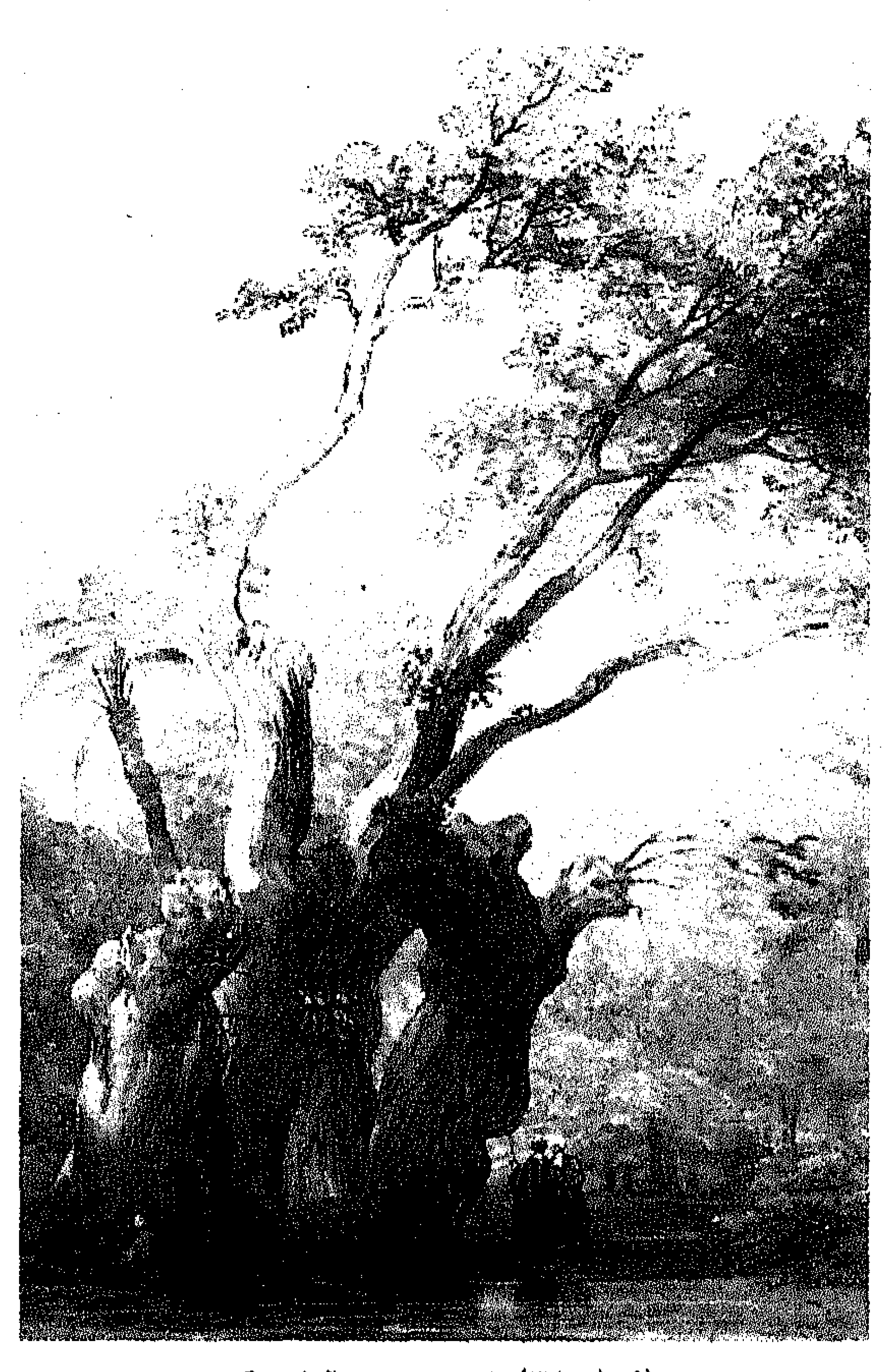
فى مصر فى نقل التماثيل القديمة جدا كى يجملوا بها "المدينة الخالدة"، فقد نقلوا ما لا يقل عن ٥٠ مسلة، بقى منها عدد بسيط. وفى عهد الإمبراطور "أغسطس" شيدت روما عدة مسلات أحضرت من هليوبوليس. وكانت إحدى المسلات التــى جلبهــا "كاليجولا" توجد فى المسرح الرومانى. وقد وضــعت بجانــب بازيليــك القــديس "بطرس" فى عصر النهضة، ثم فى عام ١٥٨٦ فى عهد البابا "سيكت"، نقلت إلــى الميدان الذى أمام كاتدرائية القديس "بطرس"، حيث تقف الآن. كمــا تقــف مســلة مصرية أخرى فى "بياتسا دل بوبولو" Piazza del Popolo، وثالثة فــى "مــونتى شيتوريو" Monte Citorio.



(شكل ٣٧) مسلة من هليوبوليس (صورة من بداية القرن العشرين)

ولم تكن باريس بعيدة عن ذلك، حيث تقف فى "ميــدان الكونكــورد" مســلة رمسيس الثانى التى أخذت من معبد الأقصر.

هكذا بقيت مسلة واحدة فى مدينة هليوبوليس نفسها، وهى موجــودة طبقًــا لرواية ف.أندريفسكى بالقرب من إحدى المقدسات المسيحية "شجرة جميز" مترامية الأطراف، استراحت فى ظلها العائلة المقدسة فى أثناء وجودها فى مصر. وتوجــد هذه الشجرة فى حيازة دير قبطى(شكل ٣٨)، فى حديقة بجانب الطريــق. وتوجــد عليها الكثير من الكتابات.



(شكل ٣٨) شجرة مريم المقدسة

(من "رحلة فى مصر والنوبة" أ.س.نوروف)

عندما وصل ف.أندريفسكى إلى القاهرة، توجه إلى جزيرة الروضة ليشاهد مقياس النيل الذى بنى فى عام ٤٨٥م، والذى عانى قبوه فى أثناء وجود جيش نابليون فى مصر. وهو يذكر أنه طبقًا لرواية الكتاب المقدس، فقد وجدت هنا بالذات السلة التى وضع بها الطفل موسى. كان العام يعتبر جيدًا إذا وصلت المياه إلى علامة ١٦ ذراع فى موسم فيضان النيل، وليس من الصدفة وجود ١٦ طفلاً مرسومين على تمثال "إله النيل"، الموجود فى الفاتيكان.

قبل زيارته للجيزة أدت ليلة قائظة بالرحالة الروسى إلى أفكار فلسفية، أفكار غير متوقعة لمصر للقادم من الشمال، والذى يعيش فى مدينة موسكو البعيدة، والذى يكون بالنسبة له "من المنطقى أن يستيقظ فى ضوء معتم لسماء بلده، وعلى أزيز الزحافات على الثلج، فى حجرة ما لم تتم تدفئتها، يصطدم فيها خياله بإطار شباك مزدوج، كفراشة طارت من خلاله بلا قصد". ولكن عندما وجد ف.أندريفسكى نفسه على بعد آلاف من الفرستات(*) من وطنه، فقد "بدأ يفهم الإحساس بالعالم المختلف تماما عن عالمنا". فقد استغرب كلاً من صوت المؤذن، وخطوات الجمل الثقيلة، وضوء بكرة الفجر الشاحب، وروائح الجنوب، والنسمة الخفيفة التى ترفع ستارة النافذة، والحديقة خلف النافذة، وقمم النخيل. كل هذا أثار استغرابه وأسره، ولكنه، مع ذلك، أدى إلى حنينه لوطنه. لا، لايجلب الصيف الخالد معه بهجة أبدية، فهذا إحساس قريب من "حنين المتعة، التى تصل إلى أقصى حدودها"، والخلاء بعد شغف عاطفى، وفقدان الطاقة وخور القوى.

(*) الفرستات وحدات قياس روسية. (المترجم)

كان الكاتب الروسى قد قرر استقبال الصباح، الذى يحبه جدا، على قمة هرم "خوفو"، لذلك فقد غادر القاهرة بمصاحبة بعض العرب فى ظلام الليل الدامس. استقبلهم أبو الهول الكبير عند مدخل الصحراء، وقد أطلق عليه هذا الاسم أهالى المنطقة (شكل ٣٩). وقف أندريفسكى وهو يحك قفاه، ويقارن نفسه بارتفاع هرم خوفو، فأمسك به اثنان من العرب الأقوياء من يديه ورفعاه على أولى درجاته التى كانت ترتفع أعلى قليلاً من وسطه، ثم على الدرجة الثانية، ثم الثالثة... كان يوجد طريق فى المكان، الذى كان السائحون يصعدون عليه الهرم عادة. ما كادوا يقطعون ثلث الارتفاع حتى طفرت أشعة الشمس من خلف جبل المقطم، " فاحمر الهرم كنيران حريق، وبدت السهول كأنها غرقت فى أشعته الحمراء". بعد أربع ساعات كانوا قد وصلوا إلى القمة المسطحة، التى تتوج هرم خوفو، بينما كانت تبدو من أسفل كما لو كانت حادة. وظهرت الشمس من خلف، فقط بعد أن داست قدم الرحالة على القمة المسطحة.



(شكل ٣٩) أبو الهول الكبير (صورة من أوائل القرن العشرين)

(توجد مناظر كثيرة خلابة الجمال على الأرض، ولكن لا يوجد منظر يضغط على خيال الانسان مثل الأهرام)

كان كل سطح القمة ملطخا بتوقيعات من صعد إليها من قبل. "كم من الحماقات والغطرسة رأت هذه الأحجار القديمة؟" هكذا كان تعليق ف. أندريفسكى. كانت توجد أيضا هنا كتابات إعلانية لرجال أعمال مصريين، أساسا لتجار. وقد رفض أندريفسكى تماما أن يخلد اسمه بهذه الطريقة، على الرغم من إلحاح العرب، وأنهم ضربوا له أمثلة لشخصيات عالية المقام فعلت ذلك، مثلاً أمير ويلز الذى كتب اسمه بنفسه بالخربشة على الحجر.

إذا كان صعود الهرم ليس أمرًا سهلاً فإن الهبوط من عليه أصعب، ولكنه على أية حال أسهل من تسلق هرم خفرع، الذى لم يفقد مع الزمن اللوحات التى تكسو سطحه، والتى ما زالت محفوظة حتى ربع ارتفاعه. فقد أمكن التسلق إلى مستواها السفلى فقط، ولم يتمكن من ذلك الكثيرون، فقط اثنان من اللوردات الإنجليز، يبدو أنهما كانا يكافحان من أجل كبريائهم الإنجليزى، وشخص ما إسبانى.

إذًا، ما هى حقيقة الأهرام؟ طرح الرحالة الروسى هذا السؤال. كانت قد ظهرت نظريات للعلماء حلت محل القصة الخيالية التى يرويها عن ذلك العرب. وكانت هذه النظريات أكثر منها خيالاً . كتب ف. أندريفسكى "بعد خيال الوهم، يجىء خيال العلم". كانت النظرية الأكثر خيالاً، وغير المعقولة التى أثارت ضجة فى ذلك الوقت بين النظريات الأخرى، هى تلك التى تقول إنه قد تم بناء الأهرام لكى... تحجز رمال الصحراء. أما الرحالة نفسه فهو لم يشك أبدًا فى أنه قد تم تشييدها لتكون مقابر ملكية. وهو يقدم دليلاً على الغرض منها، يتلخص فى حقيقة أن جوانب الأهرام موجهة بدقة إلى الجهات الأصلية الأربعة، مما يعكس تصورات دينية مهمة. وفيما يلى نقدم فكر المؤلف: "من ناحية المبدأ ليست الأهرام إلا تلالاً فوق قبور قديمة، شكلها الخارجى منتشرجدا. ولكن للهرم شكلاً بسيطًا جدا – فعملية بناء الأهرام المصرية ليست عملا قام بإرادة صاحبها الوحيد، لأنه قد

لا يتمكن من إكمال بنائها فى خلال حياته، كما أن الاعتماد على الورثة ليس مجديا تماما، حيث إنهم كانوا مشغولين ببناء مقابرهم الخاصة. إذًا فهذا عمل نتج من إرادة الشعب المصرى، المتميز بالتقوى والتدين الشديدين".

عندما دخل ف. أندريفسكى هرم خوفو، لاحظ،على ارتفاع ١٨ مترًا تقريبًا فوق المدخل، كتابة نقشها عالم المصريات الألمانى ك.ر.ليبسيوس، يشبه فيها الملك البروسى "فريدريخ فيلجيلم الرابع "، الذى مول بعثته إلى مصر فى أعوام (١٨٤٣-١٨٤٥) برمسيس العظيم، وقد كان رد فعل رحالتنا لتلك الكتابة ساخرًا.

أمضى ف. أندريفسكى اليوم بالكامل فى الجيزة بجانب الهرم وداخله، وعندما ودعها فى المساء، لاحظ السكون غير العادى المحيط بها، فحتى العرب اللحوحون اختفوا، وفاحت رائحة إعداد طعام من مكان ما فى الخلف، من قرية عربية. "لابد أنه جار طبخ عصيدة" فكر فى ذلك، ثم ذهب فكره إلى روسيا، رغمًا عنه" إلى قريته الأم العزيزة، حيث يكون هناك المساء فى الصيف مماثلاً، ساكنًا وهادئًا، وحيث تئز البئر بنفس الطريقة التى تحدث هنا، وتسمع مأمأة النعجة التى تخلفت عن القطيع". بعد الأهرام العظيمة، أصبح منظر الحياة الشعبية اليومية على خلفية الطبيعة الممتدة الأبدية، قريبًا جدا.

ولكن ما زالت أمامه رحلة كاملة فى مصر، قام بها الرحالة الروسى على سفينة أحد الأشخاص اسمه السيد "كوك"، بصحبة ٢٧ راكبًا معظمهم من الإنجليز، مما ضايقه جدا، فكان يوقظه ضجيجهم من سبات الإعجاب بالطبيعة المحيطة، والتفكير فى الآثار القديمة بممفيس وسقارة، وعن مصير مختلف الشعوب. كان منهم من هو محكوم عليه بعدم الحرية، بينما كان الآخرون أحرارًا بطبيعتهم. مثل قوة شريرة تثقل مصير الإنسان، هذه القوة تسمح بحرية البلاد والأجواء المعروفة فقط. هذه الشعوب المماثلة للمصريين، مرتبطة فى حياتها الاقتصادية بضرورة تنظيم أعمال حماية قنوات النيل، لذلك كان عليهم أن يخضعوا لإرادة السلطة

الحكيمة. ولكن الزمن يقضي على جهود الناس بلا رحمة، فقد فنت الحضارة المصرية هى الأخرى، ولكنه تراجع أمام الأهرام فقط. هذا التعبير المختار للطبيب "عبد اللطيف" القادم من بغداد، والذى عاش فى القرن الثالث عشر، وقد ترجم مؤلفاته "سالفستر دى ساسي" من العربية، ليس مجازيا أبدًا. رأى أندريفسكى من مدينة "ممفيس" التى كانت كبيرة فى الماضى، فقط قاعدة وبقايا جدران مبان، وبوابة، وكثير من التماثيل، وأسدين ضخمين، يمكن افتراض أنهما تمثالان لأبو الهول. ولكن لم يستطع رحالة القرن التاسع عشر أن يرى الكثير من أطلال العاصمة القديمة جدا للفراعنة الأوائل لمصر الموحدة؛ فقد بقى من آثار ذلك الزمن فى هذا المكان فقط تمثال رمسيس الثانى ، الموجود حاليًا فى متحف تم تشييده خصيصًا له.

كان الزمن أكثر رأفة بمدن الموتى، بجبانات ممفيس وسقارة، الموجودة على هضبة عالية، تقع على حدود قطع الأراضى الزراعية التى يتم ريها بمياه النيل. فالصحراء المغطاة بالرمال كانت تئول من سحيق الأزمان إلى مملكة الموتى. كتب ف. أندريفسكى "تصطدم هنا فى كل خطوة بآبار محفورة، وبأضرحة متهالكة، وبأنقاض شيء ما، وببقايا غير مفهومة، مغطاة بالرمال، مثل الكفن". وهو قد شاهد هرم زوسر المدرج من الخارج فقط، حيث إنه حدث انهيار فى عام ١٨٦٩ قطع الطريق إلى تيه الحجرات المنحوتة فى الصخر تحت الهرم.

نظر رحالتنا بحزن إلى الأطلال، واقترب من منزل أوجست ماريبت، الذى كان الأخير يعيش فيه أثناء عمل الحفريات فى السيرابيوم.

"هذا المنزل الصغير، إذا أمكن تسميته منزلاً، شهير جدا فى تاريخ الحفريات، فقد جرت فيه دراما، معارك كاملة بين حكومة الوالى والعالم الشجاع، الذى عانى هنا من دقائق صعبة بسبب الحرمان، ومن تحمل غارات العرب نصف المتوحشين".

وعلى الرغم من ذلك، فقد كتب أ.مارييت نفسه، أنه عاش هنا أروع وأسعد أيام حياته. وقد أثر على ف. أندريفسكى كل ما رآه. وفى ما يلى نقدم أراءه عن الآثار التاريجية، وإبداعات الأيدى الخلاقة والطبيعة:

"أنت عظيمة، يا مقابر سيرابيس الجرانيتية! ولكن السحابة الوردية التى يلونها آخر شعاع للشمس المغربة، أعظم، لماذا؟ هل لأنها خاطفة وتقريبًا لا يمكن اللحاق بها؟ أو لأنها ليست من خلق أيدى الانسان؟ أو من أنه لا يمكن حسابها أو قياسها، أو وصفها، كما تصف تابوت من الجرانيت؟".

أثارت مثل هذه الأفكار عن عظمة الطبيعة عند رحالتنا، الرغبة فى أن يشعر مرات أخرى بمشاركته فيها... وألا يبحر مرة أخرى أبدا فى صحبة سائحين:" هذه الأجراس والصفارات والمسارات المحددة بالساعة، كل هذا تم خلقه للإنجليز، وليس لنا نحن الروس".

فى الحقيقة، كانت سمة رحلة الروسى فى هذه الحالة، أنها تمت فى ظروف مريحة؛ فقد رقد أندريفسكى على سطح السفينة مستمتعًا بحالة سعادة من وجوده الشخصى، وهو يحس بالعبير الخاص للطبيعة المصرية المسالمة والرائعة بشكلها الفريد، والتى تظهر أمام العائمين على السفينة، فى النيل الهادئ العظيم، كأنه ملف.

"لقد منحت نفسى بكل جوارحى لهذه الطبيعة الغريبة علىَّ، وكل شىء آخر توارى فى مكان ما بعيد، وفقد أى معنى لدىَّ. الأخبار السياسية، وآخر الأحداث فى أوروبا، التى كنت حتى يومين ماضيين أقرؤها بنهم فى الجرائد، أصبحت كلها لا تعنينى! لقد تمتعت بالفرجة، هذا هو الأمر كله".

مرت السفينة بجانب هرم آخر فى ميدوم لم يتم فتحه بعد، وظهر جبل الطير على اليسار، وبه دير "العذراء المقدسة" القبطى، والذى تم هجره منذ ١٠ سنوات

قبل رحلة ف. أندريفسكى، وبعد ذلك ظهرت على الطريق مقابر" بنى حسن" المصرية القديمة الخاصة بعلية القوم، التى حفرت فى الصخر، ثم أطلال مدينة "أنطينويا" القديمة، التى استخدمت بقايا أبنيتها لبناء مصنع السكر الموجود على الضفة المقابلة من النيل. ثم تلتها مدينة أسيوط، حيث توجد مقابر الكهوف التى سكنها النساك المسيحيون الأوائل فيما مضى.

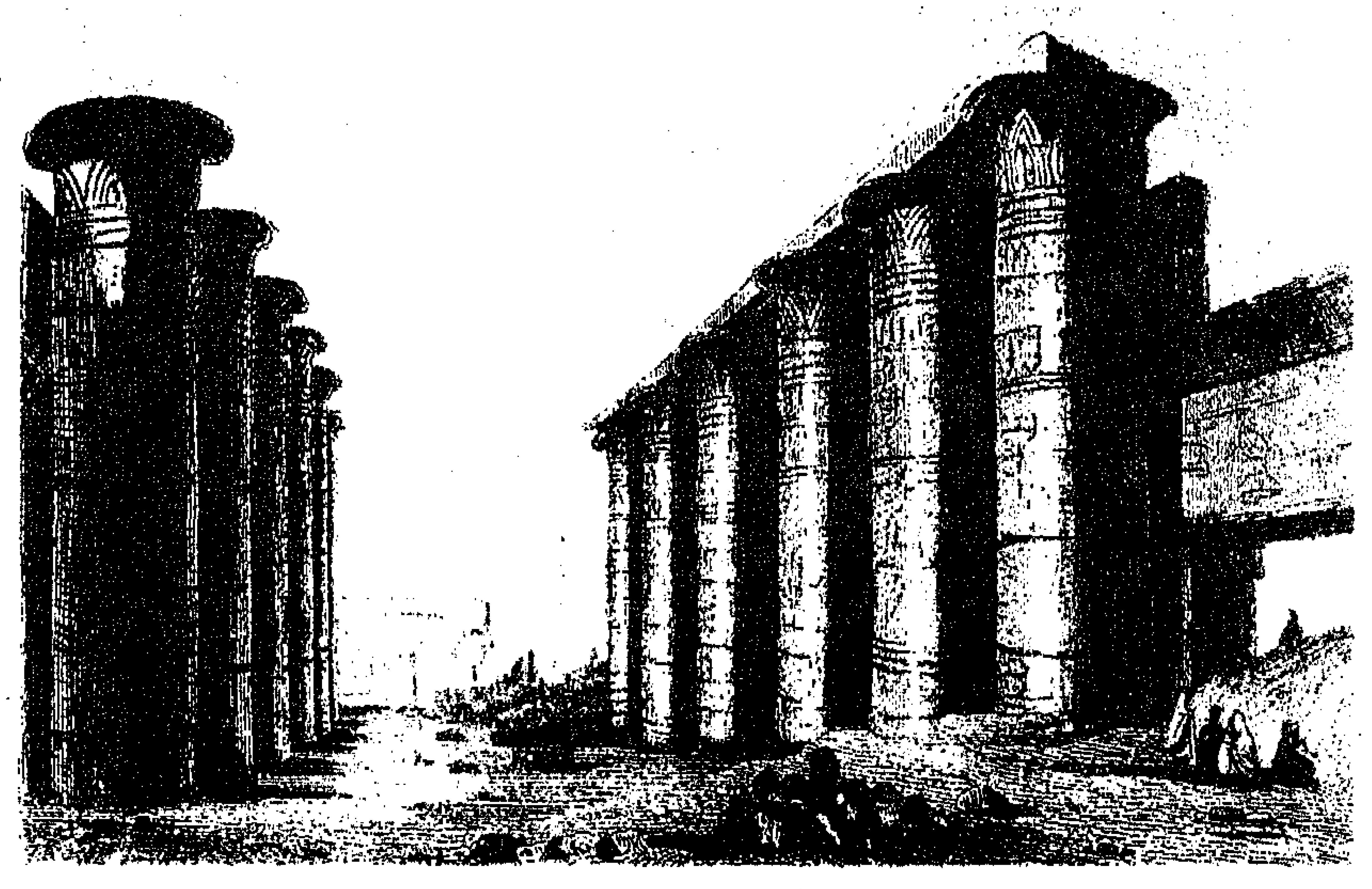
وقد بقيت فى ذاكرة السكان المحليين رواية عمن يسمى "يريمى"، الذى كان يعيش فى العصر الرومانى، الذى قيل إنه يتمتع بقدرات لإحياء الموتى. وقد كان مكتوبًا فى أحد المخطوطات القبطية أنه حتى قد أحيا فى إحدى المرات عدة مومياوات مصرية قديمة، التى يقال إنها روت له عن حياتها. ومن الممكن أن تكون مثل هذه المعلومة كانت أصل إحدى قصص الروائى الشهير"أ.ك.كونان دويل" عن المومياء التى عادت إلى الحياة، والتى تسببت فى رعب الإنجليز البائسين، الذين أصبحوا ضحية لتجارب العلماء.

كان أكثر ما اهتم به ف. أندريفسكى فى معبد دندرة الذى تم بناؤه للإلهة "حتحور"، هو سقف (بروناوس) ...Pronaos ذو الأعمدة التى على شكل هيكل قديم، فقد كانت مرسومة عليه الأبراج الفلكية، التى نقشت فى عصر الحضارة اليونانية الرومانية القديمة من تاريخ مصر القديمة. وفى أثناء رحلته كانت باريس قد أصبحت المالكة للسقف الذى تم قطعه من كنيسة هذا المعبد، وعليه الأبراج الفلكية التى كتب عنها أ.س.نوروف. وقد أثارت هذه النقوش ضجة كبيرة فى المحيط العلمى، وكانت هذه الرسوم بالنسبة لأنصار "فولتير"، بصفة خاصة، دليلا استخدموه ضد كتاب العهد القديم.

وصلت السفينة إلى الأقصر فى الليل، كانت تصل إليهم فى هدوء الليل أصوات حزينة أحيانًا، وأحيانًا أصوات صفارات مرحة، صفارات مصنوعة من البوص. ولسبب ما تذكر أندريفسكى أغنية روسية.

"ولكن لم يكن هذا حزنًا روسيًا ولا جرأة روسية. هنا انعكست العظمة البدائية لقبائل الرحالة، وضجيج حوافر قطيع الخيل، وغزوات جبابرة الزمن الذى كان، وانتقال القوم من منطقة لأخرى، والشوق إلى الوطن البدائى المجهول".

انتفض قلب الرحالة عند رؤيته لمعبد الكرنك (شكل ٤٠). وقد بقيت عنده حالة الاضطراب الداخلى أيضًا وهو يزور آثار مصر القديمة على الضفة الغربية للنيل فى "القرنة"، وفى مدينة أبو، وفى وادى الملوك، والدير البحرى.و قد ظهر معبد المرأة الفرعون "حتشبسوت" ، الشهير حاليًا، أمام الرحالة فى تلك الحالة التى كان عليها عندما هجره القساوسة الأقباط الذين سكنوه فى القرون الوسطى، حيث أسسوا ديرًا على أطلال المعبد العظيم. وقد أطلقوا على الدير المشيد فيه جرس، والذى رآه أندريفسكى، اسم "الدير البحرى" أى دير البحارة، بسبب رسوم المراكب، التى حفظت على الزخارف المصرية القديمة.



(شكل ٤٠) الكرنك

(من "رحلة فى مصر والنوبة" أ.س.نوروف)

أعيد إحياء إحدى أهم صفحات تاريخ علم المصريات بريشة ف.أندريفسكى. فقد قام بوصف الاكتشاف المثير، المتعلق بإعادة دفن مومياوات فراعنة الدولة الحديثة فى طيبة الغربية، وفى الدير البحرى، فى قديم الزمان. كان مدير المتحف المصرى فى ذلك الوقت هو عالم المصريات الفرنسى "أوجست مارييت". كان هو العدو الأول لتجار الآثار القديمة، حيث إنه حاول استئصال هذه "الممارسات" التى استمرت لعدة قرون، وهى هدم ونهب آثار العصر الفرعونى. لقد كان الضرر الذى أوقعوه بعلم المصريات بالغًا. كانت رغبتهم فى الحصول على أرباح بطرق غير قانونية كبيرة لدرجة أنهم لم يتورعوا عن عمل أى شىء. فقد دخلوا المقابر الملكية، وأخرجوا أحشاءها تمامًا. وبالإضافة إلى ذلك فإن أحفاد صيادى الآثار هؤلاء كانوا يهشمون التماثيل إلى عدة قطع، ويمزقون البرديات إلى أجزاء ليضاعفوا من دخلهم عند بيعها للأجانب، وهو ما كان يمنعه القانون.

وقد حدث موقف ساعد على وقف أو على الأقل على تقليل هذه الجريمة إلى حد ما. لقد بدأت قطع أثرية مصرية قديمة تظهر فى السوق السوداء، تحمل أسماء الفراعنة نفسها. وقد لاحظ ذلك عالم الآثار الفرنسى "جاستون ماسبيرو" الذى شغل منصب مدير المتحف المصرى بعد موت "مارييت". فهو لم يستمر فقط فى اتباع سياسة من سبقه نحو ناهبى الآثار، ولكنه حاول أن يجعلها أكثر شدة. كان يمكن لأحد الأحداث أن يكون موضوعًا رائعًا لقصة بوليسية مثيرة تحمل هذا النوع من الأسرار، وبها فصول غامضة وكشوفات غير متوقعة. لقد سافر ماسبيرو فجأة فى عام ١٨٨١إلى صعيد مصر، بعد أن وصلته معلومات تفيد بأن أحد العرب عنده علم بمكان وجود مقبرة أحد الفراعنة، وأنه تجلب من هذا المكان بالذات الآثار الفنية المصرية القديمة والنصوص الهيروغليفية، التى امتلأت بها سوق الآثار

السوداء، والتى تخرج بدون أية سيطرة من تحت أنف العلماء إلى خـارج حـدود مصر. حاول العربى المذكور، الذى كان يسكن قرية "عبد القرنة" أن يختبئ، ولكن تم القبض عليه، ووضعت السلاسل فى يديـه، ثم أرسل إلى الـسجن. بالـمناسبة لم يعط التحقيق الذى تم معه فى حضور ماسبيرو أية نتيجة لأن الأدلة ضد المـتهم لم تكن كافية، كما لم تعط عملية تفتيش منزله، هى أيضًا، أية نتيجة، على الـرغم من أنه كان مقامًا فوق أطلال مقبرة قديمة. قضى المقبوض عليـه شـهرين فـى السجن، ولكنه التزم الصمت بعناد، فتم اطلاق سراحه فى النهاية. ولكن هذه القصة لم تنته عند هذا الحد، بل على العكس هنا كانت بداية نصفها الثانى.

كان هناك خلاف لسبب ما بين العربى الذى تم اطلاق سراحه وأخيه، لـذلك وشى الأخير به عند السلطات المحلية التى كانت تشك فيه. فقد أبلـغ أنـه تجـرى حفريات فى السر فى المقابر القديمة وأنه كان يتم بيع ما يعثر عليه بها للـسائحين الأجانب. وقد وصلت هذه المعلومات فورًا إلى الوالى نفسه، فقرر الأخيـر فـورًا إرسال مدير المتحف المصرى مرة أخرى إلى طيبة الغربية. ولكن فى ذلك الوقت كان ماسبيرو موجودا فى باريس، لذلك سافر إلى هناك بدلاً منه عالم المـصريات الألمانى، الذى اشتهر فيما بعد "إميل بروجش"، وبدأ يعمل بسرعة.

تبين أن المخبأ السرى موجود عند سفح صخرة يغمرها النيل، فى مـنخفض عميق بالخليج، جنوب الدير البحرى. كان مدخله مقفولاً بقطعة من الحجر الجيرى، ومغطى بالقمامة المخلوطة بالطمى، بحيث لا يمكن أن يلاحظه أى عـابر سـبيل. كان هذا المدخل يؤدى إلى بئر، وكان النزول فيها صعبًا وخطرًا. يوجد فـى قـاع البئر دهليز محفور فى الصخر يبلغ طوله ٧٤ مترًا، ولايزيد عرضه عن ٥ أمتار، وينتهى بحجرة مليئة بالتوابيت وبعدد لانهائى من قطع الآثـار القديمـة. أمـضى أ.بورجش فى هذه الحجرة حوالى ساعتين، وهو يقوم بعملية جـرد قـصيرة لهـذا

الاكتشاف. قرأ أسماء الفراعنة، الذين وجدوا مكانًا جديدًا لـدفنهم بفـضل غيـرة الكهنة، الذين قاموا بعمل هذا المخبأ السرى الذى لا يقدر بثمن. صدم العالم من كل ما رآه! كان لا يصدق عينيه، بل إنه اعتقد أنه أصبح ضحية لعملية شعوذة لا يمكن تصورها، واستمر هذا الإحساس ينتابه لفترة طويلة بعد ذلك.

وقد بلغت هذه القصة الذروة السيكولوجية أثناء شحن التوابيت الملكيـة بمـا فيها من مومياوات على سفينة لنقلها إلى متحف القاهرة. ولكن ما حدث أثناء هـذا العمل غير العادى كان يمكن أن يصدم حتى أى أوروبى. و كان رد فعل العـرب الموسوسين، الذين تعرضوا لحمل نفسى على سطح السفينة، كـان كبيـرًا. كانـت الأعمال تؤدى فى يوم صحو تحت أشعة الشمس السخية. وفجأة حدثت حركة مـا فى أحد التوابيت الذى ليس له غطاء، فقد انثنت يد إحدى المومياوات عاريـة مـن اللفائف وارتفعت بشكل مخيف... بدأت حالة من الذعر، شـوه الرعـب الوجـوه، وألقى العرب الذين كانوا يحملون هذا التابوت، حملهم وهربوا. استطاع أ.بـروجش بعد جهد ضخم أن يقنعهم بأن يستكملوا عملهم، موضحًا أن لا شىء غيـر عـادى حدث.

كانت لحظة إبحار السفينة بهذه الشحنة الفريدة تاريخية بحق، كانـت كأنهـا مسحت آلاف السنوات التى تفصل بين القديم والحديث فى ذلك الوقت. كأن مشاهد من الماضى السحيق قد انبثقت من العقل الباطن للسكان المحليين. سمعت أصـوات أنين وبكاء. وأصدرت نساء شعرها مسدل أصواتًا من حلـوقهن، وأطلقـن عـواءً مماثلاً للندابات فى قديم الزمان، فملأن الهواء القائظ بشجن ينم عن هموم الدنيا.

بدأ هذا المشهد الاحتفالى أمام النظرة الخيالية لـ ف.أندريفـسكى، وأغرقـه خياله فى حالة كأنه شاهد على الأزمنة التى ولت ومشارك فيها، عندما كانت عملية دفن الفرعون تصبح حدثًا عاما للشعب كله، وكتـب: "إنَّ أسـاطير هـذا الـشعب

وأخلاقه وعقيدته وحبه للزراعة ونظرته للفن ومعمــاره وعامــة حياتــه تــصبح مفهومة، عندما تتنفس هواء مصر النقى، وعندما تعوم على نهرها المثمر وتــذوب تحت أشعة شمشها الحارقة".

هز الرحالة مدى الانسجام بين المعمار القديم والمنظر الطبيعى العــام. كــان ف. أندريفسكى يفترض أن الأحجام الضخمة للمبانى المتوافقة مع المنظر الطبيعى، والخطوط الأفقية للأسقف، تمنح إحساسًا بالهدوء وبالخلود. وقــد انعكــست علــى معمار الآثار نظرة الشعب للعالم وإيمانه بعدم فناء الروح وبالخلود. انتقــل بفكــره إلى روسيا، إلى موسكو، لسبب ما على الرغم منه، وهو يشاهد منظــر الطبيعــة والحياة فى مصر؛ فقد ذكر منظر المدينة العربية الصغيرة "إسنا" الرائع بأســواقها الصاخبة والزاهية المؤلف بشوارع موسكو فى أيام الاحتفالات. وهــو نفــسه قــد استغرب لحالته، فقد كان أمامه عالم مختلف تمامًا، كان الشىء الوحيد المشترك هو الاحساس بالزحام فى الأعياد، وزخرفة شوارع المدينة.

أنهى فــ. أندريفسكى رحلته فى مصر عند جنادل النيــل بزيارتــه للآثــار القديمة بأسوان وبجزيرة فيلة، أما مذكرات رحلته فقد أنهاها فى طريق العودة، وقد أنهاها بنشيد للعقل:

"تتوه الأفكار فى المكان غير المحدود وفى الزمان، والعقــل مــستعد لكــى يستسلم للاعتراف بضآلته، إذا كان كل شىء حوله لم يتحدث عــن جبروتــه، وإذا كان لا يعرف أنه أقوى من كل قوى المادة. وليتم الاقتناع بذلك يكفى النظــر إلــى تلك الأرض، إلى مصر، وتذكر أنه قد تم إحياء هذا البلد الذى فنى من قديم الــزمن بواسطة قوة عقل الانسان".

هذا هو نشيد العلم، علم المصريات.

فى شتاء عامى (١٨٨٨-١٨٨٩) حضر إلى مصر عالم المصريات الروسى المجيد "فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف". ويرتبط باسمه إنشاء قسم علم المصريات بجامعة القاهرة، كما أنه أسس مجموعة الآثار المصرية القديمة فى المتحف الذى أصبح الآن متحف الفنون الجميلة باسم أ.س.بوشكين. كان يعمل فى متحف الإرميناج فى مرحلة شبابه، وكان يكتب وصفًا لمجموعة الآثار المصرية القديمة.

كان برنامج الرحلة مكتظا تمامًا، حيث كان عالم المصريات الشهير قد وضع أمامه هدفًا يتلخص فى مشاهدة كل مصر حتى حدودها الجنوبية. وقد زار ساحل البحر الأحمر، وقام ببعض الحفريات الصغيرة فى منطقة الدلتا، فى تل المسخوطة، حيث عثر على لوحة ملك الفرس "داريا". وقد جاء فى النص المكتوب عليها ذكر لبعثة بحرية شكلت لدراسة جنوب شرق ساحل البحر المتوسط، ولكن كان الهدف الرئيسى من رحلة جولينيشيف تزويد مجموعة الآثار المصرية القديمة التى فى المتاحف الروسية بقطع جديدة، وتنمية علم المصريات الروسى.

حصل فى الإسكندرية على قطع من برديات الكتابات المسمارية، ولوحة من مقبرة ترجع إلى العصر اليونانى الرومانى، قادمة من منطقة "الرمل" ضاحية الإسكندرية، على الساحل شرق المدينة. كانت هذه المنطقة قد تم شراؤها لبناء حى جديد بالإسكندرية يخصص للفرنسيين. وقد قام هنا الأثرى الهاوى الشهير الثرى "جنريخ شليمان" بعمل حفريات للبحث عن مقبرة "الإسكندر المقدونى"، قبل عام من سفر جولينيشيف إليها.

بناءً على طلب البروفيسور "ن.كونداكوف"، بحث "ف.س.جولينيشيف" في الإسكندرية عن أطلال الكنيسة الكهف المسيحية القديمة، التى كان يعتقد فى وجود لوحات جدارية بها. وطبقا للمعلومات التى حصل عليها العلماء الروس، فإنها كانت موجودة بالقرب من عمود "بومبى" الشهير. ولكن قبل وصوله إلى مصر كان قد تحول مكان الكنيسة إلى محجر؛ وقد اختفى أثر آخر من على وجه الأرض المصرية.

في متحف بولاق لفتت الآثار التى عثر عليها حديثًا نظرجولينيشيف. كانت عبارة عن بورتريهات الفيوم، وقد نجح فى شراء سبعة منها، وهى موجودة الآن فى موسكو فى متحف الفنون الجميلة. كما نجح العالم فى شراء لوحتين مسماريتين من أرشيف العمارنة الضخم، المحتوى على مراسلات أمنحتب الرابع مع حكام بلاد الشرق الأخرى. وقبل ذلك بقليل كان علماء المصريات الإنجليز قد قاموا باكتشافات مثيرة فى مصر الوسطى فى منطقة تل العمارنة، حيث أسس الفرعون المصلح أمنحتب الرابع، زوج الملكة الجميلة نفرتيتى، عاصمته الجديدة أخيتاتون.

أمضى ف.س.جولينيشيف شهرًا كاملاً فى القاهرة، عمل فيه فى المتحف وشاهد الآثار التى فى ضواحيها. وبعد ذلك استأجر دهبية واتجه إلى أعلى النيل. بالطبع حاول العالم أن يذهب إلى تل العمارنة، وأن يشاهد الحفريات الجديدة فى مواقعها، وأن ينمى مجموعة اللوح المسمارية التى ما زالت صغيرة. ولكنه لم يستطع أن يعرف أى شىء عن مكان وجودها من السكان المحليين، فقد كانوا مذعورين تمامًا من أفعال أحد العاملين فى متحف بولاق اسمه الأستاذ "جريبو"،الذى أعلن حربًا حقيقية على تجار الآثار. وعلى الرغم من ذلك فقد استمر إخراج الآثار خارج حدود مصر. كان "جريبو" يفهم تمامًا أن مجرد المنع لا يستطيع أن يقضى على النشاط السرى لمن يسمون تجار عاديات، ولكنهم ببساطة

صيادو آثار قديمة. لذلك كان جريبو يشتريها من العرب بأسعار مرتفعة. كانت إدارة متحف بولاق تعانى من قلة الموارد المالية المقدمة من الحكومة المصرية، لذلك كانت تبيع للسائحين ما يعثر عليه من أشياء توجد منها كميات كبيرة، مثل التمائم والعقود، بأسعار ليست منخفضة. وقد كان يتم إثبات قانونية النشاط التجارى للمتحف بمنح السائحين مستندات خاصة للسماح بخروجها خارج الحدود. كان تجار الآثار لايزالون كما فى السابق، ينافسون المتحف، وهم يحاولون المحافظة على أعمالهم. وقد فرضت السلطات الرسمية بهذا الخصوص ضريبة لقيام السائحين بزيارة مصر العليا.

كما سمحت أيضا إدارة المتحف للسكان المحليين الفلاحين الزراعيين بالقيام بالحفريات بشروط خاصة متفق عليها، فقد كان المتحف يشترى منهم الآثار التى يعثرون عليها. وقد تم بهذه الطريقة جمع مجموعة كبيرة من الأقمشة التى تعود للعصور اليونانية والرومانية والقبطية، عثر عليها بمدينة الموتى بأخميم، الواقعة بالقرب من أحد الأديرة القبطية.

سافر "فلاديمير جيورجيفيتش بوك" فى رحلة إلى مصر مع ف.س.جولينيشيف، واشترى لمتحف الإرميتاج عدة نماذج من الأقمشة القبطية، التى عثر عليها. أما جولينيشيف فقد اشترى القطعة التى أصبحت الآن مشهورة تمامًا، والتى عليها رسم للنيل مماثل لصورة الإنسان. كما أنه قد حصل على عدة قطع من الأقمشة القبطية قبل ذلك فى سفرته السابقة إلى مصر، فى عامى (١٨٨٤-١٨٨٥).

كانت الأقصر المركز التجارى الرئيسى لتجارة الآثار المصرية القديمة. وما زال أحفاد هؤلاء العرب والفلاحين الآن أيضًا يحاولون دس قطع أثرية مزيفة بوضوح للسائحين غير الفاهمين لها، وهو ما كان يحدث بالطبع، مع من سبقهم من قديم الزمان. هنا حصل جولينيشيف على عدة قطع أثرية. كان من بينها رأس رمح

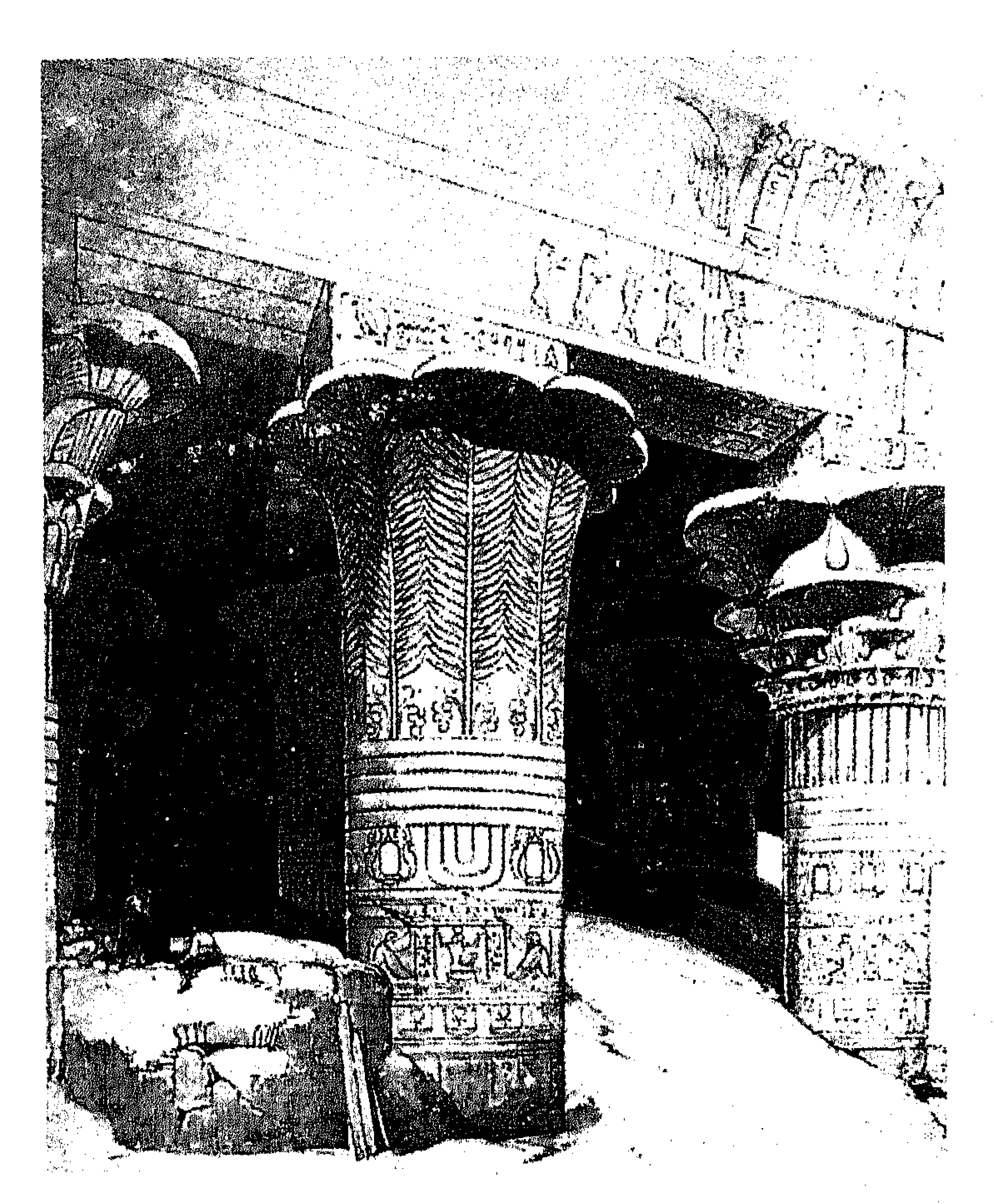
عليه كتابات هيروغليفية، تبين أن فرعون الأسرة الثامنة عشرة أحمس أحضره إلى الشرق رمزًا للانتصار هناك. كما اشترى قوسًا من الخشب السوداني الأسود وسهمين. وقد مثلت بردية الرياضيات الهيراطيقية، ولوحة مقبرة ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة، ومجموعة كاملة من لوحات المقابرمن منطقة "قاو"، قيمة خاصة. وقد أحضر "فلاديمير سيميونوفيتش" من هذه الرحلة إلى موسكو ملعقة تجميل مصنوعة من العاج، أصبحت الآن مشهورة. وهى تمثل فتاة عائمة، ممسكة بيدها سفطًا على هيئة زهرة لوتس، وهى محفوظة حاليًا فى المتحف الحكومى للفنون الجميلة المسمى بوشكين.

يذكر عالم المصريات من بين الآثار المصرية القديمة التى حصل عليها فى مصر، خيش من قبرحاكم طيبة من عصر الفرعون "طهاركا" وكثير مما يحفظ فى متاحف روسيا اليوم، كما قام ف.س.جولينيشيف أثناء رحلته فى مصر بالتقاط مجموعة كبيرة من الصور للرسومات البارزة فى مجمع معبد الأقصر.

ثم توجه إلى إدفو (شكل ٤١)، وهو يستعد لبعثة فى الصحراء العربية. كان الهدف العلمى لهذه الرحلة مرتبطًا بمشاهدة أطلال ميناء "بيرينيكا" القديم، والمعبد الصغير لسيتى الأول الذى يبعد عن النيل بيوم سير. كما كان العالم ينوى تحديد مكان المحطات القديمة من "كفت" (قبطس فى القدم وقفط حاليًا) إلى الميناء القديمة بيرينيكا على ساحل البحر الأحمر بمصر.

استأجر جولينيشيف عددًا من الجمال لنقل الماء ومعدات البعثة، ودخل إلى الصحراء العربية فى ١ يناير ١٨٨٩. وقد وصلت القافلة إلى البحر الأحمر بعد ١٠ أيام سارتها على طريق قديم، حيث استقبلتها بقايا آبار قديمة، وأطلال محطات للرحالة، ومعبد سيتى الأول. وقد دون ف.س.جولينيشيف كل المعلومات عن ذلك فى يومياته، حيث بين التغير فى اتجاه طريق القافلة، وكتب أسماء الجبال والوديان، على أمل أنه سوف يتم عمل خريطة تفصيلية للطريق بناءً على مذكراته.

ثم اتجه من الصحراء إلى أسوان، حيث كانت تنتظره دهبية، ركبها إلى جزيرة فيلة، حيث وجد أرشيفًا قديمًا لفترة فتح الملوك الفرس لمصر وحكمها. ومن هناك أخذ قطعتين من الأستراكون Ostrakon (قطع منقوشة من الخزف أو من الحجر الجيرى) عليها نصوص آرامية.



(شكل ٤١) معبد حورس فى إدفو

(من لوحة د.روبرتس، عام ١٨٣٩)

كان ف.س.جولينيشيف معاصرًا لعلماء المصريات والآثار العظام أ.نافيل، وف.بيترى، وكذلك ج. داررسى الذى كان شابا فى ذلك الوقت. أدت بعض ملاحظات العالم الروسى إلى عدم السماح باستكمال نشاط هؤلاء العلماء وغيرهم من ذوى الأسماء العالمية الذين أصبحوا الآن من العلماء الكلاسيكيين، فعلى سبيل المثال، نعرف ف.بيترى، الذى أحس بحرية معينة للعمل فى مصر بفضل رعاية من جهة عليا، فكثيرًا ما كان يبدأ فى عمل حفريات بدون الحصول على تصريح خاص بذلك من السلطات.

قدح قهوة على قمة الهرم

ننتقل من الرحلة العلمية فى مصر إلى تلك الرحلة الخاصة المهمة، التى قام بها "ى.إ.كارتافتسوف"، فى هذا الوقت نفسه، وهو موظف بإحدى الوزارات الموسكوفية، بصحبة اثنين من أصدقائه والعاملين معه. وقد كتب فى يوميات رحلته الكثير من الملحوظات الشيقة، التى انعكست بها أحاسيس هذا الروسى، الذى قرر أن يمضى أجازته فى الأرض المقدسة بمصر وفلسطين. وقد لقى هذا الكتاب تقديرا عاليًا من قبل جمهور قراء ذلك الوقت، وأعيدت طباعته مرتين(٧٩).

هكذا وصلت هذه الفرقة الصغيرة إلى الإسكندرية على السفينة التجارية "كورنيلوف". وقد أثارت الحدائق والمنتزهات العامة الكثير من آهات الدهشة، خاصة تلك المملوكة للوالى "محمد على" وأحد اليونانيين "أنتونيادس"، الذى استضاف الرحالة. كان مواطنًا روسيًا، اغتنى فى أثناء حملة القرم (حرب قامت فى أعوام (١٩٠٣-١٩٠٥) بين روسيا من جانب وفرنسا وإنجلترا وتركيا من

(٧٩) Е.Э.Картавцов. По Египту и Палестну. Путевые заметки.- СПб.,1896

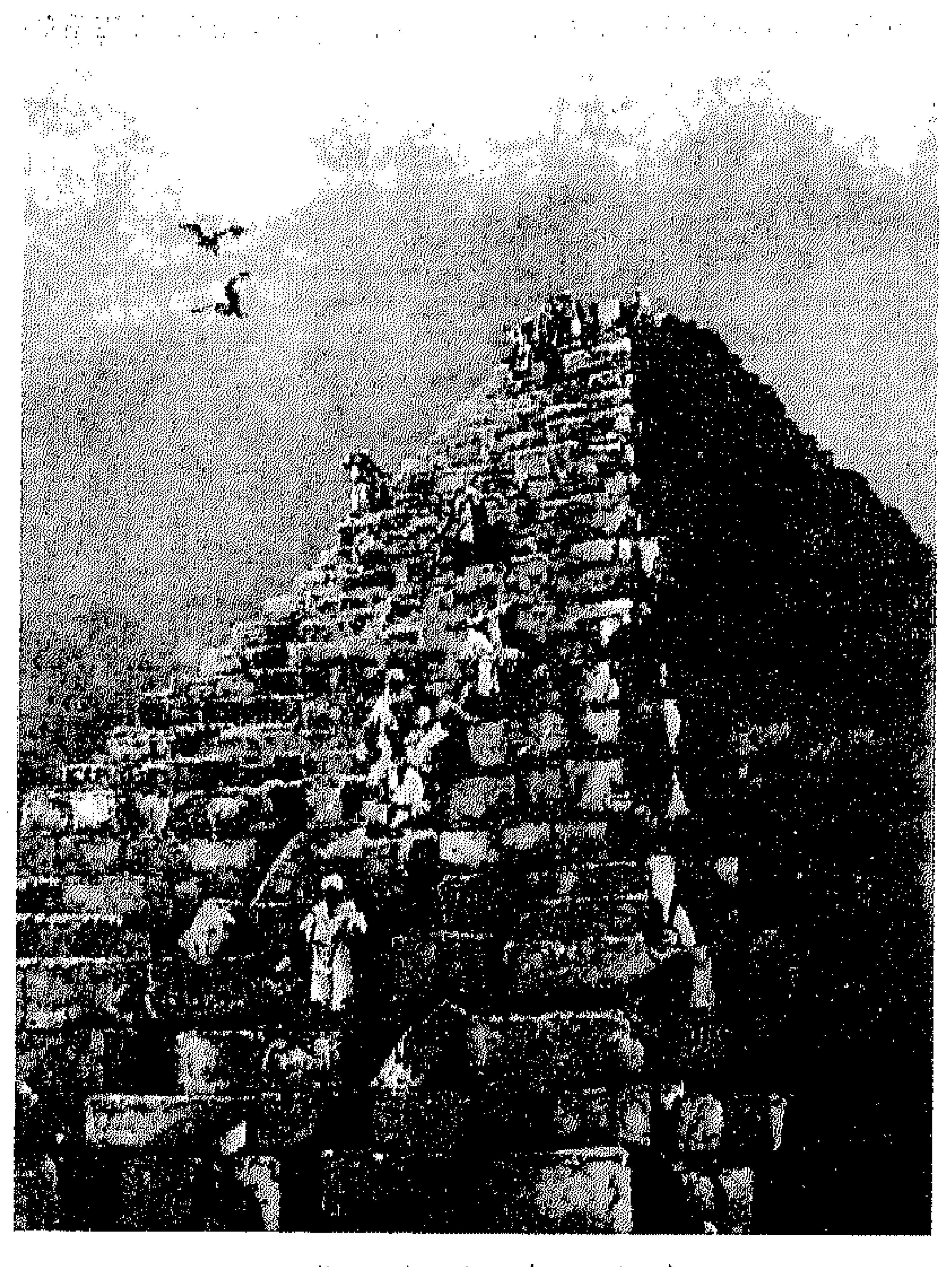
جانب آخر، ثم انتقل إلى الإسكندرية. ولكن تعكرت الانطباعات الجيدة عن المدينة بسبب سترات العسكريين الإنجليز الرسمية الحمراء، الذين كانوا يظهرون فى كل مكان، فقد كانوا يتعاملون بعدوانية شديدة سواء مع الوافدين أو مع السكان المحليين. ولم يذكر "ى.إ.كارتافتسوف" فى مذكراته أيًا من الآثار القديمة الموجودة بالاسكندرية سوى "عمود بومبى".

لم يبق الرحالة طويلاً فى الإسكندرية، فتوجهت فرقته إلى القاهرة بالقطار. كتب رفيقه كارتافتسوف: السفر إلى القاهرة باهظ الثمن، ولكنهم ينقلونك إلى هناك "ليس على طريقتنا" فى ثلاث ساعات ونصف فقط. لم يثر المنظر خارج النافذة دهشة الرحالة، فلا يمكن أن تدهش الأنهار العريضة الروسى "أما القرى الروسية فهى تظهر أغنى بكثير من القرى المحلية هنا". وما يخص الجزء الأوروبى من القاهرة، فلا توجد فى روسيا أية مدينة مماثلة له من حيث الجمال والنظافة والبهاء. هكذا بدأ ى.إ.كارتافتسوف تعارفه مع مصر وهو يقارن بين مزايا البلدين.

هنا الترجمان الجيد نادر، على الرغم من كثرة الأدلاء الذين يعرضون خدماتهم على السائحين عند زيارتهم للأهرام، وعددهم أكثر من اللازم. من يستطيع منهم الصمود فى المنافسة هو من يحصل على توصيات ذات قيمة. وقد اختار ى.إ.كارتافتسوف ترجمانًا قال له إنه صاحب البروفيسور "براخوف" والكونت "ج.أ.تولستوى" أثناء رحلاتهم إلى مصر العليا والنوبة فى عام ١٨٧٧، حتى إنه قدم له خطابات مكتوبة بالروسية.

قد يكون من النادر أن يوجد رحالة يكون غير مبال عند لقاءه مع الأهرام، وأيضًا يشعر بخيبة أمل. كان رحالتنا من بين هذه الفئة الاستثنائية، ولكن سيتضح قريبًا ما الذى تسبب فى مزاجه هذا، الذى عتم على إحدى العجائب السبع فى الدنيا. لقد ضايقه الجو السيئ، وإحساسه بتوعك، وهياج العرب الذين يساعد خمسة أفراد منهم كل من يتسلق هرم خوفو (شكل ٤٢). ولكن بمجرد أن صعد إلى ثلث

ارتفاعه، اختفى مزاجه الكئيب، فقد أعطى كارتافتسوف هــؤلاء العمالقــة الــذين أذهلوه، حق قدرهم من التقييم. وعلى الرغم من ذلك فقد عبر عــن هــذا الشــعور بتحفظ: "لقد استبحنا أحجار هذا الحارس الجبار للصحراء" بلد الموت، بينما الجانب الآخر من النيل هو جانب الحياة. عامة لم تثر اهتمامه آثار مصر القديمة، بل إنــه حتى فضل لعب "البوكر" على زيارة متحف بولاق، على الرغم من أنه انتقد نفســه على ذلك: هل كان الأمر يستحق عامة السفر من موسكو، للقيام بذلك؟ ولكن ذلــك استمر فقط إلى أن رأى الرحالة الآثار الفنية المصرية التــى تعــود إلــى عصــر الفراعنة. لقد أذهلته التماثيل التى فى ممفيس لدرجة أنه وصف كل مقابلاته التاليــة مع الآثار القديمة لهذا البلد تقريبًا بإعجاب.



(شكل ٤٢) تسلق الهرم الكبير

تذكر كارتافتسوف أثناء زيارته للسيرابيوم في سقارة، قصة دعوة "الخديو إسماعيل" لإمبراطورة فرنسا لتناول الإفطار معه.... في أحد توابيت عجل أبيس المقدس. لقد شاهده على ضوء صواريخ الاحتفالات البنغالية. وقد أثارت الكتابات التي في هرم فرعون الأسرة الخامسة "أوناس" اهتمام الرحالة الروسي، فكان قد تم اكتشاف مدخله قبل رحلته بوقت قصير. فلم يشعر بنفسه فقط في مصر، ولكن في مصر الفراعنة.

في أحد شوارع القاهرة، زعقت على رحالتنا إحدى السيدات باللغة الروسية. كانت ترتدي ملابس سوداء مثل السيدات المحليات، تبين أنها من روسيا، وأنها قد حضرت إلى مصر منذ عدة سنوات وعملت بائعة بأحد المحلات، ثم فتحت محلا خاصا بها. ثم كان لقاء آخر مع أحد بلدياته، كان طالبًا شابا أرسله الأطباء إلى الجنوب للعلاج. عامة كان عدد الروس المقيمين في مصر قليلا، كانوا معروفين حتى في الأقصر، وكان يطلق عليهم اسم "موسكوف". وكان الأقباط، الذين يشكلون الجزء الأكبر من الفلاحين سكان ريف مصر العليا، يشعرون بالتقارب مع الروس الأرثوذكسيين، بالإضافة إلى أنهم كانوا يعتبرون موسكو حاميتهم ضد الأتراك والإنجليز. كان هذا، على الأقل، ما ذكرلكارتافتسوف في الأقصر.

هنا في طيبة، وقع حادث غريب للدبلوماسي، ففي أثناء استحمامه في النيل، فقد خاتم زواجه، وحزن جدا من ذلك، وبسرعة علم ذلك كل من في الأقصر، كما يبدو. ذهب الرحالة إلى القنصلية طلبًا للمساعدة في العثور عليه، فخرج في اليوم التالي ٥٠ شخصا للبحث عن الخاتم الثمين المفقود. كان البحث عن الخاتم في رمال الشاطئ مثل البحث عن إبرة في كوم من القش، وبالرغم من ذلك عمل الفلاحون المتحمسون طوال اليوم، يقلبون كل سنتيمتر. ولكن سعد الجميع عندما عثر على الخاتم، وعلى أية حال فقد حمل الفلاحون على أيديهم سعيد الحظ الذي

وجده، يؤرجحونه. أما ما حدث للروسى فماذا حدث له؟ لقد أحس بوخز الضمير لأن القوم تعبوا طوال اليوم، وهم يؤدون عملاً ليس يجدى منه أى أمل تقريبًا، فحصل كل فلاح على ثروة كاملة، حصل كل منهم على عشرين فرنكًا. أما من وجد الخاتم، فقد حصل على ١٠٠ فرنك إضافى.عند انتهائهم من هذه القصة، استمر رحالتنا فى التعرف على طيبة القديمة. عندما تطلع ى.إ.كارتافتسوف مليًّا إلى النقوش البارزة، هاجم بشدة كل من يعتبر الديانة المصرية بدائية، منتقدًا لهم، فى الوقت الذى تستحق فيه الاهتمام البالغ. فقد كان يعتبرها ذات مستوى أخلاقى ومعنوى عال. بالنسبة له كان أوزوريس يمثل تقريبًا السيد المسيح المصرى، الذى جاء إلى الأرض وتعرض لضربات الشر، والذى مات ليعم الخير والعدل العالم وينقذ كل الناس.

تحول اهتمام الدبلوماسى من تلك الأشياء المادية العالية إلى أعمال دنيوية تمامًا، عندما قابل منظرًا محرمًا تقريبًا على المصريين. كان ذلك هو رقصة "العالمة"، التى كانت تمارس فى بيت سرى، ذهب إليه رحالتنا تحت ستار الليل. دخل مع رفاقه إلى هذا البيت، فشاهدوا به رجلاً، وسيدة عجوز، وامرأتين، خلعوا ملابسهم تماما وأخذوا يرقصون بمصاحبة دف العجوز القديم وصفارة ينفخ فيها رجل. بدا له المنظر مقززًا، فطلبوا إنهاءه، فى الوقت نفسه الذى دخلت فيه فتاة، وبدأت فى الرقص بدون أن تخلع ملابسها، فلم يتمكنوا من ألا يشاهدوها هى ورقصها الفنى. أذهل الأجانب أنه بينما كان الجسد يتحرك بمرونة فقد بقيت الرأس وماتحت الركبتين بدون أية حركة. وصل هذا الأداء إلى درجة الغرابة مما أرضى الموسكوفيين، ولكنهم على أية حال لاموا أنفسهم على استهتارهم.

أما فى الصباح فقد شاهدوا تماثيل ممنون العملاقة، والرمسيوم، وفى المساء اشتروا عدة قطع من أحد محلات الآثار العديدة، ومنها تمثال صغير لأوزوريس. كانوا يريدون أن يلحقوا بعيد القيامة فى أورشليم، لذلك فقد اعتذروا عن رحلة إلى

أسوان وعادوا على مركب بخارية إلى القاهرة، حيث زاروا شجرة التين التي استراحت تحتها الأسرة المقدسة في "هليوبوليس". كتب ى.إ.كارتافتسوف: "لم تعد هى الشجرة نفسها، ولكنها كانت من الجذر نفسه، فعمرها ٢٠٠-٣٠٠ سنة ويحيطها سياج من شبك". كانت الحديقة التى توجد فيها شجرة التين هذه ملكًا لروسيا حتى الستينات من القرن التاسع عشر، وبدقة أكبر كانت مملوكة لأحد الدبلوماسيين الذين عاشوا فى ذلك الوقت فى مصر. أما باقى القصة فهى كما يلى: عندما غادر هذا الدبلوماسى القاهرة، أهدى الحديقة بشجرة التين "للخديو إسماعيل"، الذى قام باهدائها بدوره للإمبراطورة الفرنسية "أوجينى" أثناء زيارتها لمصر. ثم بعد ذلك، انتقل قساوسة كاثوليكيون لسكن المنزل، وأصبحوا مالكين للشجرة المقدسة.

لقد روى هذه القصة أيضا رحالة آخر حضر إلى مصر، اسمه "س.فونفيزين"، الذى جاء إليها بصحبة زوجته للاستراحة والاستشفاء فى حلوان. وقد ألف كتابًا عن هذه الرحلة عنوانه "سبعة شهور فى مصر وفلسطين"(٨٠). هذا الكتاب عمل به سردًا جيدًا للوقائع، يتناول آثار وتاريخ مصر القديمة، اعتمادًا على المطبوعات المتخصصة. تغير الزمان، وأصبح من الضرورى الحصول على تذكرة للصعود إلى قمة هرم خوفو، حيث كان يعطى للسواح قدح قهوة. لم يعد هناك مكان للتوقيعات على اللوحة، لذلك تمت إزالة القديمة منها وتم وضع أخرى فوقها.

---

(٨٠) СПб.,1910

الاستقبال الرسمى التاريخى للكاتب "د.ل.موردوفتسوف"

عند "صاحب العظمة الهرمية"

فى هذه السنوات نفسها تقريبًا، التى زار فيها ى.إ.كارتافتسوف، زار مصر روسى لا يقل عنه كآبة، هو الكاتب وعالم التاريخ السلافى "دانيل لوكيتش موردوفتسوف". فى الحقيقة كان لمزاجه الكئيب سبب محدد، فقد ترك مدينة بيتربورج لالتقاط أنفاسه قليلاً، ولكى ينسى فى الغربة أحداث اضطهاد اليهود الفظيعة التى دارت فى الوطن (أحداث دارت فى أعوام ١٩٠٥-١٩٠٧ فى خلال الثورة الروسية الأولى، عندما هبت جماهير الشعب ضد اليهود بسبب سيطرتهم على التجارة وعلى بيع الخمور). وها هو يسافر إلى حيث "تلهف اليهود على ما يسمى العمل المصرى". توجه مؤلف "رحلة إلى الأهرام"[٨١] إلى مصر على السفينة "تاجيموف" التى دخلت إلى محطة الميناء الصاخبة.

ها هى الإسكندرية فى الليل. جاء الدليل من الصباح وأظهر شجاعته فى فنه، فقد كادت مركب محلية أن تتلامس مع جانب السفينة الروسية القادمة فى الاتجاه المقابل. وصلت المركب إلى المرسى، وصعد مندوبو الفنادق المختلفة الشطار محدثين جلبة وضوضاء يتخاطفون أمتعة الركاب، ولكن السيد موردوفتسوف قرر أن يبقى فى صحبة قبطان السفينة.

تغير شكل المدينة، فقد أحاطت مداخن المصانع بعمود بومبى من جانب البحر. ويقف تمثال القيصر الروسى "بطرس الأول" بين البحارة العظام فى إحدى الحدائق الرائعة. درس د. ل.موردوفتسوف الآثار ممسكًا فى يده كتبًا قديمة، على

---

(٨١) СПб ,1905, изд.2

الرغم من أن الكثير مما رآه مؤلفوها كان قد محى من على وجه الأرض. كانت هذه الكتب هى "رحلة الأمير المقدس رادزيفيل سيروتكى إلى الأرض المقدسة فى أعوام (١٥٨٢-١٥٨٤)"[٨٢]، و"الجوال" لرئيس الدير "دانيل". وقد تضمن مؤلف سيروتكى وصفًا لأطلال قصر "كليوباترة"، الذى تبقت منه مسلة، نقلت فيما بعد إلى إنجلترا. وقد زارت د. ل.موردوفتسوف أفكار عن مشاركته الشخصية فى التاريخ، وعن "خرونوس" القاسى (إله الزمن فى الأساطير اليونانية). ولكن على الرغم من ذلك من لم يكن من الغريب بالنسبة له أن تكون عنده رغبة داخلية أن يكون فى دوامة الأحداث التى مرت منذ زمن بعيد، وأن ينغمس فى المجارى المائية الشاهدة على التاريخ، فى أى من أنهار الفولجا أو الدون أو النيل أو البحر الأسود، لكى "يرضى نزوته التاريخية" بهذه الطريقة، كما يلاحظ موردوفتسوف نفسه بسخرية ويسخر من صراحته وعاطفيته: "لقد غمرته الرعونة التاريخية".

عامة كثيرًا ما كانت تأتيه مثل هذه الأفكار. جاءته مرة أخرى أفكار عن فناء العالم، أثناء مشاهدته لمتحف القاهرة، كما أنه أحس بالشجن، وشعر بالأسف على عدم عودة ما كان:

"دائما ماتثير فى داخلى بقايا الآثار التاريخية والذكريات التاريخية أحاسيس مرة، وحزينة...لماذا تفنى؟... لماذا كل شىء يفنى ويموت؟ لماذا يحدث كل ذلك؟!"

ما هذا إذا لم يكن السؤال الأبدى للمثقفين الروس عن معنى الحياة، قد يكون هذا مشاركة للتاريخ فى معاناته. ليس المهم أى تاريخ، تاريخنا أم تاريخ شعب آخر، وهل هناك معنى للوجود؟

"أنا لست أثريا، ولم أتعمد أبدًا دراسة تاريخ مصر، ولكن كل ما قرأته عنه، أو ما رأيته بعينى من بقايا الحضارة، كل هذا اعتبرته نوعًا من عودة التاريخ إلى الحياة".

---

(٨٢) СПб.,1879

ولكن ما هو شكل مصر الذى بقى عند د. ل.موردوفتسوف، حالمًا أن روحه تفتحت لحضارتها وتاريخها؟ شكل شعب عظيم، عظيم بسبب روحه الخلاقة بالذات وأبدية تاريخه. نعم يبدو أن معنى الوجود يتمثل فى الأبدية، وعدم فناء الروح على مدى الزمن والمسافة.

اقترب هذا الكاتب الروسى من الأهرام- العمالقة العظيمة - وهو وحيد تمامًا، خلاف الرحّالة الآخرين. فقد تملص بلطف من العرب اللحوحين الذين عرضوا أنفسهم أدلاء. ولكن ها هم أربعة- اثنان يمسكان بيديه، واثنان فى الخلف- يساعدون هذا الشخص المسن على تسلق حجر تلو الآخر. أما الخامس- طبيب- فكان يحمل دورقًا به ماء، لسبب غير واضح حتى الآن. فيما بعد، عندما أصبح فوق القمة المستوية لهرم خوفو، فهم موردوفتسوف سبب هذه "الشيلة"، وسبب وجود "الدكتور" نفسه؛ فقد أصبحت خدماته ببساطة ضرورية، مسح رجليه بعد الصعود، وأعطاه ماءً ليرتوى. وها هى القمة. لقد أدرت ظهرى، لم أكن أستطيع أن أشاهد كل هذا، لقد أثقل علىَّ وحزنت بشكل لا يمكن وصفه.

رفض تمامًا د. ل.موردوفتسوف أن يضع توقيعه على ما أطلق عليه "النصب التذكارى العظيم"، أى القمة المستوية للهرم. بدا له " أن تلطيخ ما هو مقدس باسم بائس، وربط شخصه الحقير بالخلود العالمى" شيء تجديفى؛ فالأهرام هى عبقرية القرون. لم يشعر الكاتب فقط بالشوق للماضى عند صعوده الهرم، ولكن انتابه إحساس بالاصطفاء، وبالفخر حيث لا يستطيع كل فان أن يرى كل ذلك وأن يحس به. لقد تحقق حلم شبابه، لقد تم إرضاء "شغفه بالأهرام"Pyramidomania. كان ذلك استقبالاً تاريخيا عند "صاحب العظمة الهرمية".

البحث عن أصول الحضارات القديمة

عالم التاريخ "م.إ.روستوفتسيف"

فى مذكرات عالم التاريخ الشهير وخبير الآثار والعالم بالحضارة اليونانية الشرقية القديمة "ميخائيل إيفانوفيتش روستوفتسيف" عرض فكرة عن ضرورة دراسة الحضارة "فى الموقع"، ضمنها فى كتابه "رحلة إلى مصر"[٨٣]. كانت الآثار اليونانية الرومانية وفن الإسكندرية أهم ما يعنيه بصفته خبيرًا. وعلى الرغم من ذلك فقد آمن تمامًا بأن كل شيء بدأ من مصر القديمة. لذلك فقد كتب م.إ. روستوفتسيف: إن الحضارة اليونانية الرومانية تمثل الأساس الذى نمت عليه الحضارة الإنسانية العامة والفن، خاصة الأوروبى. ولكن لا يمكن تصور الفن اليونانى الرومانى بدوره، بدون الفن المصرى، الذى أورث الحضارة الأوروبية اليونانية والرومانية القديمة، وبعد ذلك الفنون والأفكار التقليدية المسيحية.

كان أول ما فعله م.إ. روستوفتسيف فى الإسكندرية هو أنه ذهب إلى "السيرابيوم". وقد كتب متألمًا عن المقابر المنهوبة، وعن آثار مصر القديمة التى ضاعت بالنسبة للعلماء؛ فقد تم اكتشاف عدد قليل فقط منها فى زمنه، بطريقة منهجية، منها الجبانات التى ترجع إلى العصر البطلسى بالشاطبى والأنفوشى، بالقرب من الموقع المفترض لمنارة فاروس الشهيرة، وفى سوق الورديان، وسيدى جابر فى المناطق الساحلية، وكذلك المقابر التى ترجع للعصر اليونانى المسيحى فى كوم الشقافة.

وقد حدد العالم الروسى أن القاهرة بآثارها من الأزمنة القديمة تمثل صورة مصغرة لمصر. وقد ترك متحف الآثار القديمة أعظم انطباع لديه. كان المتحف قد

---

(٨٣) M.,1908

انتقل من بولاق منذ عام ١٨٨٩ إلى قصر الخديو إسماعيل فى الجيزة (حيث كان يوجد الحريم فى الماضى)، أى قبل قيامه برحلته. وقد أُنشئ فى عام ١٩٠٢ متحف جديد، شيده المهندس "دوريون" على الطراز اليونانى- الرومانى، فى حى فاخر بوسط القاهرة.

تصرف م.إ. روستوفتسيف مثل السائحين العاديين، فسافر فى مصر، وتوقف فى أكثر المواقع إثارة: الجيزة وسقارة وبنى حسن وطيبة، واستمر فى ذلك حتى وصل إلى أول جنادل فى الجنوب. وفى أخميم لفتت نظره الآثار اليونانية الرومانية والقبطية ومدينة الموتى بمقابرها المنقوشة. فقد اكتشف بعضها ونُهب بعضها الآخر منها؛ فقام بدراسة سفح الصخور، التى كان يعثر فيها دائما على آثار قديمة متنوعة، قطع من كفن مصنوع من الكتان وتوابيت خشبية ونقوش وعظام. وقد عكس أسلوب النقش ولع قدماء المصريين برسم الزهور، وهو ما تم توريثه للفن القبطى المسيحى، ثم بعد ذلك انتشر أكثر فى الفن المسيحى الشرقى.

" إذا كنا فى وضعنا هذا البائس نعيش بين ورق الحائط الشاحب والقبيح والمشوه، لذلك فنحن مدينون لمصر وحضارتها المتعلقة بالزهور المائية والحقلية الجميلة".

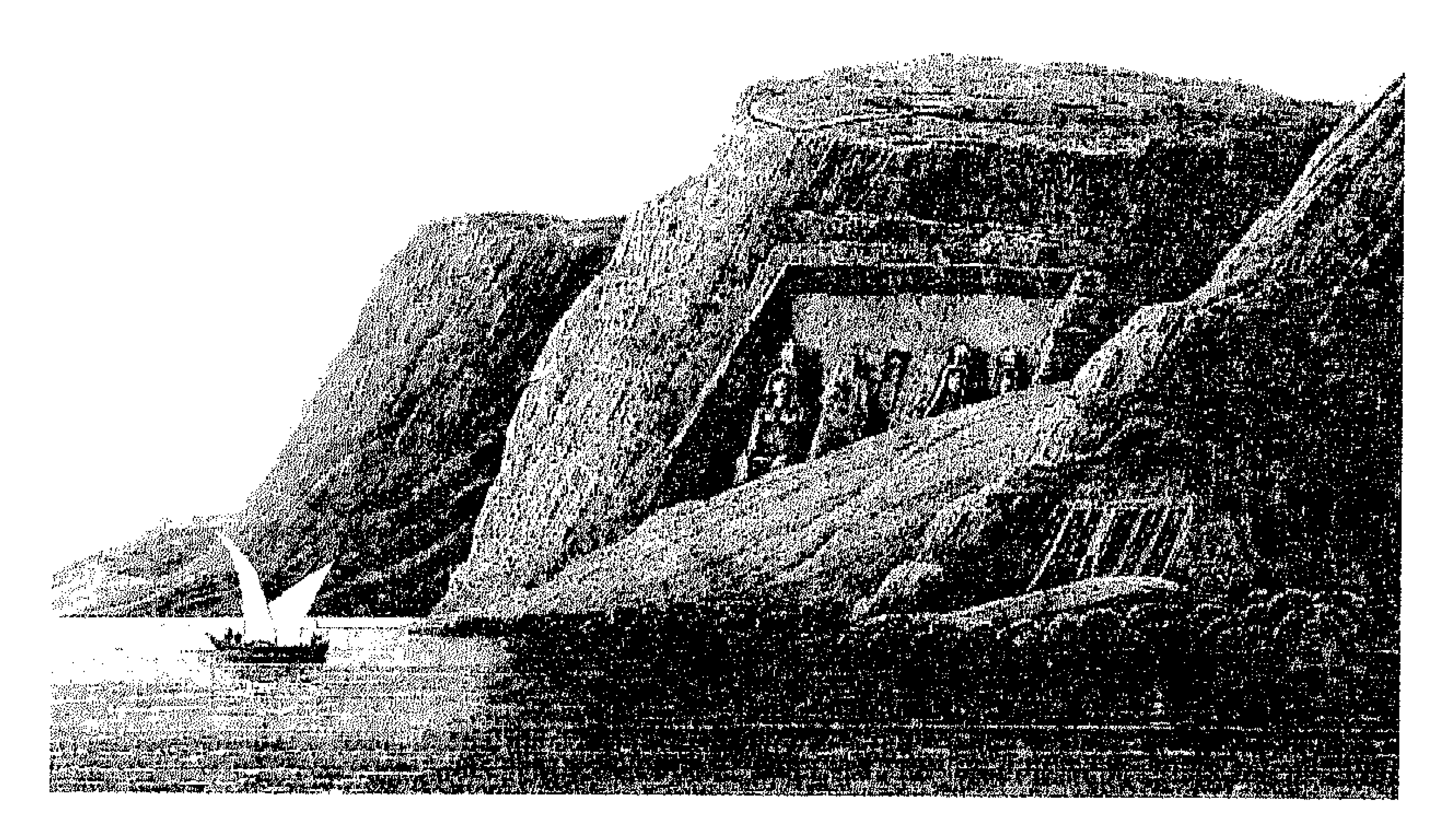
بقى فى القاهرة عشرة أيام، ثم اتجه إلى مصر العليا، إلى طيبة.

طبقًا لكلمات روستوفتسيف، فإن طيبة الشرقية عبارة عن ركن من الجنة يمتد على طول النيل، مباشرة أمام جبانة طيبة الملكية التى ترجع إلى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. ولكن الحياة الجديدة قد تداخلت فى البنية القديمة، فقد تم قطع الطريق الموصل من مجمعى معبدى الكرنك والأقصر. أما آثار المقابر، التى لم تتم عليها التجمعات السكنية الجديدة، فقد حفظت بحالة أحسن. ولاحظ العالم الروسى أن أعمال الترميم لم تكن فى كل الحالات جيدة، فقد اعتبر أن أعمال الترميم فى مجمع معبد حتشبسوت بالدير البحرى سيئة للغاية.

جذبت الآثار المعمارية الأحدث ، تلك التى ترجع إلى العصرين البطلسى والرومانى، انتباه م.إ. روستوفتسيف بصفة خاصة. تلك هى معابد كوم أمبو ودندرة وإدفو وإسنا وفيلة وكلابشة، حيث تربطها الأساليب الواعية القديمة، والمحافظة على نوع الذوق العام القديم للمعابد. ولكن كل ذلك كان متشبعًا بروح جديدة، وأذواق جديدة، وديانة جديدة، وعقيدة فنية جديدة. وسرد هذا مما يميز هذه الآثار بصفة عامة. يظهر ذلك بصفة خاصة فى الزخارف، وفى التحول من أسلوب المذهب الطبيعى لرسم الزهور المميز للفن المصرى، إلى أسلوب الزخرفة الخالص المميز للنهضة الهيلينية. كان م.إ. روستوفتسيف يعترف بأسلوب الاصطفائية الجديد، لذلك فقد سميت هذه المعابد بالحدائق، التى توجد بها زهور أعمدة، على هيئة زهور اللوتس والبردى التى تتناوب مع قاعات واسعة مظلمة وباردة بها أعمدة حاملة كثيرة متجاورة، وساحات وقدس الأقداس، تنيرها الشمس الساطعة بأشعتها التى تدخل إليها من خلال نافذة ضيقة. يجب مشاهدة كل ذلك "حتى تفهم هذا الأسلوب وتحس الرائحة المسكرة تمامًا لزهرة اللوتس الزرقاء المتفتحة والتى ترى الضوء لآخر مرة". فى الحقيقة كان هذا آخر ازدهار للحضارة المصرية، قبل أن تتغلغل الحضارة الإسلامية فى الأرض المصرية، توقف التقاليد الفنية القديمة. ولكن هذه التقاليد أكملت حياتها بقوة حيويتها، ومع تغيير شكلها الخارجى فى الفن والحضارة الأوروبية.

كان الأثرى الألمانى "كليرمونت جانيو" يقوم فى ذلك الوقت بعمل حفريات فى "فيلة"، وبذلك يكشف صفحة أخرى عن تاريخ فتح الفرس لمصر. سحرته رؤية معابد فيلة نصف الغارقة مع قمم أشجار النخيل وأعمدة الزهور،التى تظهر من تحت الماء، على خلفية الجبال الذهبية، التى تضغط على ضفتى النيل ذات قباب أجراس الأديرة القبطية، والقرى النوبية غريبة الشكل بواجهاتها المشغولة، التى تذكرنا بالقرى المصرية القديمة. كل ذلك كان كأنه من قصة سحرية، اختلطت فيها

كل الأزمنة. وينهى م.إ. روستوفتسيف استعراضه لما رآه، بوصف لمعبد رمسيس الثانى الصخرى فى "أبو سنبل" (شكل ٤٣). من بعيد، من ناحية النهر، يظهر كأنه يندمج مع الصخور. ولكن كلما اقتربنا منها تظهر معالم التماثيل الأربعة العملاقة المحيطة بمدخل المعبد، بشكل أوضح. أما فى الداخل على طول القاعة الرئيسية، فقد اصطفت عمالقة فى هدوء تام. أما فى العمق فيسود حكام الخلود والآلهة المصريين.



(شكل ٤٣) معبد أبو سمبل

(من "رحلة فى مصر والنوبة" أ.س.نوروف)

الشعراء والفلاسفة الروس
فى البحث عن الأنوثة الأبدية

حضر إلى مصر الكثير من مبدعى روسيا فى بداية القرن العشرين، فاغترفوا فيها الإلهام والأفكار والأشكال القديمة، وفكروا بأساليبهم بحثا عن الكمال

فى كل صور ظهوره. مثلت "إيزيس" الطراز الأول لفكرة "الأنوثة"، التى أصبحت موضوعًا مركزيا للفلسفة والأفكار الشعرية الروسية فى بداية القرن العشرين.

قليل ما هو معروف عن رحلة الفيلسوف والشاعر "فلاديمير سيرجيفيتش سولوفيوف" إلى مصر، ولكن من المؤكد أنها لعبت بشكل ما دورًا فى إبداعه وفى تكوين دراسته عن الأنوثة الكاملة، التى عرضها فى مقالته "معنى الحب". توصل الفيلسوف إلى استنتاج أن المعنى الحقيقى للحب، سواء كان أبويا، أو أخويا، أو حب صداقة، أو حب الأولاد، أو متبادلاً بين الجنسين، فهو يتلخص فى توحيد عالم الإنسان والكون مع الله:

"كان للرب شكل آخر (أى الكون.ت.ش) كما كانت له صورة الأنوثة الكاملة من قديم الزمان، ولكنه يرغب فى ألا تكون هذه الصورة له فقط، بل أن تتحقق وأن تتجسد لكل مخلوق على حدة، بحيث يكون قادرًا على أن يلتحم به. الأنوثة الكاملة هى نفسها تسعى لمثل هذا التحقق والتجسد، فهى لا تمثل فقط صورة غير مؤثرة فى الفكر"لله"، ولكنها مخلوق حى، يتمتع بكل قواه وتأثيره. وكل العملية الكونية والعملية التاريخية تتلخص فى تحقيقها وتجسيدها فى صورة عظيمة متعددة الأشكال والمستويات".

وبذلك، يكون معنى الحب، حتى الجنسى الذى لا تعترف به الكنيسة، يكون له أصل سماوى وليس أرضيا: "الموضوع السماوى لحبنا هو واحد فقط، دائمًا وللجميع واحد هو نفسه، الأنوثة الإلهية الخالدة"(٨٤).

أفكار هذا الكاتب الفلسفية قريبة من فكرة "الإنسانية المثالية"، التى أيدها بعض الفلاسفة الروس فى بداية القرن العشرين. وقد أعطى "ن.أ.بردايف" قيمة عالية لهذه الأفكار، التى تفوق وتطور تعاليم أفلاطون عن الأفكار، والتى ترتبط بها

(٨٤) Вл. СоловьевСм.Смыслюбви- Сочинения.Т.П.-М.,1988,-С.534.534

أكثر المعاناة صوفية وحميمية عند سولوفيوف. كأنه سمع نداءً داخليا، فقام بناءً عليه برحلة غامضة إلى مصر للقاء الأنوثة المكتملة. هكذا حدد بردايف هدف رحلة ف.سولوفيوف إلى مصر(٨٥).

رسم سولوفيوف الدافع المسيحى للأنوثة الأبدية، رسمه فلاديمير على شكل "السيدة مريم العذراء"، فقد عكس فيه صورة "أم الله"، والذى تولد فى شعره تحت تأثير دلتا النيل المثمرة دائمًا والإلهة إيزيس:

دلتا النيل

أيتها الحقول الذهبية

الزمردية، السوداء التربة...

أنت لست بخيلة، وفيرة العمل

أيتها الأرض الصامتة!

هذا حضن مثمر،

كم من القرون الناعسة،

استقبل، باستسلام تام

وكم من البذور، ومن الموتى.

ولكنك لم تأخذى كل شيء

فأنت تحضرين كل عام لأعلى:

---

(٨٥) Бердаев.Русская идея.- Вопросы философии.- 1990.-№2.- С.111след.

كل ما هو مرتبط بالموت القديم

ينتظر الربيع

فايزيس ذات التيجان الثلاثة

لن تحضر لهم هذا الربيع

إنما "عذراء البوابات المتعددة الألوان"

التى لم تلمس، والأبدية

أصبح نموذج الأنوثة الأبدية مركزيا فى الشعر الروسى فى بداية القرن العشرين- عصر الرمزية والتيارات الفكرية والفنية - الذى تكون تحت تأثير ف.سولوفيوف. ولكن لم يصبح نموذج "الأنوثة الأبدية الخالدة للمسيح" الذى خلقه هو الأهم، ففى الرمزية الروسية موضوع المسيحية الأرثوذكسية مغطى بشريط مزخرف بكل ما هو جميل على الأرض من صنع الله.

ويتضح ذلك فى أعمال كل من "أندريه بيلى" و"ألكسندر بلوك"- ألمع ممثلى هذا الاتجاه فى الأدب- فهو يتمثل فى نموذج "السيدة الجميلة"، طبقا للتعبير البليغ الذى صاغه "ن.أ.بيرلايف"، مما أثر على هؤلاء الشعراء، "لم يكن المؤثر هو ف.سولوفيوف النهارى بمؤلفاته المنطقية اللاهوتية والفلسفية، ولكن سولوفيوف الليلى الذى يظهر فى الأشعار وفى المقالات الصغيرة، وفى الأساطير التى تحكى عنه"(٨٦). يعبر "ف.سولوفيوف" عن ذلك كما يلى:

---

(٨٦) Бердаев.Русская идея.- Вопросы философии.- 1990.-№2.- С.140.след

بالنسبة لى هذا موضوع معقد

وهدف صعب جدا،

هو قَدُّ "زوليكا" التى تخصنى

لأنه دقيق بشكل بديع

بحيث إنه أنظف من اللاشىء،

ولكنه هو شىء ما:

الوجود مع العدم

يلتحمان هنا فى واحد

بسيط بالضرورة

أما العقل المهزوم

فهو يصمت من الخجل

من سلسلة حافظ

يمكن توضيح الفكر الذى طرحه ف.سولوفيوف فى هذه القصيدة الشعرية بواسطة شعره نفسه:

...كل ما نراه،

هو فقط وميض، فقط ظل

مما لا تراه العيون

عالم الرموز عالم يكون فيه ما هو روحى خلف ما هو مادى، والعدم خلف الوجود. تتراجع لهجة سولوفيوف الحميمة، ويتغير شكلها فى أدب الرمزية الروسى. فالسيدة الجميلة هى روسيا، وقد تم تحديد مصيرها فى بداية القرن العشرين. كان الكاتب قلقا على مستقبل البلد ولكن بشكل آخر، إذا رجعنا إلى إبداعه الشعرى، على الرغم من أن هذا الموضوع يحتل مكانًا مهما فى أعماله الفلسفية. وليس من المستبعد أن رحلة الشاعر والفيلسوف إلى الشرق، إلى مصر، قد لعبت عنده فعلاً دورًا مهما، حيث إنه يطرح سؤالاً:

آه يا روسيا! أنت فى التنبؤ العلوى
مشغولة بالتفكير فى فخرك،
أى شرق تريدين أن تكونى
شرقًا "كسركس" أم شرق المسيح؟

أعطت روسيا ردها بسرعة جدا، ولكن ف.سولوفيوف كان يؤمن بالالتحام المتناسق للإنسانية فى الأجيال، وفى تاريخها، وفى التوحد مع المسيح. لقد رأى الشاعر الكون والفضاء متحدين. لذلك فهو يحل، بل على وجه الدقة، يلغى مشكلة تواجه الشرق والغرب، التى توجد روسيًا أيضا فى إتحادها، حيث إنه يوجد فى توحدهم والتحامهم قوى عقل وحق الغرب مع دنيا الشرق:

والكلمة التنبؤية ليست كاذبة،
وهو قد صور عالم الشرق
وما كان غير ممكن،
فقد بشر ووعد به

أيضًا قليل ما هو معروف عن انطباعات الشاعر الروسى، والمترجم والرحالة والمستشرق "نيكولاى ستيبانوفيتش جوميليف"، عن مصر وحضارتها القديمة وشعبها. كما حدث مع ف.سولوفيوف، فهى قد انعكست فى أشعاره. يمكن فقط عن طريق رسائله تحديد أن ن.س.جوميليف قد زار كل مصر، ولكنه مستشرق عمل فى الحبشة، حيث جمع مجموعة إتنوجرافية غنية جدا. وقد خصص مؤلفه "يوميات إفريقية" لرحلته فى أبيسينيا (الحبشة)، وعرض فيه معلومات عن سفره إلى هناك (عام ١٩١٢)، ضمن بعثة "متحف الأنتروبولوجيا والإتنوجرافيا" فى مدينة سان بطرسبورج فى ذلك الوقت.

ربما تكون القصيدة الشعرية التى خصصها لمصر وتحمل اسما واحدا هو "مصر" أهم مؤلفاته الشعرية، وقد التحمت فيها فى كيان واحد كل من الطبيعة وصور الحياة اليومية وإحساس صانعى الحضارة المصرية بالحياة، والتى انعكست فى تقبلها من إنسان ينتمى إلى حضارة أخرى، تفصله عنها عدة قرون وآلاف من الكيلومترات:

"مثل صورة من كتاب قديم،

زودت أمسياتى بالمتعة،

هذه السهول الزمردية

ومراوح أشجار النخيل مترامية الأغصان.

وقنوات، قنوات، قنوات،

تجرى بسرعة على طول جدران طينية

فتروى صخور دمياط

برذاذ رغاوٍ وردية اللون.

وجمال مضحكة جدا،

لها جسم سمك ورءوس ثعابين،

كوحوش قديمة، ضخمة

من أعماق بحار باهرة الألوان.

هذا هو ما سوف ترى مصر عليه

فى ساعة إلهية ثلاث مرات، عندما

تجرعت الشمس يوم الإنسان

وتدخن المياه وهى تسحر

إلى الصنار البعيد المزهر

تحضر، كما لو كان قد جاء إليك

هنا حكيم، وأنت تتحدث مع الله

محبًا للطيور والنجوم إلى الأبد

هل تصخب المياه فى هدوء

بين طاحون عجلات ثقيلة؟

أو أبيس يجدل سلسلة بيضاء بلون الثلج

من الورد ملطخة بالدم ؟

هل هذه نظرة لطيفة من إيزيس؟

أو لألأة خافتة لضوء القمر الذى يستيقظ؟

لكن تذكر! تنمو الأهرام

أمامك، سوداء ومخيفة

إلى الدرجات الشائبة من الطحالب

تطير النسور لقضاء الليل

أما فى الأعماق فتستريح جثث

لا تعرف التحلل، فى الظلام

رقد أبو الهول لحراسة المقدسات

ينظر من أعلى مبتسمًا،

فى انتظار الزوار من الصحراء

الذين لا تعرفهم أنت.

ولكن يسيطر على مصر حاكم واحد،
فيضان النيل يتماوج
على قصور فيلة
وعلى حدائق ممفيس وطيبة.

هناك، عندما تنظر إلى النهر المقفر،
سوف تصيح: "هذا مجرد حلم!
فأنا لست مقيدًا فى عصرنا،
إذا كنت أرى من خلال الزمن الذى ليس له قاع،

منفذين للأوامر الملكية.
هل قام العبيد العراة أمامى،
بحمل الأحجار،
وشيدوا هذه الأعمدة؟

وهل بعد ذلك ولعدة قرون أمامى،
رقصت وغنت الكاهنات فى حلقات

غنوا مديحًا للتمساح،

وخروا على وجوههم أمام أبيس؟

وهى مشتاقة، إلى الحبيب أنطونيو،

وهى ترفع عينين كبيرتين،

عدت كليوباتره، المراكب الشراعية

التى على النيل".

كان ن.جوميليف، يعرف هذا الكون، وكأنه ينظر إلى مصر القديمة بعيون خاصة به. وذلك يمثل قدرة هذه الحضارة التى ولت من زمن بعيد، على الرؤية وعلى الفهم الروحى، دليل آخر على عدم فناء مصر القديمة، التى منحت دفعة قوية جدا للحضارات الأخرى، تلك التى تبعد عنها تمامًا من حيث الزمن، وكذلك المعاصر منها.

أصول العلاقات مع الحضارات الأخرى

من الشواطئ العطرة

حيث تنام غابات أشجار الغار

تذهب إلى البعد ذى الضباب الخفيف

سفينة

قلاعها منتفخة

اتصالات مصر بالحضارات الأخرى القديمة

لا يعرف التاريخ الثقافات والحضارات التى قد نمت فى عزلة تامة، ولكن يعرف ظاهرة غزو البلد المقهور للعالم كله بثقافتها؛ فهكذا أصبحت مصر التى شاخت، فريسة لملوك عائلة الأخمنيديين الفارسية، ثم للإسكندر المقدونى، وبعد ذلك للرومان الشجعان. تشابكت حكمة مصر القديمة الشائبة، وفنها الخالد فى بساط العديد من الثقافات المختلفة فى عالم الماضى إلى أبعد حدوده، فلم تؤخذ المصنوعات المختلفة فقط خارج حدودها من منتجات الحرفيين المهرة إلى تمائم الخزفية النفعية، بل أيضا الأفكار، والتصورات عن الآلهة، وصورة العالم، والفراعنة الأسطوريين. طبعًا كل ذلك قد جاء من الماضى، عندما كانت مصر مكتملة الازدهار فى قوتها وعظمتها، عندما سجل الملوك المصريون الأمجاد شهادات عن شجاعتهم الحربية وحكمتهم السياسية فى النقوش التى على المعابد والتماثيل، التى لم تشيد فقط فى مصر ولكن أيضًا على أراضى الأعداء الذين تم قهرهم.

انتشرت الثقافة المصرية بتوسع أيضا فى فترات المهادنة، عندما هدأت قوى الهدم لفترة، وأصبحت القوى الخلاقة فى مقدمة خشبة مسرح التاريخ، فلم يعد القادة العسكريون العظام أهم الشخصيات فى ذلك الوقت بل التجار والبائعون وأصحاب القوافل وقباطنة السفن التجارية والرحالة والمستوطنون والحجاج والعلماء والحرفيون والسفراء، الذين أرسلهم الملك إلى الخارج فى مهام دبلوماسية، وحملوا الهدايا القيمة والتأكيدات بالصداقة الأبدية للأصدقاء الأغنياء.

وهكذا بدفعة من إيقاع الحرب والسلام، تتابعت فترات تقارب الثقافات، وعلى الرغم من أن ذلك قد يبدو غير مألوف، فقد شاركت الحروب فى تلك العملية.

ولكن كانت توجد قوة أخرى مزدوجة السمة قبل تفاعلات التجارة والثقافة الدولية، تتمثل فى السلام، وعدم السلام وهى لا يمكن ألا تكون ظاهرة. هذا العالم الرحال، عالم الشعوب المتنقلة التى عاشت فى سهول "إفرازيا" والذين أطلق عليهم المؤلفون القدامى أسماء: السيميريون Cimmerians(*) والأسكوثيون Scythians(**)، والساكام ، والماساجيت، والسرماط(***) كانوا أول سكان إفرازيا(****) الذين جاءوا إلى حدود مصر.

صحيح أن هؤلاء الأحرار الذين نجحوا فى التغلب على "داريا الأول" وفى فتح "ميديا" (منطقة فى شمال غرب إيران)، وبسطوا سيطرتهم على كل آسيا بخشونة، ملوحين بالسلاح وبدون شعور بأى احترام تجاه أرض الآلهة القديمة؛ فقد جاءوا لفتحها والاستيلاء على ثرواتها. وإذا صدقنا المؤرخ اليونانى القديم "ديودور"(*****)، فقد تمكن الأسكوثيون من فرض سيطرتهم حتى النيل. ولكن باقى

(*) قبائل قديمة عاشت فى شمال البحر الأسود فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد واستولت على جزء كبير من آسيا، واختلطت بالسكان المحليين. (المترجم)

(**) قبائل قديمة عاشت بالقرب من البحر الأسود فى القرون من السابع إلى الثالث قبل الميلاد، منها الرحالة والرعاة والمزارعون. (المترجم)

(***) قبائل رحالة عاشت فى آسيا وحول البحر الأسود. (المترجم)

(****) آسيا وأوروبا. (المترجم)

(*****)(٩١-٢٠ق.م، عن "المكتبة التاريخية". (المترجم)

المؤرخين لا يؤكدون حدوث حملة الأسكوثيين المفترضة. وعلى العكس، فإن هيرودوت يؤكد خروج الملك المصرى "بسمتاح الأول "٦٦٣-٦١٠ق.م[*]، الذى قويت شكيمته فى المعركة مع السيميريين، لمواجهتهم. وقد تمكن بواسطة الهدايا والتوسل من إقناع الأغراب بالعودة من حيث أتوا. وقد حدث ذلك على الحدود بين مصر وسوريا، ويبدو أن الأسكوثيين قد أطاعوه فانسحبوا. وقد أيد "بومبى تروج" ما جاء به هيرودوت فى هذا الشأن.

ولكن فى الحقيقة، بناءً على روايته، فإن ما منع الأسكوثيين من دخول مصر لم يكن قدرة الفرعون المصرى على الإقناع، ولكن كان السبب فى ذلك عدم مقدرتهم على اجتياز مستنقعات دلتا النيل الوعرة. ولا توجد أية معلومات أخرى عن محاولات سكان سهول البحر الأسود دخول مصر. وعلى العكس فإن هيرودوت يروى عن الحملات العسكرية المصرية على "القوقاز" وسهول البحر الأسود الشمالية، فهو يقول إن الملك المصرى "سيزوستريس"، الذى يشبهه بعض علماء التاريخ المعاصرين برمسيس الثانى، وفى أحيان أخرى بسنوسرت الثالث، ومنهم من شبهه ببسمتاح الأول، اتجه من آسيا إلى أوروبا وقهر كلا من الأسكوثيين والفراكيتسيين[**]. وقد أمر الفرعون المصرى بتشييد الكثير من تماثيله على أراضى الأسكوثيين دلالة على انتصاره. ويحمل أحد هذه التماثيل الذى يزيد ارتفاعه عن مترين، يحمل بيده رمحًا وقوسًا، وكتبت على صدره عبارة تقول:"لقد فتحت هذه الأرض بذراعى". ويبدو أن هيرودوت قد رآه بنفسه. وقد افترض أبو التاريخ، الواثق من صحة ما كتبه من أحداث، أن أصول"الكولخيين" الذين عاشوا فى ذلك الوقت فى ما وراء القوقاز، عند مجرى نهر فاسيس الأسفل، ترجع إلى جيش سيزوستريس. وقد دلل هيرودوت على قناعته بذلك، بأنه الشعب الوحيد فى

(*) مؤسس الأسرة الحادية والعشرين. (المترجم)

(**) مجموعة من القبائل، سكنت شبه جزيرة البلقان وشمال البحر الأبيض المتوسط، ثم اختلطت مع القبائل الأخرى، وأصبحت أحد العناصر التى كونت فيما بعد البلغار والرومانيين. (المترجم)

هذه المنطقة الذى يقوم بعملية الختان، مثل المصريين، كما أنه يصنع القماش الكتانى بطريقة مشابهة.

فى الحقيقة إن العلم الحديث للتاريخ قد اقتنع أكثر من مرة بأن بعضًا مما يبدو من تأكيدات هيرودوت لأول وهلة خيالى، تم إثباته بالاكتشافات الأثرية، وأصبح أساسًا لوضع العلماء لنظريات مبتكرة. ولكن تبدو معلومات هيرودوت فيما يخص وصول المصريين إلى أراضى الفراكستيين والأسكوثيين، على الأرجح، من نوعية المعلومات الأسطورية؛. فلم يكن من سمات الحملات العسكرية للملوك المصريين الخروج لعمل فتوحات استعمارية، فهم لم يتوغلوا حتى فى القارة الآسيوية أبعد من سوريا، أو على أقصى افتراض، أبعد من شرق الفرات. فى الواقع، بدأت تظهر منتجات مصرية- فى الغالب آنية من التمائم- فى القوقاز وما بعده، فى زمن "السايكسيين" فى عهد فراعنة الأسرة الرابعة والعشرين (٧٤٠-٧١٢/٧١٤ ق.م.)، عندما تكونت هنا دولة"أورارطو". ولكن هذه صفحة أخرى فى تاريخ اتصالات مصر بالمناطق التى كانت ضمن "الاتحاد السوفيتى"، إلى زمن قريب.

المصنوعات المصرية شهود على الاتصالات بأوروبا وآسيا القديمة

الآلهة والتمائم المصرية فى المملكة البوسبورية(*)

كانت المصنوعات المصرية معروفة جيدًا فى الأراضى الواقعة تحت سيطرة الملوك الآشوريين، وعامة فى الشرق الأوسط، مما يؤكد الاتصالات التقليدية معها. فالأثريون يعثرون عليها فى المحلات التى أقام فيها فى الماضى

(*) بوسبور: الاسم اليونانى القديم للبوسفور. (المترجم)

الحكام الأشوريون فى القرنين الثامن والسابع ق.م، وفى مقرات إقـامتهم. كانـت تمثل جَعَارين كثيرة مكتوبًا عليها تمنيات طيبة بالحروف المصرية القديمة، وألواحًا صغيرة عليها رسوم أسد، وضفدعة، وحيوانات أخرى. وقد بقيت إلى يومنـا هـذا شواهد على اتصالات دبلوماسية لمصر القديمة مـع أشـور. ففـى أثنـاء القيـام بالحفريات الأثرية بقصر الملك "سيناح حريب"، عُثر فى مبنـى الأرشـيف الـذى احترق فى الماضى على صولجان عليه رسم فرعون الأسرة الخامسة والعـشرين "شباكا" وعلى رأسه تاج مصر السفلى. وقد وصلت المصنوعات المـصرية إلـى "أوراطو" وإلى سكان المناطق الزراعية فى ما وراء القوقاز، عن طريق أشور.

ومن بين الجَعَارين الكثيرة، المصنوعة فى مصر فى عهد الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين يلفت النظر، بصفة خاصة، اثنان مكتـوب عليهمـا اسم الفرعون "تحتمس الثالث". ولا يمكن أبدًا تفسير كيفية وصـول هـذه الأشـياء الأقدم كثيرًا التى تمثل جعرانين للملك الفرعونى، الذى عاش منذ ٧٠٠ سـنة قبـل ذلك الوقت، فقد وجدا عند سكان ما وراء القوقاز. وقـد أحـب سـكان "أسـيتيا" و"كاباردينو بالكارى" الجعارين المصرية بصفة خاصة. فقد صاحبت موتـاهم فـى رحلاتهم البعيدة فى بلد الأبدية. وقد عثر فى إحدى مقابر "مينجوشـاور"، الواقعـة على نهر "كورا" على تميمتين خزفيتين على هيئة رمز مقدس عند قدماء المصريين هو "عين حورس".

كان ذلك يمثل بداية تعرف قدماء سكان الحدود الجنوبية للاتحاد الـسوفيتى السابق مع حضارة مصر، عندما كانت الاتصالات فى ذلك الوقت عفويـة وغيـر مباشرة. وكانت الاتصالات المنتظمة لا تتم عن طريق ما وراء القوقاز، ولكن عبر البحر الأسود. كان ذلك لأنه فى القرن السابع ق.م.، كشـف اليونـانيون نـشاطهم واهتموا بإقامة علاقات تجارية، فاختاروا سواحل البحرين المتوسط والأسود، حيـث أسسوا مستعمراتهم على الطراز اليونانى طبقا لنظم مدنهم المعروفة باسم "بـوليس"

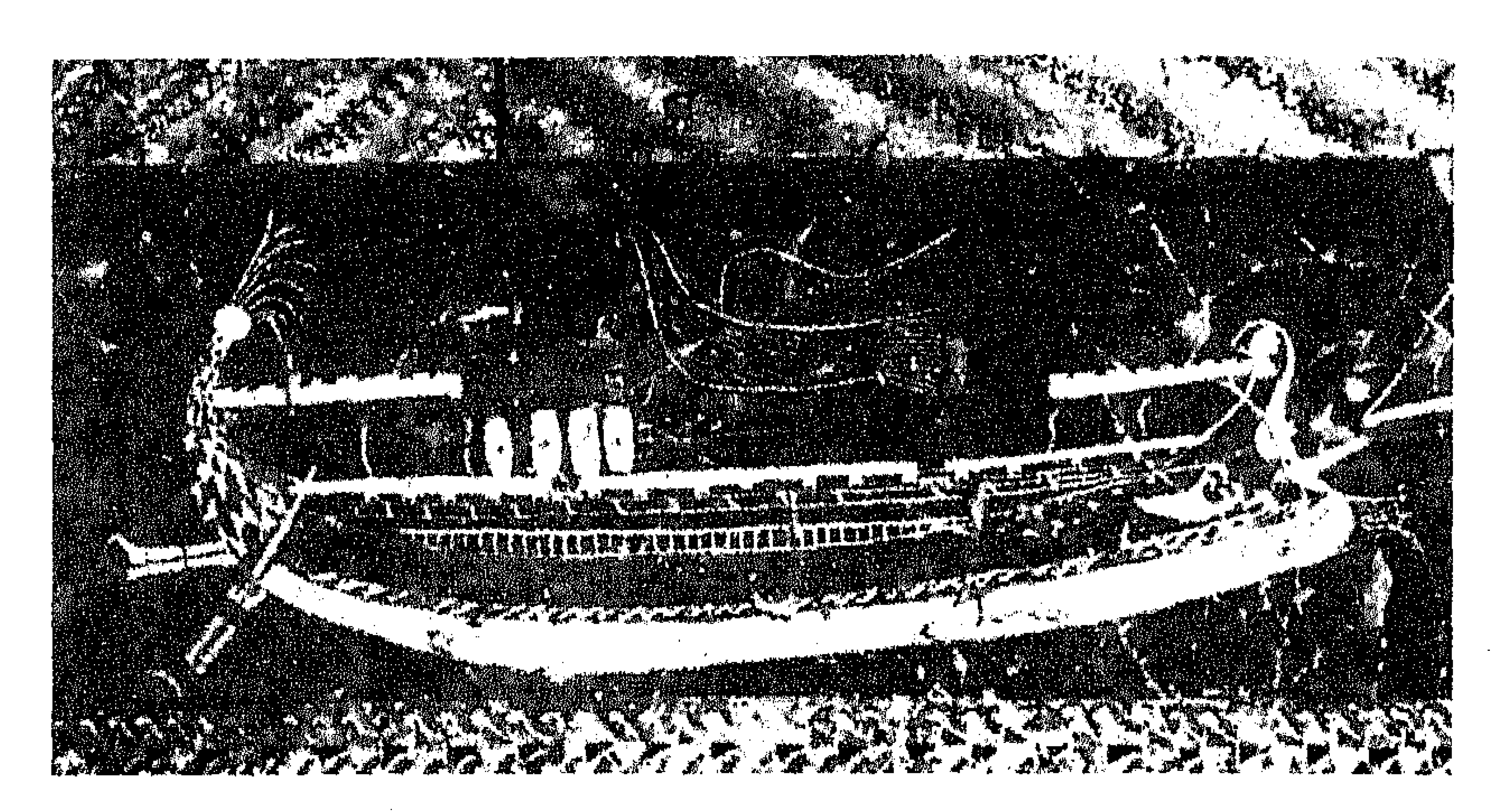
Polis، ونشطوا التجارة مع السكان المحليين فى هذه المناطق. وقد نجح "المليتيون" فى ذلك بصفة خاصة فى هذه البداية، حيث حصلوا على تصريح من بسمتاح الأول بأن يستقروا فى مصر، فأقاموا فى مدينة "نافكراتيس"، وأنشأوا العديد من المحطات التجارية فى شمال ساحل البحر الأسود على مدى القرون من السابع إلى الخامس ق.م، منها "أولفيا" فى بيريزان، وقد أقام "الهرقليون" مدينة "خرسونس" الشهيرة(*).

ركب المستوطنون اليونانيون السفن التجارية، ومارسوا التجارة بين المدن الساحلية. وبالإضافة إلى التجار جاءت أيضًا البعثات الدبلوماسية من مصر إلى الموانىء التى على سواحل البحر الأسود. وقد بقيت إحداها فى ذاكرة سكان "تيمفى" لزمن طويل، حيث رسموا واحدة من الثلاثين مركبًا المصرية الحاملة لاسم "إيزيس" (شكل ٤٤). كان ذلك بعد فترة، فى القرن الثالث ق.م. عندما كانت توجد دولة "البوسبور" الجبارة فى القرم، وكان يحكم مصر ملوك الأسرة المقدونية "اللاجيد"، فبدأت منتجات الثقافة المادية المصرية تنتشر فى سهول سواحل البحار وفى الشمال اعتبارا من القرنين الثامن والسابع إلى القرنين الرابع والثالث ق.م. وإذا كانت قد وصلت إلى العواصم أشياء فريدة، مثل المنتجات المعمارية، والتماثيل الأثرية، فقد أحضرت إلى المناطق البعيدة كميات كبيرة من التمائم ومن العقود المصنوعة من الخزف المصرى، وانتشرت بصفة خاصة بتوسع فى كل عالم ذلك الزمن، من أوروبا إلى الصين.

انتقل الكثير من الحرف من مصر القديمة واقتبستها الحضارات الأخرى، ولكن بعض الأساليب التكنولوجية المتعلقة بمختلف المواد بقيت أسرارًا خاصة بالصناع المصريين. كانت صناعة الخزف ومنتجاته من حلىٍّ وتمائم وتماثيل صغيرة وأوانٍ من بين هذه الحرف. كان المصريون يعرفون سر هذه المادة وصناعتها وتركيبتها منذ قديم الزمان، حتى قبل حكم الفراعنة بكثير، وتتضح فى

(*) أصبحت الآن من ضواحى مدينة سيفاستوبول. (المترجم)

النقوش البارزة بمقبرة "إيبى"، الذى عاش فى عهد الملك "بسامحتب الأول" طريقة معالجة الخزف وصناعة مختلف الحلى منه.

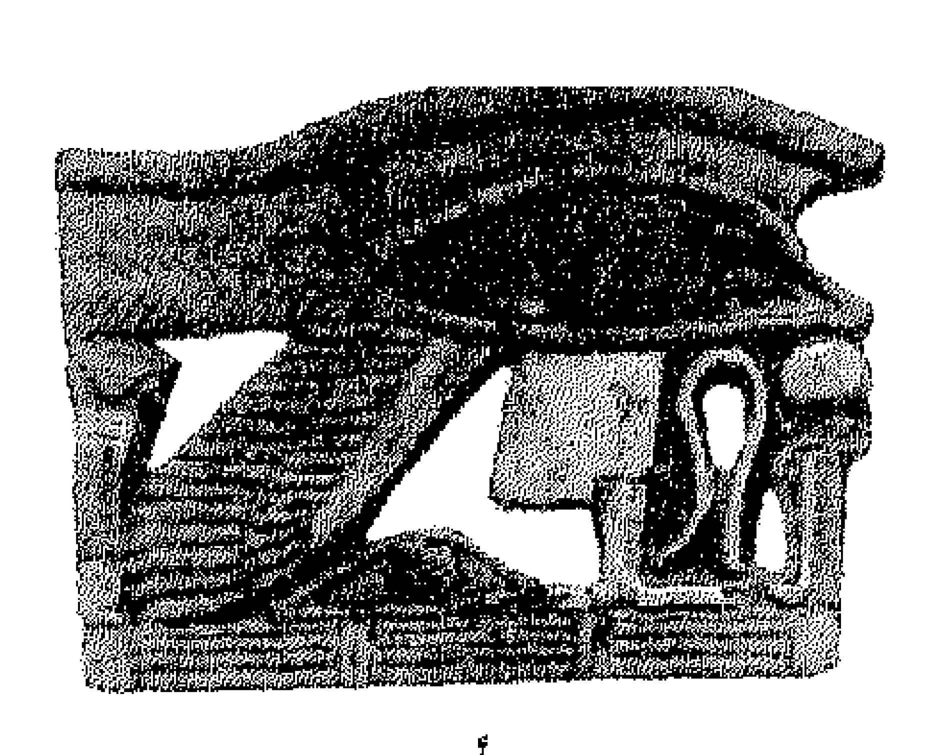


(**شكل ٤٤**) المركب "إيزيس" من نيمفى (عن ن.ل.جرانتش)

وقد تمكن علماء العصر الحديث من كشف سر الخزف المصرى، فقد أوضحت الدراسات أن المصنوعات الخزفية تتكون من قلب ومن قشرة. فكان القلب يصنع من الكوارتز الرفيع أو من الكريستال، أما طبقة الميناء الزرقاء أو السماوية أو الخضراء أو الصفراء أو الحمراء اللون، فلم تكن إلا زجاجًا معتمًا يتوقف لونه على المادة الخام المستخدمة لصناعته. وقد عثر على كميات كبيرة من القوالب الطينية أثناء إجراء حفريات الآثار القديمة، بينت طريقة صناعة الأوانى الخزفية.كانت قطع العجين ترص فى قوالب مختلفة الأشكال، ثم يتم حرقها بعد ذلك. وكان سطح المنتجات يغطى نتيجة لذلك بطبقة ميناء زاهية. وقد كانت المنتجات الصغيرة تصنع بهذه الطريقة، مثل العقود والدلايات. أما الأوانى فكانت تشكل يدويا، أو على قرص الفخار الدوار. وكانت الأشكال الكبيرة، مثل التماثيل، تكون من عدة قطع يتم لصقها فيما بعد باستخدام نفس هذه العجينة، ثم كان يتم حرقها. كان الشكل الخارجى للأشياء المصنوعة من الخزف المصرى يتميز بكفاءة عالية؛ لأن لونها كان يماثل مختلف الأحجار غير الشفافة: اللازورد والفيروز

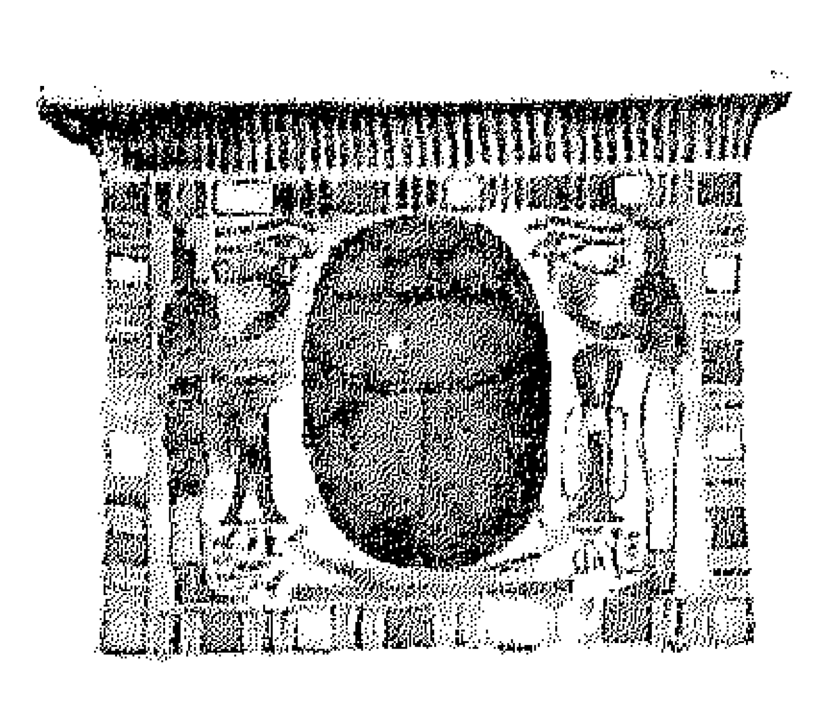
(الأزرق والأخضر) والعقيق الأبيض، وغيرها. وكان ذلـك كافيًـا جـدا لتنتـشر المصنوعات الخزفية. وقد أدت التكنولوجيا التى تم وضعها جيداً، ووفرة مخـزون المواد الأولية اللازمة لصناعتها إلى أنها أصبحت فى متناول أيـدى الكثيـر مـن طبقات المجتمع.

كانت التماثيل والمنمنمات التى تمثل الآلهة، وما خصص لها من حيوانـات ورموز دينية، ونماذج الأشياء المقدسة تصنع من الخزف المـصرى. وقـد ثقبـت الأجزاء التى استخدمت تمائم، لتعليقها.و قد انتشرت مثل هذه الأشياء خارج حدود مصر فى العصرين الرومانى والهيلينى، عندما كانت العلاقات الدولية أكثر نشاطًا. وقد كتب بلينى أن الكثيرين جدا كانوا يلبسون أشياء تمثل الآلهة. كانت هذه الأشياء أساسًا عبارة عن خواتم، وميداليونات، وتمائم عليها رسوم لأوزوريس، وإيـزيس، وهربوكرات، وكذلك أنوبيس، وبيس، وقزم آخر هو "بتاح- سـكر- أوزيـريس"، والإلهة سخمت، والإله القديم "شو"، وكذلك الكاهن والمهندس المعمارى "أمحتـب"، الذى تم تأليهه، والذى قام ببناء هرم الملك زوسر (الأسرة الثالثة) المدرج بسقارة. كما انتشرت بتوسع تماثيل الجعارين والحشرات المماثلـة، والـضفادع، والأسـود الراقدة على لوح صغير (شكل ٤٥). وقد كان هناك طلب كبير على التمائم، التـى لم تكن رمزيتها غريبة على الكثير من الشعوب والقبائل القديمة: قبضة اليد اليمنى أو اليسرى التى تدل على عدم الاستسلام، وعنقود عنب، وكـوز صنوبر،وعـضو الذكورة، وبطن قدم، وإناء أمفورا صغير، وكذلك الرموز المصرية القديمة. وقـد صنعت مختلف أشكال العقود من الخزف. ولكن كانت العقود الكبيـرة المـضلعة، المعروفة فى مصر منذ الأسر الأولى، أكثرها انتشارًا. هذه المنتجات المـصنوعة من الخزف المصرى هى التى يعثر عليها أكثر من غيرها، أثناء عمل الحفريـات الأثرية، فى مواقع الآثار المنتمية إلى مختلف الحضارات، والتى ترجع إلى فتـرة زمنية واسعة، إلى درجة كبيرة، تبدأ من القرن السابع ق.م. ولكـن الأكثـر منهـا يرجع إلى العصر اليونانى الرومانى، من القرن الثالث ق.م. إلى القرن الثالث م.



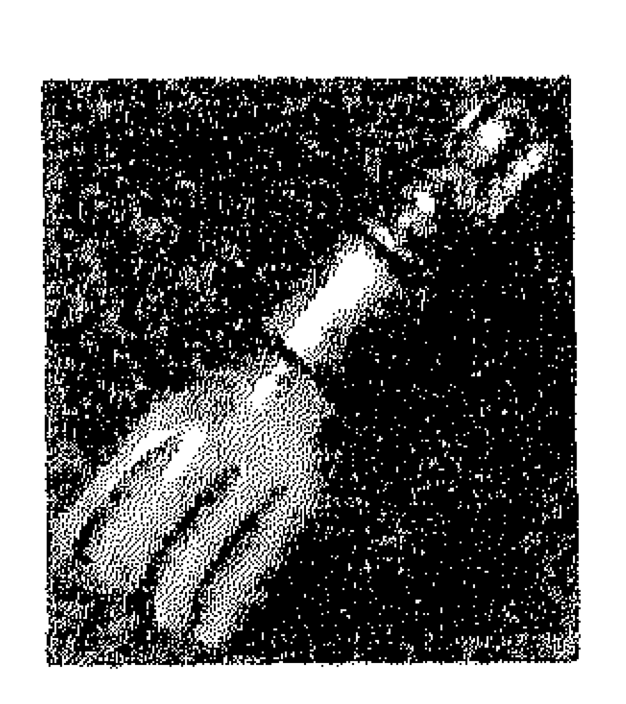
أ

عين حورس (الأسر من الثانية والعشرين إلى الخامسة والعشرين).



ب

بكتورال بجعران (الأسرة التاسعة عشرة).



ج

دلاية على شكل يد من الفيروز (عثر عليها فى "تولى تيب" بأفغانستان).



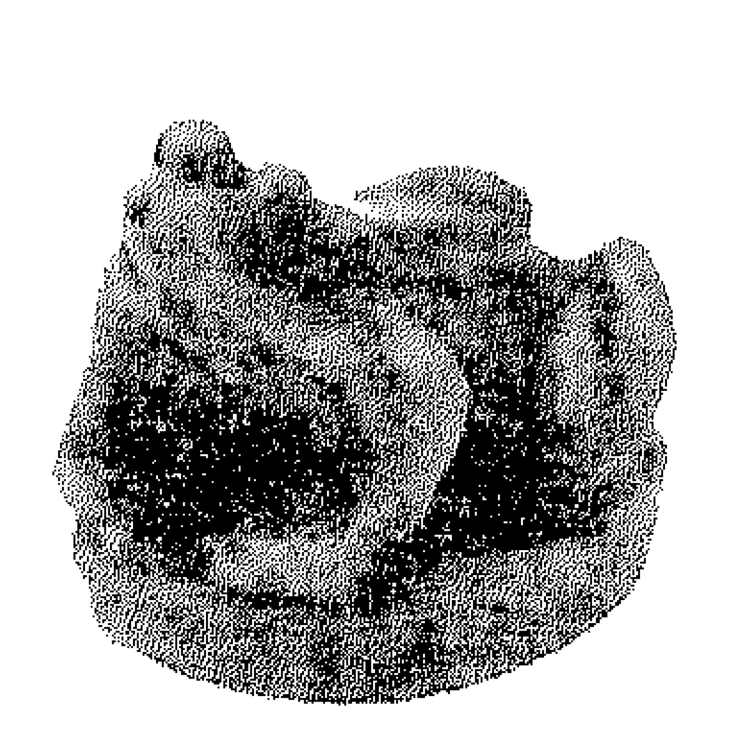
د

دلاية ذهبية على هيئة قدم (عثر عليها فى "تولى تيب" بأفغانستان).



هـ

سخمت (عصر متأخر).



و

تميمة على هيئة ضفدعة (الأسرة الثامنة عشرة).

(شكل ٤٥) تمائم وتماثيل صغيرة لآلهة المصريين

أدت العلاقات التجارية بين البوسبور ومصر، التى تمت بواسطة التجار "النافكراتيين" والبحارة، إلى وصول منتجات الحرفيين المصريين، التى كانت حتى ذلك الوقت نادرة أو حتى غير معروفة مطلقا، إلى سكان المدن والمناطق الزراعية. كانت التمائم المجسمة تحظى بشعبية كبيرة هنا... كان هناك طلب كبير، بصفة خاصة، على الجَعَارين، المكتوب عليها أمنيات طيبة، والتى صنعت فى "نافراكاتيس". و قد دخلت حياة السكان المحليين كلٌ من الأوانى المصنوعة من الألبستر، وأوانى الأمفورا الكبيرة والصغيرة، والأوانى النافكراتية التى تمثل أشكالا مجسمة، فأصبحت معتادة فى الاستخدامات اليومية. وقد استخدمت الأوانى الفخارية فى المطبخ، حيث كانت يحفظ بها النبيذ والمنتجات الغذائية. أما الزجاجات والكئوس الزجاجية الشفافة، التى لم يكن يوجد لصناعها المصريين مثيل لفترة طويلة، فقد زينت موائد الأعياد فقط. وكانت تمتع عيون ملاكها بتزيينها للمساكن، فى انتظار أيام الأعياد.

اهتم سكان المدن بكل من الروح والجسد، فحافظوا عليهما بشتى الوسائل، ولتصبح أسرتهم كبيرة كانوا يشترون ما تم جلبه من وراء البحر من تحف غريبة: أحجار ثمينة لامعة متعددة الألوان، وتماثيل لأقزام قادرة على طرد القوى والأرواح الشريرة، وعيون بها تعبيرات مفكرة، يكفى لمسها كى يتوارى سحر النظرة الرضية... ويشترى الزوج لنفسه تميمة قبضة يد تدل على عدم الاستسلام، ولزوجته عنقود عنب. ولكن الأحسن هو امتلاك مجموعة كاملة من التمائم، حيث إن ذلك جميل ومضمون، فثمنها ليس مرتفعا ولكن ضمان الوقاية من كل ما يجلب الشر أكبر. كان يظهر عندهم اهتمام خاص بالموتى، توجد فى مقابر "بانتكابى" أو"هيرسونس" أو"أولفيا" أو "نيمفى" تمائم مختلفة: جَعَارين، وتماثيل لنسر أو أسد، وللإله بيس، هربوقراط، و"بتاح- سكر- أوزيريس". وكعادة قدماء اليونانيين كانت حبوب القمح تبذر على المقابر، حيث يوجد تقارب فى دلالة الكلمات بين عالمى الطبيعة والإنسان فى ديانات الشعوب، التى ترجع جذورها إلى التصورات

الأسطورية التى انعكس فيها التصور عن البعث بعد الموت ودورية طقوس الزراعة.

لا يمكن التأكد من أن هذه كانت عادات يونانية فقط، جاء بها المستوطنون إلى ساحل البحر الأسود، فقد كانت لأوساط المزارعين وللمجتمعات المستقرة القديمة عامة ديانات وطقوس مماثلة. كان من المعتاد فى مصر أن تحشى تماثيل أوزوريس الفخارية بحبات شعير، ثم تقام طقوس دفنها فى الأرض. كان ذلك بهدف الحصول على محصول جيد. أما تماثيل أوزوريس المماثلة، والتى كانت توضع فى المقابر فكانت تضمن الهدوء للميت. كانت تعد قوالب خاصة على شكل أوزوريس لزراعة الحبوب. كان هناك مفهوم خاص عندما كان فرخ النباتات يزهر، حيث إنه كان يعنى عودة الإله للحياة. وقد وضع قالب مماثل فى مقبرة "توت عنخ أمون" بجانب الأشياء الثمينة التى لا يمكن تقديرها بثمن، ولكن هذا الشيء البسيط بالذات لعب دورًا مهما فى طقوس الدفن، حيث إنه كان عليه أن يمنح الملك الشاب البعث إلى الحياة الأبدية بعد الموت. وفى الواقع لقد لعبت أشكال أو رموز آلهة آخرين دورًا حاميًا مماثلاً، لذلك يعثر كثيرا على تماثيل بس، وهربوكرات، و"بتاج - سكر- أوزوريس"، وإيزيس، وجعارين، وأشياء سحرية أخرى ضرورية للإنسان فى هذا العالم وفى العالم الآخر. كان أيضًا من يحصل على هذه التمائم فى الأسواق الصاخبة البعيدة عن مصر، يتقبل قدرة هذه الأشكال على الحماية. وقد سمح تشابه شكل هذه التماثيل الخارجى مع الآلهة والأصنام المحلية على أن يتم التعامل معها بثقة تامة.

وبالطبع لم تبق الآلهة المصرية دائمًا بلا أسماء. فقد تم تقديس الإلهة إيزيس وابنها الطفل الصغير هربوكريت عند ساحل البحر الأسود، كما قدس سرابيس Sarapis فى العصر الرومانى، خاصة بصفته الإله الحامى للبحارة.

أخذ الزمن، الذى ليس عنده مشاعر، الملامح الأصلية للألوهية القديمة إلـى الماضى، فقد علمنا عن المعارف السحرية التى كانت تمتلكها فى الماضى إيـزيس المصرية القديمة ، بصفة خاصة من عصر الحضارة اليونانية الرومانية القديمـة، الذى أكسبها، على أية حال، القيم الروحية والطبيعية السائدة فى ذلك العصر. وفى الوقت نفسه، تمكن العالم اليونانى الرومانى من التفريق بين إيزيس وأخيها وزوجها المصرى القديم أوزوريس، وربطها برابطة جديدة مع سرابيس، الإله الذى ولد فى العصر الهيلينى ولم يقل من حيث العظمة عن "زوس- جوبيتر" أو "أمون طيبة".

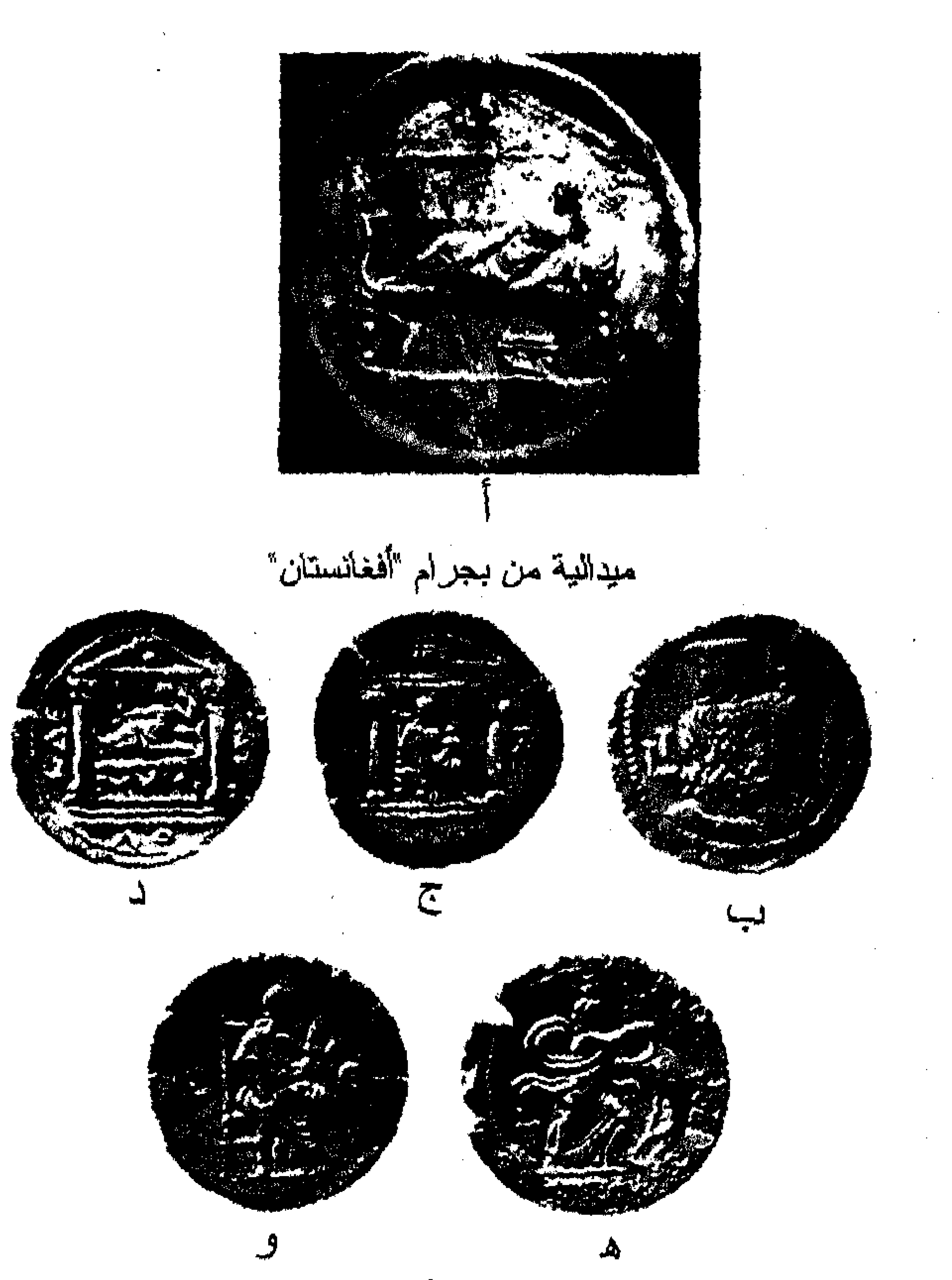
ولكن للأسف منح الزواج إيزيس سمة جديدة، فقد أصبحت تقدس بصفة إلهة حامية للبحارة، ومدافعة عن كل من عبر عبـاب الميـاه والمحيطـات الجنوبيـة، وجازف بالخروج فى رحلة بعيدة. وهؤلاء لم يكونوا قليلين، وقد حكوا لكل الـدنيا عن إيزيس العظيمة. كما قدست لعنايتها بموقد البيت، وباعتبارهـا زوجـة وفيـة مبالية، واعتبرت رمزًا للأنوثة. والأهم من ذلـك أن إيـزيس أصـبحت تجـسيدًا للأمومة المقدسة (شكل ٤٦).

حتى بعيدا عن حدود العالم اليونانى الرومانى فقد حمل الناس تمـائم عليهـا صور الآلهة المصرية القديمة. وكان أكثرها انتشارًا صورة إيزيس وهـى تحمـل على ركبتيها ابنها هربوقراط "حورس الطفل"، الذى ولد نتيجة زواج إيـزيس مـن أخيها الشقيق أوزوريس. وفى الفترة اللاحقـة مـن عـصر الحـضارة اليونانيـة الرومانية القديمة، ورث هذا الشكل الذى يمثل الإلهة الأم ودخل فـى فـن رسـم الأيقونات فى بداية المسيحية، ولكنه اكتسب اسما آخر " والـدة الـرب المقدسـة " ورويت عنه أسطورة دينية أخرى[٨٧].

---

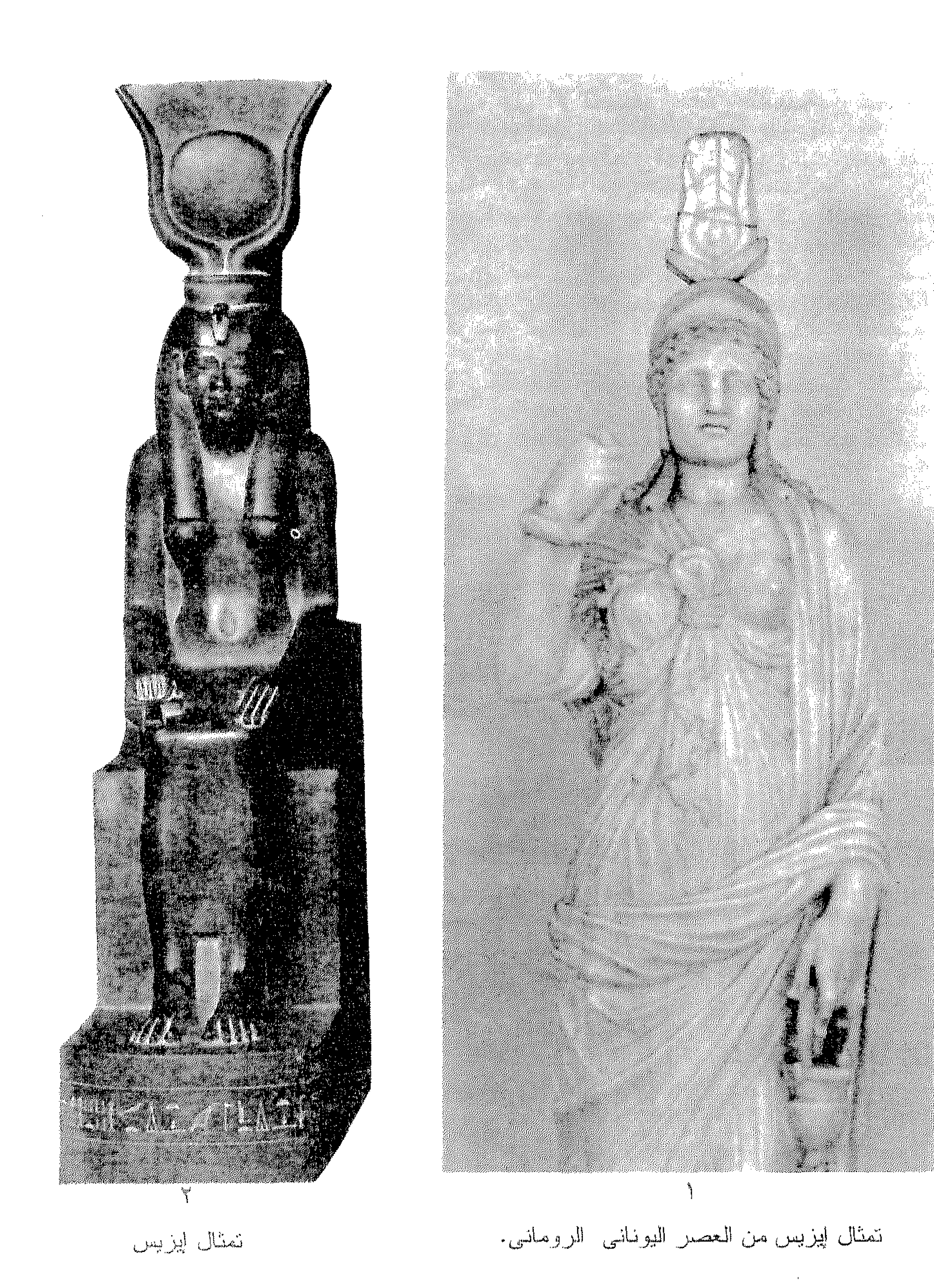
(٨٧) Подробнее о связи образов Исиды и Богоматери см: Толмаачева Е.Г.Копты: Египет без фараонов , М Алетейа, 2003

كان يجب أن يمر زمن غير قليل، قبل ألا تصبح إيزيس القديمة مرتبطة فى فكر المسيحيين الأقباط المصريين مع "السيدة مريم العذراء"، ولكــن بــالطبع فقــد تطابقت ملامح الإلهة الأم القديمة والجديدة معًا. على أية حال وجد فى أطلال معابد إيزيس فى مصر، حتى القرن الخامس م. صلبان قبطية تذكرنا بتمائم "تيت" التــى ترمز لإيزيس. فى أثناء الصلوات المكرسة "للوالدة الرب"، فإن أصــوات الطبــول كانت تتداخل مع أصوات أدوات الإيقاع القديمة، التى كانت تعتبر خاصة بالإلهتين المصريتين القديمتين حتحور وإيزيس، وقد انعكس أيضا فى هذا الالتحــام تعاقــب الثقافات، فى تشابك معقد يجمع لزمن طويل بين الماضى والجديد.



(شكل ٤٦ – أ) تمثيل إيزيس

(ب، ج، د، هـــ، و) عملات سكندرية من العصر اليونانى الرومانى. (عن ر.بول)



٢ تمثال ايزيس

١ تمثال إيزيس من العصر اليونانى الرومانى.

(شكل ٤٦ – ب) تمثيل ايزيس

مقبرة بسمتاح من الأسرة السادسة والعشرين

لم تؤدِ الحضارة المسيحية الجديدة إلى نسيان الإلهة إيزيس. كانت صورة من امتلكت المعارف السرية عظيمة للغاية، لذلك لم تدخل فى الحيز الذى خصصته لها المسيحية، فظهر نموذج إيزيس أيضًا فى تفسيرات فلاسفة الفترة المتأخرة من العصر اللاحق للحضارة اليونانية الرومانية القديمة، ثم بعد ذلك فى الاتجاهات الصوفية المختلفة.

فى الفترة الفاصلة من الفترة المتأخرة من عصر الحضارة اليونانية الرومانية القديمة، المليئة بالهواجس الغامضة وبلبلة العقول، توجه المفكرون بصورة متزايدة إلى الإرث الحضارى بمصر القديمة، والذى ظهرت فيه سمات معارف حقيقية ووصفات مخفية عن غير العارفين، لإنقاذ العالم الذى دخل مرة أخرى فى طريق مسدود لتطوره.

أعاد بلوتارخ رواية أسطورة إيزيس وأوزوريس، فأضاف معنى جديدًا لنماذج الإلهة المصرية القديمة: "إيزيس" هى تجسيد للبداية المادية فى الطبيعة، أما "أوزوريس" فهو بدايتها الحسية، ويتضح من ذلك أن هربوقراط هو شبيه حسى للعالم غير المادى(٨٨). أما التأملية اليونانية، التى تعكس آراء الفلسفة البلاتونية الرواقية، فقد سارعت إلى الأساطير المصرية، فوجدت فيها مفتاح فهم مسائل الوجود والايمان.

قد يكون تابعو تعاليم العارفين هم الذين كانوا الأقرب لفهم طبيعة إيزيس الحقيقية حامية للمعارف السرية. أما البسطاء فقد تقبلوا بطريقتهم اكتشاف الآلهة المصرية العظيمة. وقد روى بلينى الأكبر أن فى زمنه كان الكثيرون يضعون على أصابعهم رسومًا تمثلها. كانت الأحجار السحرية أو "الجيما" Gemma نصف النفيسة للعارفين المنقوش عليها رسوم إيزيس وهربوكرت وأنوبيس والآلهة القديمة

(٨٨) Plut.Ad Is. Et Os.,54, 56

الأخرى تنتشر فى ذلك الوقت. كان تجسيدها يضمن لمالكى الجيما الحماية من كل الأرواح والقوى الشريرة.

نقوش مكرسة لهذه الآلهة المصرية، ومجموعة كبيرة من رسوم تمثلهم، هى كل ما تبقى من الديانات التى كانت سائدة هنا، ومن المقدسات والكنائس الصغيرة فى المدن، والمعابد الكبيرة المخصصة للآلهة اليونانية والرومانية، والتى كانت تقدم فيها المسرحيات الدينية، وكانت تحضر إليها الهدايا وتقام فيها الصلوات.

ولم يكن فقط يزور هذه المعابد من يحضرون من مصر من أجل أعمالهم من تجار وبحارة، ولكن كان يحضر إليها أيضًا أجانب آخرون يعتقدون فى قدرة الآلهة المصرية على حمايتهم. كما كان يشاهدهم أيضًا سكان الضواحى أو المدن الأخرى "بتافريا"، البعيدة عن ساحل البحر. وقد يكون حتى السكان القدامى لمناطق السهول المتخللة بأحراج قد عرفوا عن الإلهة العظيمة إيزيس، وعن ابنها هربوقراط، الذى قاسمته أمه معرفة السحر السرى، والقدرة على إبعاد الأمراض وكل أنواع المصائب الممكنة.

شعوب أوروبا وآسيا الجوالة على طرق التجارة

كان من بين هؤلاء الرحالة أيضًا سكان "نيابول الأسكوثية"، الواقعة فى أعماق "سهول تافريا". كانوا يشترون ما يناسب ذوقهم من التمائم المجسمة اللامعة، خاصة الجَعَارين التى عليها كتابات، على الرغم من أنها لم تكن مفهومة لهم، وعقود الفسيفساء المنقوشة والمصنوعة من الزجاج، وكذلك الميداليات المرسومة عليها رءوس الآلهة. وقد يكون قد جلب لهم كل ذلك جوالة السهول من الأسكوثيين ومن السرماط، الذين عاشوا فى تجمعات كبيرة للأقوام الرحل على الضفة اليمنى

لنهر الدنيبر الأدنى، وفى شالقوقاز الشمالى، وفى قوبان، وفولجا الدنيا، وفى جنوب جبال الأورال، كما أنهم وصلوا بعيدًا حتى وراء بحيرة "ميوتيدوفو"، التى سميت فيما بعد باسم "بحر أزوف"، وكذلك فى ألتاى. كانوا يحضرون أيضًا إلى الشمال، حيث كان يعيش سكان السهول المتخللة بالأحراج والغابات الكثيفة التى لا يمكن اختراقها.

كانت هذه الشعوب الجوالة تحب التزين بأشياء غريبة، وهى واثقة فى قوتها السحرية. كانوا يقايضون حيواناتهم وكل ما كان يمنحهم اقتصادهم ببضائع المدن الكبيرة التى على ساحل البحر الأسود، حيث كان الصناع المهرة اليونانيون ينتجون أشياء جميلة للملوك والزعماء، وحيث كان يمكن العثور على بضائع للبسطاء. وكانوا يلحقون بأجدادهم ومعهم كل ما كانوا يملكون فى حياتهم، الزعماء يأخذون معهم هدايا ثمينة، أما أفراد قبيلتهم البسطاء فيكون معهم أشياء أبسط وأرخص ثمنًا. لذلك يعثر الأثريون فى التلال التى فوق القبور السرماطية القديمة فى جنوب الأورال على جِعَارين مصرية، وأوانى أمفورا صغيرة، وعناقيد عنب، وقبضات يد تشير إلى عدم الاستسلام مصنوعة من الخزف. أما مقابر أستيا، بالاضافة إلى ذلك، فقد كان يعثر بها على عدد كبير من الجِعَارين مرسومة عليها رموز الأمنيات الطيبة، وتمائم عضو الذكورة، وتماثيل بس الصغيرة. كانت تحضر إلى قوبان وإلى المنطقة التى تسمى حاليًا إقليم "روستوف" تمائم الآلهة المصرية "تاويرت"، و"شو"، و"إمحتب"، و"بس". لم تكن هذه المنتجات نادرة بالنسبة لسكان هذه المناطق، فقد كانوا يرتدونها على هيئة عقود كاملة كى تقوم بحمايتهم. فى الماضى كانت هذه المجموعة من التمائم تصاحب الطفل الميت من القبائل السرماطية المقيمة على شاطئ نهر الدون. كان العقد يتكون من عدة تماثيل صغيرة لجِعَارين، وألواح صغيرة عليها ضفادع وأسود راقدة، كما كانت توجد بها تميمة على هيئة الروح "با". كما كانت توجد بعض المنتجات المصرية الأكثر ندرة. فهناك، على ضفة نهر

الدون عند قرية "تدفيجوفكا"، عثر الأثريون على نموذج برونزى لتاج "عاطف" الذى كان يلبسه الفراعنة المصريون.·

وصل السرماطيون الأحرار إلى أعلى نهر الدون للتجارة مع جيرانهم الشماليين، لذلك عرف الأخيرون التمائم المصرية. ولكن كلما اتجهنا أكثر إلى الشمال كان العثور عليها أندر فى الأقاليم المعروفة حاليًا بفورونيج، وكورسك، وفلاديمير، وبيرم، وحتى على ضفاف نهر "أوختة" فى كومى. فقد وصل تمثال برونزى للإله المصرى القديم "نفرتوم"، يرجع إلى العصر الرومانى، إلى تلك الأطراف البعيدة بطرق غير معروفة. قد يكون هذا التمثال الصغير قد انتقل من مالك لآخر هدية أو مقايضة ببضاعة، حتى وصل إلى تلك الأماكن التى لم يعرفها حتى اليونانيون الذين ذهبوا إلى كل مكان، والمطلعون تماما. فعلى الرغم من سماعهم عن الجيران الشماليين للأسكوثيين- البودين، الفيساجيت، الإيسيدون- فإن معلوماتهم عن موقع أراضيهم كانت مشوشة. ولكنهم كانوا يعلمون أن الكثير من الأسكوثيين ليسوا من الرحل ولكنهم يمارسون حياة حضرية، فيرعون الماشية، ويستصلحون الأرض.

كان الأسكوثيون الملوكيون يعيشون على الضفة اليسرى لنهر الدنيبر الأدنى فى منطقة بوج الجنوبية. كان يسكن "الكاليبيد" أو "الهيلينو-أسكوثيون" بالقرب من أولفيا، أما الأسكوثيون الفلاحون فقد عاشوا على كل ضفاف نهر "الدنيبر". وكانوا يرسلون القمح والماشية إلى المدن اليونانية شمال ساحل البحر الأسود، وكانوا يحصلون فى مقابلها على النبيذ والأوانى والحلى، وكذلك على الكثير مما كان يحضره التجار النافراكيتيون من مصر. وصل الكثير من المنتجات المصرية بهذه الطريقة إلى الأقاليم المختلفة القريبة من نهر الدنيبر. ومنها، على سبيل المثال، تمثال برونزى لأوزوريس يلبس على رأسه تاج عاطف، وجد فى مدينة "خملنيك" بإقليم كييف، وتمثال صغير لقطة وجد بمدينة كييف، وتميمة تمثل العين المقدسة

عثر عليها بإقليم "تشيركاسى"، وتمثال بس وجد فى تل أسكوثى بالقرب من قريـة "تريبولى". كانت المنتجات المصرية المصنوعة من الخزف منتـشرة أيـضا عنـد جيران الأسكوثيين فى المناطق القريبة من نهر الدنيبر وجنوب نهر بوج وعنـد الأسكوثيين الذين عاشوا فى جنوب بوج، القبائل قبل السلافية التى عاشت فى هـذه الأراضى من القرن الثالث ق.م.

قد لا تكون الآلهة المصرية، التى وصلت أشكالها إلى المجتمعات الحضارية والعرقية المختلفة، البعيدة جدا عن مصر، معروفة فى هذه الأماكن، ولكـن هـذه النماذج والأشياء الغريبة الأخرى كانت لها أهمية سحرية. وكان هذا بلا شك، هـو سبب التعامل معها على أنها مقدسات. ويمكن بهذه الطريقة فقط تفسير العثور على قطعة من كتابات تحمل اسمًا وجزءًا من ألقاب الفرعون تحتمس الثالث فى روسـيا البيضاء، فى مقاطعة "جلوسك"، والتى تم حفظها على مدى عدة قرون فى رعايـة كنيسة كاثوليكية.

لم يكن اليونانيون يعرفون فقط الأسكوثيين والسرماط ممن كانوا يعيشون فى المنطقة الساحلية للبحر الأسود، والذين كانوا يحضرون إليهم بحثًا عـن البـضائع، ولكنهم كانوا يعرفون أيضا تلك الشعوب التى تعيش بعيدا، فى الشرق، حتى جبـال ألتاى. فقد كان الطريق من "بونت إكسكين"(*) ينتهى عندهم. كـان هـذا الطريـق معروفًا للهلينيين القـادمين من مينـاء "بوريسفين"(**)، كما كانت آنـذاك تـسمى مدينة أوليفيا"(***)، ومن المدن البونتية الأخرى(****)، لأن الأسكوثيين كانوا يحكون

(*) الاسم اليونانى القديم للبحر الأسود. (المترجم)

(**) الاسم اليونانى القديم لنهر الدنيبر. (المترجم)

(***) مدينة قديمة كانت موجودة فى القرون من السادس إلى الرابع ق.م. (المترجم)

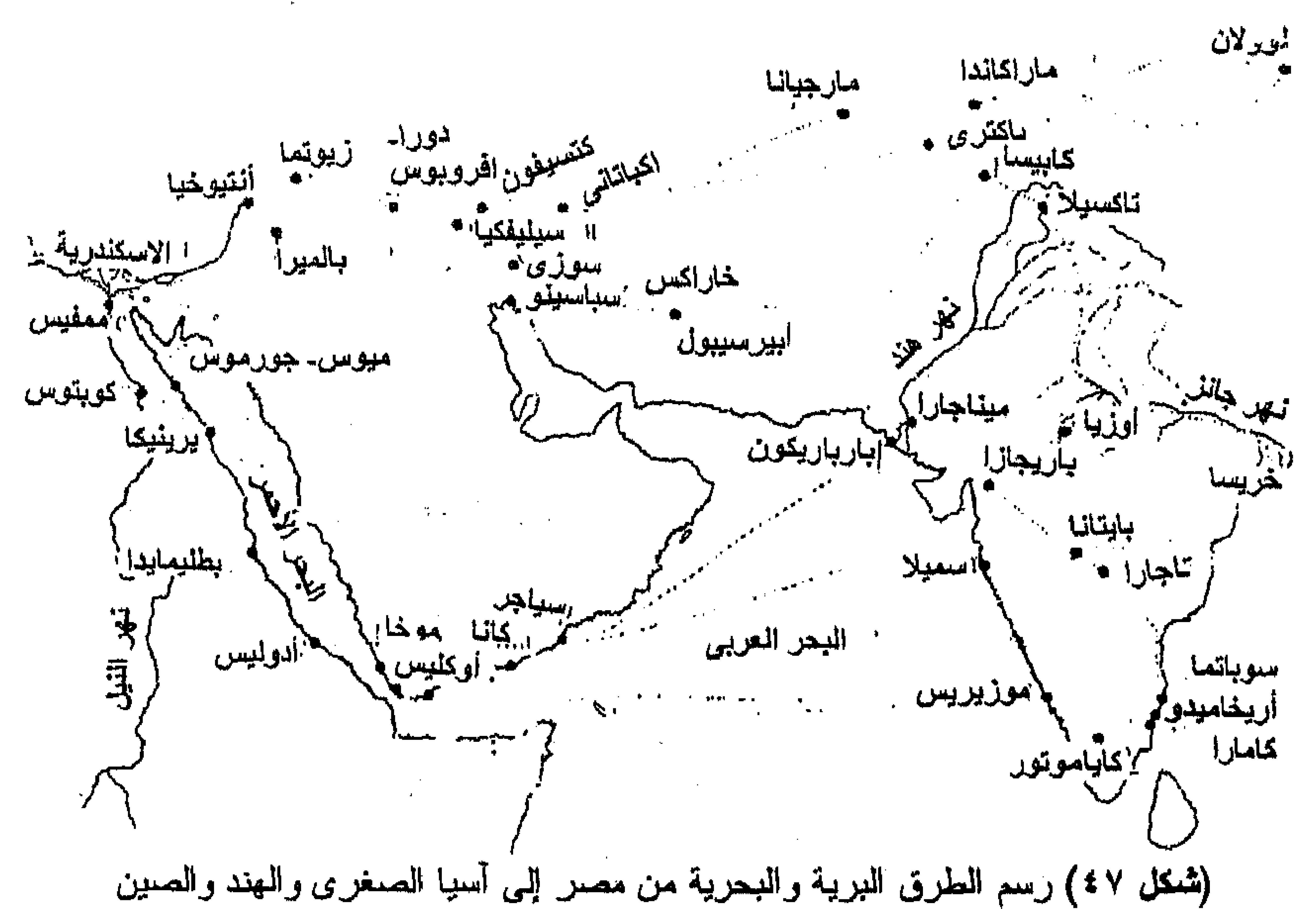
(****) كانت "المملكة البونتية" موجودة فى الفترة من عام ٣٠٢ إلى ٦٤ ق.م. على ساحل البحر الأسـود. (المترجم)

عنها، حيث إنهم كانوا يعبرونها من طرف لآخر. كان هذا الطريق يمر عبر سهول الدون، والفولجا الدنيا، والأورال الجنوبى، وسيبيريا، والقوقاز الشمالى، وكان ينتهى عند ألتاى. كانت المنتجات المصرية من بين ما كان يتم إعادة إرساله من المحطات التجارية إلى الشرق، كانت هى نفس المنتجات الخزفية من تماثيل صغيرة وتمائم وعقود. وقد وجدت تماثيل أوزوريس وبس ملاكًا لها فى مقاطعة "تومسك" وفى "ألتاى"، ولكن قد لا يكون سكان هذه المناطق البعيدة جدا عن مصر، يعرفون أى شىء عن هذه الآلهة وعن بلدها. وكانوا يحصلون على هذه الأشكال الغريبة عن طريق وسيط ثان أو ثالث عبر طرق ساحل البحر الأسود الطويل، مثلما كان يحصل عليها سكان آسيا الوسطى.

كانت المنتجات المصرية تصل إلى وسط آسيا بطرق مختلفة. كانت إحداها متطابقة جزئيًا مع الطريق القديم الذى وصفه هيرودوت، والمؤدى إلى ألتاى. أما الطريق الآخر فيدور حول بحر قزوين من الشمال ويمتد عبر مناطق "أوزبوى"(*)، ومنطقتى بين النهرين بآسيا الوسطى وسلسلة جبال "تيان شان" إلى منغوليا، وتركستان الشرقية والصين. وكان هناك طريق آخر يمتد من ساحل البحر الأسود بالقوقاز عبر ما وراء القوقاز إلى الشاطئ الجنوبى لبحر قزوين، وكان يتفرع فى منطقة وسط آسيا، وبعد ذلك كانت تتجه إحدى هذه التفريعات إلى الهند، وأخرى إلى الصين. تكونت هذه الطرق على مدى آلاف من السنوات، وزاد طولها تدريجيا، وربطت بين عدد كبير من مختلف مناطق القبائل والشعوب المختلفة التى كانت تفصل بينها مسافات كبيرة. وقد تقابل التجار القادمون من مصر ومن وسط آسيا على أحدها، وهو المعروف باسم "طريق الحرير"، الذى أطلقه عليه العالم الألمانى" ف.ريختخوفين".

(*) وادٍ قديم فى تركستان، يمتد من منخفض ساريكاميش إلى بحر قزوين. (المترجم)

في الواقع كانت هذه شبكة كاملة من الطرق ربطت بين منطقة البحر المتوسط والهند والصين عن طريق الهضبة الإيرانية. كان أساسها الطريق اللازوردى الذى كان موجودًا منذ ثلاثة آلاف سنة ق.م. وقد جذب إليه كل من توجه إلى "باداخشان" من أجل حجر اللازورد الرائع، المعروف تماما فى مصر. هكذا امتد هذا الطريق من الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط، حيث انضمت له تفريعات من مصر عبر سيناء، ومن آسيا الصغرى عبر "ميسوبوتاميا"(*)، والمنطقة التاريخية القديمة "جيركانيا" الواقعة جنوب بحر قزوين، وبوابة قزوين، ثم بعد ذلك إلى "خوروسان"، و"باروماسادى" (جبال جيندوكوشا) و"باكتريا". ثم تفرعت الطرق من هنا، من باكتريا، إلى كل من الهند والصين وإلى الشمال، عبر "أموداريو" إلى آسيا الوسطى. كان طريق آخر يمر عبر مصر، عبر خليج العقبة، ثم انضم بعد ذلك إلى الطريق الرئيسى، الذى يمر بميسوبوتاميا (شكل ٤٧).



(شكل ٤٧) رسم الطرق البرية والبحرية من مصر إلى آسيا الصغرى والهند والصين

(*) المنطقة الوسطى والسفلى لمجرى نهرى دجلة والفرات، موطن إحدى أقدم الحضارات. (المترجم)

ولكن بجانب الطرق البرية التى تربط جنوب أوروبا وشمال أفريقيا ببلاد الشرق، كانت توجد أيضًا طرق بحرية تمر عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى. خلال الحدود الفاصلة بين القرون الأولى السابقة للميلاد والقرون الأولى الميلادية، أصبحت الطرق البحرية من البحر الأحمر إلى الهند والصين، تنافس طرق القوافل العابرة للقارات. ولم يشعر بفائدتها فقط سكان المناطق الساحلية، بل أحس بها أيضًا سكان المناطق البعيدة فى أعماق آسيا، الذين قد يكونون لم يروا أبدًا البحر أو السفن التجارية الكبيرة، القادمة من الهند الأسطورية أو من أرض الآلهة مصر.

لقد أدت طموحات الحكام عملها، فقد وصلوا ما لم يكن متصلاً، بعضه ببعض؛ فقد تقاربت الشعوب التى كانت من قبل تسمع فقط عن بعضها بعضًا، على الرغم من بعد المسافات، التى تفصل بينها. كان أحد أهم نتائج إقامة علاقات مستمرة بين الشعوب هو تبادل تداخل الثقافات المختلفة الذى تم بكل الأشكال الممكنة، فقد أعيد فهم كل الظواهر الغريبة للحضارة، بحيث تتناسب مع القيم والثقافات السائدة، وتم الاقتباس منها. وقد احتاج الأمر لبعض الوقت حتى أصبحت ظواهر الثقافة الغريبة طبيعية ودخلت فى نسيج التقاليد، بحيث أصبحت عناصر لا تتجزأ عنها. هذا بالدرجة الأولى سمة للثقافات التقليدية الشعبية، التى تطورت باستمرار منذ بداية نشأتها بحيث لم تفقد أى شىء من القديم، ولكنها شكلت طبقات فوق ما يذكرونه ويحمونه بحرص ويحافظون عليه.

اختلف الأمر مع ثقافات القمم الاجتماعية، الزعماء والنبلاء المميزين، والملوك والحاشية، وبقول آخر موزعى وحاميى كل ثروات المجتمع. فحاول أهل القمة فى كل العصور أن يكونوا مميزين، بأن تكون لهم ثقافة خاصة بهم، تختلف عن ثقافة الطبقات الاجتماعية الدنيا. فكانوا يحيطون أنفسهم بهيبة، وبأشياء ثمينة وغريبة. الأشياء القادمة من بلاد أخرى أشياء تمثل الترف، بضائع ثمينة وهدايا

من الحكام الآخرين أو غنائم حربية، كانت من بين الأشياء الخاصة بالمميزين، حيث إنها كانت ترمز إلى المكانة الاجتماعية العالية.

كانت الغنائم تضم أيضًا من كان ماهرًا فى عمله: الحرفيين والصاغة والنحاتين والرسامين. وليس سرًا أنه كان للأشياء فى العالم القديم أهمية أيديولوجية كبيرة ومتعددة الجوانب، وأنها كانت مرتبطة تماما بالتصورات الدينية، بحيث إنه لم يكن من الممكن فصلها عنها، لأنها كانت ترمز إلى عالم الآلهة. كانت أهم قنوات العلاقات بين الثقافات تتمثل فى التجارة وسياسة الهجرة والزواج المختلط بين الفاتحين وممثلى الثقافات المحلية. وكانت النتائج المباشرة لذلك التفاعل الاجتماعى الثقافى والروحى وظهور التحام دينى، فكان يجب أن تتواءم آلهة البنتيونات المختلفة وعادات وتقاليد مختلف الشعوب بطريقة ما، فبدأت عملية واسعة لتفاعل ثقافات عصر أول الإمبراطوريات العظيمة فى قديم الزمان، بلا رجعة. وقد انتشرت عناصر ثقافة مصر القديمة فى هذه العملية بعيدًا، خارج حدود القارة الإفريقية.

مصر من أوائل الإمبراطوريات العالمية

الأخمنيديون والإسكندر المقدونى وروما

فى عصر الإمبراطورية الأخمنيدية (حوالى ٧٠٠-٣٣١ عام ق.م)، التى فتحت مصر فى القرن السادس ق.م، وجد الكثير من سكانها أنفسهم بعيدين جدا خارج حدود وطنهم. وقد وصلت إلينا بعض الحقائق التاريخية من حياة هؤلاء المهاجرين. فعلى سبيل المثال، روى هيرودوت عن مصير الأسرى الليبيين من مدينة "باركة" الذين نقلوا من مصر إلى "باكتريا"، حيث أسسوا قرية حملت اسم

"باركة". قاموا بالخدمة فى الغربة حيث مارسوا أعمالهم مثل كل السكان العسكريين، وهم محتفظون بوفائهم لأجدادهم وآلهتهم وعاداتهم، كما تم تهجير الكثير من القادمين من "باكتريا" و"سجد" و"خوارزم" إلى مصر، حيث قاموا بحماية حدودها.

كان الإيرانيون الشرقيون- البكتريون والخوارزم والأسكوثيون- يعتبرون أحسن المحاربين فى جيش الأخمنيديون وكانوا يمثلون نواته بجانب الفرس والميديين. كانت الفروسية الأسكوثية تمثل فخرًا خاصا للملوك الأخمنيديين، وكثيرًا ما جلبت النصر للفرس، وقد شاركوا فى فتح مصر.عثر فى وسط آسيا وفى ميسوبوتاميا ومصر وسوريا على الكثير من التماثيل المصنوعة من الطين للفرسان الأسكوثيين وعلى رءوسهم قبعاتهم المدببة، ومرتديين للباشليك والسراويل الضيقة. وعندما فتح الأخمنيديون مصر، نقلوا المحاربين من وسط آسيا إلى أكبر حامية، وهى التى كانت موجودة فى ممفيس.

كان الكثير من القادمين من الشرق يعيشون فى هذه العاصمة القديمة الواقعة عند قاعدة دلتا النيل، فأنشأوا فيها أحياء للأجانب. وأثناء عمل الحفريات الأثرية هنا عثر على مجموعة كبيرة من البورتريهات المنحوتة والتماثيل، التى تمثل نماذج لمختلف شعوب الشرق الأوسط ووسط آسيا وشبه الجزيرة العربية وكذلك الهند.

كان المهاجرون العسكريون الأجانب يعيشون أيضًا فى مدن مصر الأخرى مثل طيبة وهرموبوليس Hermopolis، كما أنهم قاموا بالخدمة عند الأطراف الجنوبية لمصر، عند الحدود مع النوبة على جزيرة فيلة، حيث كان يعيش منذ أيام الأسر المصرية مهاجرون من منطقة "يوديا"، الذين مجدوا بالمعبد الذى أقاموه للإله "ياخفا". وقد قام شخص يسمى "ماخسى" بحلف القسم فى هذا المعبد، بناءً على حكم القاضى، الذى لم ينجح فى مقاضاته الخوارزمى "دارجمان" بن "خارشين"، المحارب المهاجر، الذى عاش فى مصر فى عهد حكم الملك الأخمنيدى

"أرتاكسيركس الأول "(٤٦٤ – ٤٢٣ ق.م)، بسبب نزاع على قطعة مـن الأرض. سلم أرشيف المستندات الآرامية الغنى جدا، فى أثناء تناوب الأحداث العاصفة على مدى التاريخ المصرى، فوصلت إلينا معلومات عن هذا الحدث وعن أحداث أخرى كثيرة من حياة المحاربين المهاجرين من وسط آسيا. وقد اسـتخدم الأجانـب لأداء مختلف الأعمال الاقتصادية ولتنفيذ أعمال البناء، وقد شاركوا في بناء السفن وفـى إصلاحها بترسانة "ممفيس". ومن المعروف أيضًا أن المحاربين الأسكوثيين قد نقلوا بواسطة سفن الأسطول الحربى الأخمنيدى للمشاركة فى الأعمال الحربية.

وإذا كان الإيرانيون الشرقيون قد اشتهروا بأنهم كانوا محاربين مهـرة فـى عهد أسرة الأخمنيديين، فإن المصريين كانوا يشتهرون بأنهم موظفـون تنفيـذيون وبأنهم حرفيون مهرة. وقد راعت الإدارة الأخمنيدية ذلـك أيـضا فـى سياسـتها التهجيرية. ولم يقدم لنا التاريخ معلومات كثيرة عن مصير الحرفيين المهرة الـذين خلدوا حاملى التيجان بفنهم. لقد قاموا بإدخال تقاليد الثقافة المصرية إلـى أوسـاط ثقافية جديدة شعبية بالنسبة لهم، وكذلك روحها التى تتجسد فـى مختلـف الأشـياء المادية، والمنتجات الفنية التى تجسد الآلهة، آلهتهم وآلهة الآخـرين، فـى الثقافـة الجديدة بالنسبة لهم.

قام الفنانون والنحاتون المصريون، وهم يمثلون الملك الأخمنيـدى أو إلـه "أخورامازدو" بتحوير ملامحهما حيث أكسبوها ملامح ملوكهم وآلهتهم، طبقًا للتقاليد المتبعة فى الفن المصرى. وقد جاءت من هنا هذه التوليفة عند استخدامهم نمـاذج جديدة عليهم. لم يكن من الممكن أن يكون الوضع مختلفًا، لأن الفنان المصرى لـم يتعلم فقط طبقًا لقوانين عامة اعتاد عليها، ولكنه كان يفكر كمصرى، حتـى وهـو يعيش فى الغربة. فى فترة الحكم الأخمنيدى تم تهجير المصريين إلى مختلف مـدن ميسوبوتاميا. حتى إنه قد تم إرسالهم إلى مناطق أبعد، إلى أورا وأوروكى وسوزاخ ونيبور وإلى مناطق أخرى، فتركوا آثار أنشطتهم فى كل مكان، من شرق البحـر

المتوسط إلى "باروماسادى"، ويؤكد انتشار الأشياء المصرية ذلك بعض الشيء. وبالإضافة إلى ذلك فإن الكثير من منتجات الصناع المصريين تعتبر دليلاً على العلاقات التجارية التى أقيمت عبر طريق الحرير العظيم فى العصر الأخمنيدى، عندما أصبحت الاتصالات بين أجزاء هذه القوة العظمى مستمرة بدرجة كافية. يمكن الحكم على مصير الإنسان طبقًا لمصير الأشياء، حيث إنه لا يمكن فصلهما. فمثلا كثيرا ما يعثر على تمائم وعقود مشكلة وجَعَارين وتماثيل الآلهة وأوانى الألابستر أكثر من أى شيء آخر فى ساحل البحر الأسود وفى كل المنطقة المحصورة بين سوريا ووسط آسيا. وقد وصلت إلى المدينة العاصمة "نيسو" بتركمانستان الجنوبية إحدى هذه الأوانى، منقوشًا عليها كتابات تتضمن اسم الملك "أرتاكسيركس". وقد وصل طريق إلى هنا، إلى سفوح "كوبت-داجا"، تفريعة من طريق الحرير العظيم، واتجه بعد ذلك إلى "خوارزم" أو إلى "أموداريا".

إذا كان مصير بعض الناس مخفيا عنا بنسيج النسيان والجهل، فإن الأشياء تسمح باسترجاع القرائن العامة للأحداث فى حياة قوم محددين ينتمون إلى ثقافات مختلفة، حتى بدون ذكر أسمائهم. تعطى المنتجات المصرية للحرفيين والأعمال الفنية، معلومات عن تجارة أو حياة من خرجوا من مصر، بصفة خاصة فى الغربة. ولكن ما يخص ما يسمى بالأشياء الممصرة، فهى تختلف بشدة عن النماذج الأصلية بقسوتها وفظاظة تنفيذها، ولا يمكن اعتبارها مصرية. فهذه الأشياء تنتمى إلى المثالين والرسامين والحرفيين المحليين، وكانت مخصصة، كما هو واضح تماما، لغير المصريين. ويوجد الكثير من هذه الأشياء المقلدة فى الشرق الأوسط، الذى كانت توجد بينه وبين مصر علاقات قديمة وتقليدية.

ساعد التقارب الجغرافى فى ظل الاستقرار النسبى للعلاقات الدولية على التقارب الثقافى أيضًا، وعلى ازدهار تبادل واستيعاب القيم الروحية. يكفى أن نقدم هذا المثال الواضح: قبل عصر الأخمنيديين مرت عدة آلاف من السنوات على

الانتشار المتبادل لديانات الآلهة المصرية والآلهة الشرق أوسطية، وهو ما انعكس على التفاعل الثقافى المتبادل. وقد توسعت هذه العملية تمامًا فى العصر اليونانى الرومانى فشملت كل المجتمعات الثقافية الجديدة فى أوروبا وآسيا. كيف حدث ذلك فى الواقع؟ لقد ظهرت الاتصالات الاجتماعية الثقافية، التى شملت المجال الدينى الأيديولوجى للوجود بصور متعددة كثيرة. لقد سبق أن قلنا إنه عندما كانت الأشكال الرمزية للآلهة المصرية تصل إلى بيئة اجتماعية، قد لا تكون معروفة فيها أهميتها ودورها، كان يتم استيعابها بحيث تعكس الديانات والتصورات الدينية المحلية. على الأرجح، لم تكن توجد اتصالات مباشرة. أما فى الأماكن التى كانت توجد بها ظروف مناسبة للاتصالات المستمرة مع مصر، وبصفة خاصة فى مناطق البحر المتوسط وشمال البحر الأسود، وفى جزر روديس وديلوس، وفى الجزء الساحلى من سوريا، فقد قدست ديانات الآلهة المصرية، وبصفة خاصة إيزيس وهربوكرات وسارابيس الذين خصصت لهم معابد وأماكن مقدسة.

فى ظل إقامة السكان المحليين مع المهاجرين من بلاد أخرى فى مكان واحد تلاصقت بشكل مباشر ديانات آلهة مختلف البنتيونات. كان يمكن ألا يجد المهاجرون أماكن مقدسة فى الغربة لآلهتهم، فكانوا يقيمون تماثيلها أو نصبها فى معابد الآلهة المحلية. وكان من الأجانب والسكان المحليين من يتوجهون بصلواتهم للآلهة الغريبة لإنعامها عليهم بالهناء.

كان تصرف المصريين مماثلاً، عندما بدأ الأجانب المقيمون فى مصر فى عصر الأخمنيديين، فى إقامة الصلوات ليس فقط لآلهتهم، ولكن للآلهة المصرية أوزوريس وإيزيس وحورس ورع، مما تشهد به كتابات ذلك الوقت. ولم يكن من النادر أن يكون أيضًا لآلهة الأجانب أماكنها المقدسة فى مصر، فعلى سبيل المثال كان يوجد معبد للإله "ميترا" فى ممفيس، فى أثناء حكم الأخمنيديين، وقد أصبح المصريون يصلون فيه. وتشهد على ذلك أيضًا الآثار الفنية ومعلومات الكتابات

القديمة. وقد أدى التعامل الطويل والوثيق بين الشعوب إلى التقريب أو حتى إلى التطابق بين آلهة الديانات المختلفة، الذى يفسر بتماثلها داخليا. وحدث ازدهار مهم للالتحام الدينى فيما بعد، فى العصر الهيلينى، عندما تم هدم كل الحواجز التى بين ثقافات الشرق والغرب.

بدأت حروب الإسكندر المقدونى هذه العملية، عندما استولى على الممتلكات الأخمنيدية، وسار على أثرها إلى الشرق مستوطنون من ذوى المهن السلمية، فأصبحوا أهم حاملى وناقلى الثقافة الهيلينية إلى الدول البطلسية والسيليفكيدية الشرقية الهيلينية التى تأسست بعد موت الإسكندر الأكبر، وكذلك ممالك "البارفيانية" و"اليونانية- الباكترية". لقد أدت هذه الأحداث، على المستوى التاريخى الثقافى إلى إحساس الثقافات الشرقية بتأثير يونانى قوى، جلب معه تكوين مجتمع هيلينى اجتماعى ثقافى، وضح أساسه فى التحام العناصر اليونانية والشرقية.

فتح الرومان فى (عام ٣١ق.م) مصر ومناطق الأراضى الغربية التى كان يحكمها السيليفكيد. أما المناطق التاريخية، الداخلة ضمن الدول "البارفيانية" و"اليونانية- الباكترية"، فقد اكتسحها الجوالة القادمون من وسط آسيا. بعد ذلك قطعت الاتصالات بين هذه الأماكن البعيدة عن روما، وعلم الحضارة اليونانية الرومانية القديمة، وعلى الرغم من ذلك لم تخب التأثيرات الثقافية السابقة للحضارة اليونانية- الرومانية القديمة، ولكنها عانت من تغييرات كبيرة، حيث عاشت فترة عتمة سياسية (فترة مظلمة).

كانت إحدى التكوينات السياسية التى وجدت فى وسط آسيا تتمثل فى دولة "الكوشان العظام" التى تتحدث عن جبروتها المدونات التأريخية الصينية لكل من أسرتى "خان" الأكبر والأصغر. وقد جاء فيها أن فى الماضى كان "اليوئيتشجى" هم السادة فى الطرف الغربى، أى فى تركستان الغربية، فى السهول الممتدة من "دونخوان" فى الغرب، إلى "جانجوى" فى الشرق، ولكن طردهم منها الأتباع

السابقون "للألهون". عندئذ رحل عدد كبير من "اليوئيتشجى الكبار" إلى الغرب، ثم قاموا، بعد عدة عشرات من السنوات، بالهجوم على أراضى "بارفيا" و"باكتريا". وكان الكوشان إحدى وحدات "اليوئيتشجى" الكبار. وقد تم إطلاق هذا الاسم عليهم لأن اسم أحد حكامهم كان "فان جوشوانى". أثناء تحرك "اليوئيتشجى" العظام أو "الكوشان" إلى الغرب، اصطدموا فى "بريتانيشانى الشمالية" بقبائل الأسكوثيين، الذين اضطروا إلى التحرك نحو الجنوب بعد هزيمتهم. بعد أن عبروا المنخفضات عبر "بامير" و"جيندوكوش"، تمركز هؤلاء الأسكوثيون فى مجموعات كبيرة فى كشمير وجاندخار وفى وادى "هند"، حيث كانت توجد الدولة "الهندية اليونانية"، فأسسوا "المملكة الهندوأسكوثية". بسط الكوشان العظام سيطرتهم على كل آسيا الوسطى تقريبًا، ثم قاموا بتوسيع حدودهم، وعبروا إلى الضفة اليسرى لنهر "أموداريا"، ثم تمكنوا بسرعة من الاستيلاء على هذه الأراضى حتى وصلوا إلى مجرى نهر "نارბادا".

بالطبع فقد صاحبت هجوم القبائل الجوالة موجات من الاغتصاب والتدمير، مثل أى غزو، ولكن حكام الكوشان كانوا عاقلين بعض الشيء، فحافظوا على ثقافة المناطق التى استولوا عليها، ولم يمسحوا من على وجه الأرض كل ما تم عمله حتى حضورهم، فنشطت ونمت وتفاعلت ثقافات مختلف الشعوب ومختلف الطبقات الاجتماعية فى دولة الكوشان العظام، وأدى تجديد العلاقات مع الغرب الذى توحد تحت رعاية روما، إلى تأثير عالم الحضارة اليونانية الرومانية القديمة على العمليات الثقافية فى الشرق. وبدأ ازدهار العلاقات المستمرة والنشطة بين الشرق والغرب، التى امتدت إلى مختلف مجالات الحياة فى هذه الدول العظمى. وتقارب مرة أخرى مصير شعوب وسط آسيا القديم ومصر.

أصبحت مصر تابعة لروما سياسيا، ولكنها على الرغم من ذلك تمتعت بدرجة كافية من الحرية فى ممارسة نشاطها فى مجالات الأعمال والاقتصاد. وقد توجه التجار النشطون إلى الأطراف البعيدة، حيث كانوا يتفقون على عمليات مربحة. وقد أثبتت التجارة البحرية، بصفة خاصة، جدواها مع جنوب شبه الجزيرة العربية والهند، ثم وصلت عن طريقها إلى المناطق العميقة فى آسيا. لم يكن الوصول إليها يحتاج إلى شهور طويلة، حيث إنه كان يتم بواسطة القوافل التجارية على اليابسة. وقد كان البحارة فى العصر اليونانى الرومانى القديم يقطعون الطريق إلى الهند فى ما لا يزيد عن مدة شهر ونصف إلى شهرين.

وقد احتفظت الوثائق اليونانية الرومانية القديمة باسم الربان اليونانى شبه الأسطورى "هيبال"، الذى كان أول من استخدم دورية الرياح الموسمية فى الجزء الشمالى من حوض المحيط الهندى للقيام برحلات منتظمة بين الهند وساحل البحر الأحمر بمصر؛ فقد عرف هو أو أتباعه أنه تسود رياح جنوبية غربية فى الربيع وفى الصيف فى المحيط الهندى، وهى تتحول فى الخريف والشتاء إلى رياح شمالية غربية. فنظمت رحلات تجارية بحرية طبقًا لهذا النظام، من الموانئ المصرية التى على البحر الأحمر "ميوس-هورموس" و"بيرينيكا"، إلى سواحل "هندستان" الغربية والشرقية، ثم بعد ذلك قرب القرن الرابع ق.م إلى الصين.

كان اكتشاف "هيبال" يتلخص فى أنه عندما تهب الرياح فى الاتجاه المناسب لمسار السفينة الشراعية، كان يجب السير فى خط موازٍ لمكان وجود نقطة النهاية. كان المصريون يتبعون هذه المعارف والخبرة فيوصلون التجار إلى الميناء المطلوب.

كانت المعلومات عن هذا الاكتشاف وعن فن الملاحة تسمح بالوصول فى ٤٠ يومًا فقط، من ميناء "أوكليس" جنوب شبه الجزيرة العربية، إلى ميناء جنوب الهند والسوق الدولية "موزيريس"، حيث كان يعيش المنحدرون من الإمبراطورية الرومانية. وقد عرفت هذه المعلومات من "كلوديوس بطليموس"، وتأكدت بمؤلف لأحد التجار من معاصريه من الإسكندرية أو من بيرينيكا مجهول الاسم.

كان هذا المؤلف يمثل إرشادات للتجار الذين زاروا أسواق ومرافئ وموانئ إفريقيا الشرقية وجنوب شبه الجزيرة العربية والهند. وقد احتوى على كل التفاصيل عن المحطات التى على الطريق، وعن الأماكن التى يحسن التزود فيها بالماء، وأين يمكن بيع كل نوع من البضائع، أو شراء الضرورى منها. كما سردت به البضائع التى يمكن مبادلتها، وذكرت به على وجه الخصوص قائمة أهم البضائع عند الحكام المحليين، والتى تختلف عن تلك المخصصة للشعب البسيط. لم ينس الشخص مجهول الاسم أن يقدم أيضًا معلومات عن الأجانب المقيمين فى الغربة، وعما كان يحضر لهم عادة. كان هذا التاجر يعرف المسارات البحرية للتجار الهنود الذين كانوا يزورون أساسًا الخليج الفارسى وجنوب شبه الجزيرة العربية. وبالإضافة إلى ذلك كان عند المصرى بعض المعلومات عن التاريخ والوضع السياسى لمختلف البلاد والأقاليم، ولكن بالقدر اللازم لتاجر محترف. وعلى الرغم من أنه سترابون، لم يكن يقدر التجار تقديرًا عاليًا، فقد لاحظ أن معلوماتهم كانت كافية لكى يعبروا المحيط بانتظام وبنجاح.

عندما كان التجار والبحارة المصريون يخرجون فى مثل هذه الرحلة الخطرة فإنهم كانوا يؤمنون أنفسهم بإقامة الصلوات وبتقديم الهدايا لسيرابيس وإيزيس فاروس وديوسكور الذين يقومون بحماية البحارة. يجب أن نعطيهم حقهم، فهم إما أنهم كانوا يعرفون عن مصير الكثيرين ممن لم يصلوا إلى الشواطئ، أو جرفته الرياح إلى مكان مختلف تمامًا، مثلما حدث لمن يسمى "أنيى بلوكاموس"

الذى عاش فى عهد الإمبراطور "كلاوديوس"، كما يروى بلينـى الأكبـر. كانـت مغامرته قد انتهت بسلام، فقد استقبله الحاكم المحلى بحفاوة. فى الحقيقة لم يكن هذا الحاكم هنديا، ولكنه كان من جزيرة "تابروبان"(سـريلانكا)، الـذى كـان معجبًـا بالعملات الرومانية، التى أحضرها.

طبقًا لما رواه مؤلفو عصر الحضارة اليونانية الرومانية القديمة، فـإن هـذه الزيارات كانت متبادلة. فقد حكى "سترابون" عن الهندى، الذى عثـر عليـه أحـد حراس الساحل فى عهد"بطليموس يوارجتيس" Evergete، نصف حى على سفينة خالية، جنحت فى مكان ضحل بالبحر الأحمر. حدث ذلك فى فجر إقامة الاتصالات بين الهند ومصر. وقد زار التجار الهنـود المـوانىء المـصرية، فـى عـصر الإمبراطورية الرومانية، ومنها ميناء "ليفكى ليمين".

ولكن فى العصر البطلسى، فى القرنين الـثانى والأول ق.م كانت العلاقات لا تزال فى بداية تكونها، وقد صاحب الهندى المذكور الذى تـم إنقـاذه وتقديمـه للملك، بعثة السفارة إلى الهند، والتى كان ضمنها "إيفكوس" من "كيزيك"، والذى لم يكن مصيره سعيدًا. فعندما عاد إلى مصر محملاً بالهدايا وبالبضائع الثمينة، لم يتم تكريمه، ولكن أخذ منه كل شيء، كما حدث له ذلك أيضًا بعد رحلة تالية إلى الهند، تمت هذه المرة فى عهد "كليوباترة"، زوجة "بطليموس يوارجيتس"، الذى توفى قبل ذلك. ففى هذه المرة جرفت الرياح سفينته إلى بلد يقع أعلى الحبشة، قبل أن يتمكن إيفكوس من الوصول إلى مصر بسلام. يتجاهل التاريخ الحديث عن بحارة كثيرين آخرين، جعلت رحلاتهم الموفقة أو غير الموفقة من الاتصال عن طريـق البحـر، عملاً عاديا تمامًا، كحرفة عامة. وقد تحدث عن ذلك "فلافى فيلوسترات" فى مؤلفه "وصف حياة أبوللونى ألتيانى" الذى ذهب إلى كل من مـصر والهنـد بحثًـا عـن الحكمة. كما تحدث أيضًا عن ذلك الكثير من الكتاب والعلماء الآخرين من عـصر الحضارة اليونانية الرومانية القديمة.

يقال إن التفاعل بين العالم الرومانى والشرق قد ازدهر لأن الطريق البحرى أصبح منتظمًا ونشيطًا، وقد ساعد ذلك على الاستقرار السياسى فى المناطق التى كانت تحت سيطرة الكوشان العظماء. فقد كانوا مهتمين بالعلاقات مع روما، وكانوا يتحكمون فى جزء من الهند، وفى الطريق إلى الصين التى كانت تطمع فيها روما بصورة كبيرة بسبب الحرير.

وقد شاركت مصر فى هذه الاتصالات بطريقة مباشرة تمامًا، حيث إن من قام بها كانت أصولهم من هذا البلد. كانو تجارًا وبحارة، كثيرًا ما أخذوا على عاتقهم أو لعبوا فعلاً دور المبعوثين الرسميين. كانت بعثات السفارات متبادلة. كما أن الملك الهندى "أشوك" قد أرسل بعثات إلى بلاط الملوك الهيلينيين، ومنها بعثات أرسلت إلى مصر إلى "بطليموس فيلادلفوس" Philadelphe. وفيما بعد، فى عصر الرومان، حضر إلى كل من الأباطرة "أغسطس" Augustus و"تراجان" Traianus و"أورليانوس" Aurelianus و"أنتونينوس بيوس" Antoninus Pius و"ماركوس أوريليوس" Markus Urelius و"سيبتيميوس سيفيروس" Septimius Severus و"أوريليانوس" Aurelianus و"كونستانتينوس" Constantinus، "جستنيان" Justinian وسفراء من باكتريا ومن سكيفيا وجركانيا والهند، أى من تلك البلاد والمناطق التاريخية الداخلة فى دولة الكوشان العظماء أو تلك القريبة منها.

كما زار مصر قوم ترجع أصولهم إلى باكتريا وأسكوثيا، ومن الهند لأهداف تجارية، كما يتضح من نداءات "ديون خريسوستوم" المعاصر للإمبراطور "تراجان"، للسكندريين. لم يُقم الأجانب فى مدينة الإسكندرية العاصمة فقط، ولكنهم عاشوا فى المدن الأخرى بمصر. فعلى سبيل المثال، من المعروف أنه كان يوجد هنا سائقون للأفيال من الهنود وخادمات هنديات، كما عاش هنا حرفيون، على الأرجح، فى المدن الساحلية مثل "ليفكى ليمن".

تتحدث الكتابات الهندية القديمة عن "يافانى" الذين يستحيل التفوق عليهم، أى عن ذوى الأصول الغربية، الذين يعملون حرسًا خاصًّا للملوك الهنود. ولكن كلمة "يافانى" أو "يوناكا" كان يعنى بها الهنود أساسًا، سكان الإمبراطورية من الرومان، من الحرفيين أو التجار، الذين كانت تحضر سفنهم الرائعة إلى الموانىء الهندية. كانت هذه السفن تشحن الفلفل الهندى والأحجار الكريمة، وكانت تحضر للمبادلة عملات الإمبراطورية الرومانية الفضية والذهبية، والتى عثر على كميات كبيرة منها فى الهند، فى كنوز متعددة كانت تحتوى على عدد من العملات يصل إلى ألف قطعة وأكثر معظمها من عهد أغسطس وتيبريوس Tiberius.

كانت كنوز كثيرة مركزة بصفة خاصة فى جنوب "هندستان" التى اشتهرت بالأحجار الكريمة وبالتوابل، فقد كانت توجد هنا محطتا تجارة رومانية، "أريكاميدو" و"موزيريس". بالطبع كان يعيش فيها أيضا مصريون، كما تقول الوثائق المصرية المكتوبة. كان التجار "اليافانيون" يزورون أيضًا المناطق الهندية الأبعد فى الشمال، وكانوا يحضرون إلى موانئ "بارباريكون" عند مصب نهر "هندا"، و"باريجازى" حيث كان يبدأ الطريق التجارى إلى مملكة الكوشان. كان هؤلاء التجار يعتبرون أن من واجبهم، عند حضورهم إلى الهند، أن يقدموا تبرعات فى المعابد البوذية الموجودة فى الكهوف، من أجل إنهاء رحلتهم البحرية بنجاح، أو من أجل نجاح تجارتهم. كان الرحالة الهنود يتصرفون أيضًا بنفس هذه الطريقة، عند وصولهم عن طريق البحر إلى مصر؛ فكانوا يتركون على الطريق الكبير من موانئ البحر الأحمر إلى "كوبتوس" كتابات شكر موجهة للآلهة. وقد فعل ذلك، على سبيل المثال، شخص اسمه "سوفون"، فقد ترك كتابات شكر للإله "بان".

يمكن تتبع طرق التجار المصريين من الموانئ الهندية إلى عمق آسيا بتتبع كنوز العملات الرومانية، ولكن كمياتها فى شمال "هندوستان" أقل كثيرًا بشكل واضح، فمعروف بها فقط خمسة كنوز، وكلها مركزة بشكل متجاور جدا فى منطقة

واحدة، بالقرب من التفريعة الكبيرة لنهر "هندا". كانت توجد هنا فى الزمن الذى سبق الكوشان، المملكتان الهندية اليونانية والهندية الأسكوثية، التى لم تختفِ فيها العادات الثقافية اليونانية بعد ذلك فى مملكة الكوشان. كان الناس هنا يعرفون اللغة اليونانية والمعمار اليونانى، وقد سك أول حكام الكوشانيين عملات عليها نوعين من الكتابات اليونانية و"الكخاروشتخية" (نوع من الكتابة الهندية القديمة). وكانت توجد على طول الطريق، المار عبر "البنجاب" إلى "باروباميسادى" وباكتريا، منشآت بوذية مقدسة، "ستوبا" عثر بها على عملات رومانية متآكلة للغاية من العهود الجمهورية والإمبراطورية، من القرن الأول إلى القرن الثالث الميلادى، كما وجدت أيضًا فى هذه الكنوز عملات الملكين الكوشانيين المعروفين "كانيشكى الأول" و"هوفيشكى"، ولآلئ ثمينة وأشياء أخرى ثمينة.

هل كانت هذه تبرعات قدمت لبوذا، قدمها التجار المصريون؟، أو أن هذه الكنوز على الأرجح كانت مقدمة من أتباع ديانته المحليين؟ فقد كانت تحفظ فى "الستوبا" آثار وأشياء ثمينة جدا.. وبهذه الطريقة كانت علاقات التجار المصريين غير محددة فى الموانئ الهندية فقط؛ حيث إنهم دخلوا إلى عمق باكتريا، وأحضروا معهم معلومات عن بلدهم وعن عظمة حاكمها وآلهتها وعاداتها، وعن مدى غنى أرضها وحضارتها.

وقد عضدوا رواياتهم بالهدايا وبالبضائع الثمينة المخصصة للحكام المحليين، لذلك كان أول ما يقوم به التجار هو أن يتوجهوا إلى مقرهم، آملين فى الحصول على مساندتهم من أجل نجاح تجارتهم، وكانوا عادة ما يحصلون على هذه المساندة على هيئة "أوراق اعتماد" من الملوك المحليين. أما هؤلاء فكانوا يحصلون من التجار القادمين من وراء البحار على أفخر أنواع النبيذ والزيوت العطرية التى اشتهرت بها مصر، وأجمل ما هو موجود فى العالم من الأوانى الزجاجية

والعملات الفضية والذهبية، والفتيات الجميلات من الحريم، والموسيقيين المشهورين والمشعوذين والمضحكين المهرة، للترفيه عن الحاشية.

كان التجار الأجانب يتمتعون بكل المميزات والتسهيلات التى كانت تحدد وتكتب فى "أرتخشاسترا"(*)، كان يجيء فيها على وجه الخصوص، أنه يجب أن تقدم كل المساعدات الممكنة للتجار البحارة ولأصحاب القوافل، وأن يتم إعفاؤهم من أى رسوم تطلب لكى يقوموا ببيع بضاعتهم. ادفع النسبة المقررة من ثمن كل البضائع، والتى كانت تمثل خمس قيمتها (وهى تقل حتى عما كان فى الإمبراطورية الرومانية، حيث كان يحصل جامعو الضرائب على الربع من التجار الأجانب ضريبة جمركية)، [يقولون]: تاجر "مع أجمل الأمنيات". فى الحقيقة كان يجب أيضًا الدفع لحراسة الحدود، والحراسة أثناء السفر، والنقل النهرى عبر المعابر (وهى كثيرة جدا فى الهند)...

وعلى الرغم من ذلك كانت التجارة مجدية، وإلا لما كانت قوافل كاملة من السفن التجارية قد خرجت من مصر- لايقل عددها عن ١٢٠ فى السنة- بدءًا من شهر أغسطس كما كتب سترابون. وعلى الرغم من استياء "تيبريوس" Tiberius من ترف الأرستقراطية الرومانية المدمر (الذى اضطره للتوجه إلى مجلس الشيوخ بخطاب كتب فيه "أموالنا تذهب إلى الغرباء أو حتى إلى الشعوب المعادية فى مقابل الأحجار الكريمة") فإن التجارة مع الهند لم تتوقف. ومهما كان كبر الأرقام التى ذكرها "بلينى" عن التجارة مع الشرق، وخاصة التجارة مع الهند، التى كانت تبتلع على التوالى ١٠٠ مليون "سيسترتيى" فى السنة [الشرق] و٥٥ مليون [الهند]، فإن التجارة استمرت لأنها كانت مربحة.

(*) مجموعة قواعد خاصة بالحكم فى الهند القديمة. (المترجم)

كان التجار يغطون مصاريفهم ومخاطرتهم، فتكلفة توصيل البضاعة تعدت ثمنها الأول بمئة ضعف، كما كتب بلينى الأكبر. فإذا كانت التجارة تتم فى البداية بأثمن البضائع المخصصة فقط لذوى المقام الرفيع، فإنها بدأت بالتدريج، بعد تولى "فلافى" Flavii الحكم، تصبح أكثر ديموقراطية، وأصبحت مخصصة لفئة أوسع من السكان. هذا يعنى أن الطرق البحرية أصبحت مضمونة أكثر، وأصبحت الاتصالات قائمة ومربحة. وما الذى يكون أهم لتعامل الثقافات مع بعضها بعضًا، من الاتصالات الكثيرة والمنتظمة بين حامليها؟ أناس محددون، أقاموا فى الخارج لفترة طويلة، ويتعاملون مع السكان المحليين، قد يكون تاجرا يتعامل مع زملائه فى السوق، أو وكيلاً تجاريا على اتصال مباشر مع منتج السلعة التى يحتاجها، أو حرفيًا يصنع الأشياء طبقًا للذوق المحلى، أو مبعوثًا عالى المقام قدم نفسه للحاكم المحلى. نحن نعلم عن أنشطة كل هؤلاء الناس، ولكن مرة أخرى، ما يساعد على رفع الستار عن التاريخ هو النشر الأوسع للمعلومات التى فى المصادر المكتوبة والأشياء المادية المحددة.

كانت المدينة العاصمة "كابيسا"، التى ذكرها الجغرافى الرومانى "بطليموس"، كانت توجد فى باروباميسادى، على الطريق بين الموانىء الهندية وباكتريا، وقد كانت مقرا للحكومة المحلية، التى كانت تنفذ أوامر ملك ملوك الكوشان. كان كثيرًا ما يحضر التجار السكندريون إلى هنا، تمامًا كما كان يحضر التجار الصينيون والهنود، لذلك كانت خزينة القصر ممتلئة بكل أنواع الأشياء الثمينة القادمة من الإمبراطورية الرومانية، ودولة سلالة "خان"، والدول الهندية الكثيرة، سواء الكبيرة أو الصغيرة منها، كما كانت توجد هنا أيضًا منتجات صناع شرق البحر المتوسط، ومنتجات الطلاء والعاج المنحوت.

كونت كل هذه الأشياء التى لا تقدر بثمن، مجموعة ثمينة، تم جمعها على مدى ١٠٠–١٥٠ سنة، وحفظت فى حجرتين خاصتين بخزينة صاحب القصر

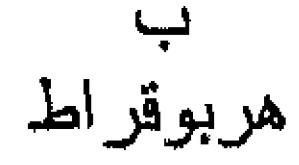
المحلى، حتى ظهر هنا "شابور" فى عام ٢٥٠ م، وحول المدينة إلى أطلال. وقد أنقذ هذا الكنز بمعجزة من أن يستولى عليه المحاربون الجشعون الطماعون بالجيش "الساسانيدى" لأنه يبدو أنهم لم يجدوه، ولكن ظهر أن العصر الجارى كان أقسى، فقد فنى هذا الأثر وكذلك المتحف الذى حفظت به معروضات لا تقدر بثمن، فى أتون حرب نهاية القرن العشرين.

ولكن ما الذى كان يتم جلبه من حدود مصر إلى نائب مدينة كابيسا، الواقعة على نهر "كابول"، بالقرب من مدينة كابول الحديثة (منطقة بجرام)؟ كان من المعتاد فى الإمبراطورية الرومانية، أن يتم إحضار هدايا لملوك الأراضى الأخرى، عبارة عن تماثيل للآلهة التى تقدس فى تلك البلاد. كان يحدث ذلك عند زيارة العواصم "البارفية"، وملوك جنوب شبه الجزيرة العربية، وكذلك عند السفر إلى مملكة الكوشان. كان التجار السكندريون يجلبون معهم المنتجات الفنية – "التارفتا" السكندرية، ومنها تماثيل برونزية صغيرة لهرقل– سارابيس وهربوقراط مصنوعة بمهارة (شكل ٤٨). الإله الحامى والمحارب بعضلات جسمه الجبارة، وهراوة فى إحدى يديه وتفاحة فى اليد الأخرى، وعلى رأسه تاج فوق تسريحة شعره المجدول، وأيضًا على وجهه لحية، وعارٍ تمامًا، وهو يظهر كأنه يتحرك، فقد قامت قدمه اليمنى بخطوة إلى الأمام، وجسمه كله مشدود. عظمة هذا الإله السكندرى معروفة فى كل العالم.



أ
هرقل– سرابيس

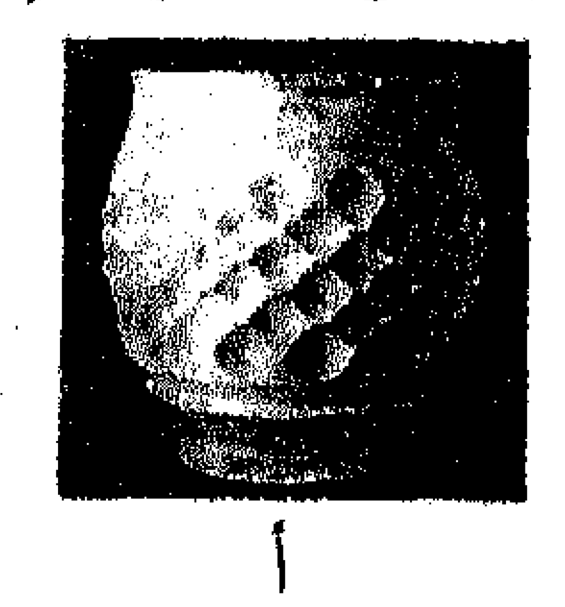




ب
هربوقراط

(شكل ٤٨) تماثيل برونزية من بجرام (طبقا لج.أكين)

وها هو الوجه الجميل للفتى، رأسه مائلة بمداعبة إلى كتفه، وقد وضع إصبعه على خده. هذا ليس مجرد فتى، ولكنه الإله العظيم لمصر العليا والدنيا "حورس" فى صورة طفل صغير، ويستدل على ذلك من التاج المزدوج الذى على رأسه. بالطبع كانت هذه هدايا مستحقة للحاكم الصديق، كما كانت توجد أشياء أخرى من منتجات الصناع المصريين مخصصة للحكام المحليين. كانت هذه الأشياء عبارة عن كئوس مزخرفة متعددة الألوان من الزجاج المعتم، عليها صور من الأساطير اليونانية ومن الحياة اليومية، فها هى مناظر للاستيلاء على "تروى"، وها هى مناظر محببة فى مصر لقيام نساء بعمل ضفائر من الزهور، ولصيد الوحوش وصيد الأسماك. كانت توجد أوانٍ أخرى لا تقل عنها فى القيمة، عليها طبعات مضغوطة على شكل خلايا النحل (شكل ٤٩). ومن بينها أشكال مختلفة: كئوس عالية ممشوقة الشكل، أو على العكس قصيرة ومنفوخة، وفازات وقصعات وأكواز. وقد أظهر الفنانون وصانعو الزجاج المصريون المعروفون قدرة فنية كبيرة بصناعتهم لكئوس عالية بنقوش مقصوصة لصقت على جدران الأوانى على هيئة شريط زجاجى رفيع. تبين إحدى الملصقات على أحد الكئوس منظرًا للميناء السكندرى القديم، حيث تقف منارة الإسكندرية "فاروس"، ويصارع بطل وحشًا بحريا وتسبح سفن كبيرة وقوارب، وسفن شراعية. كانت كل هذه أوانٍ صنعت فى أزمنة مختلفة، من القرن الأول إلى القرن الرابع م.



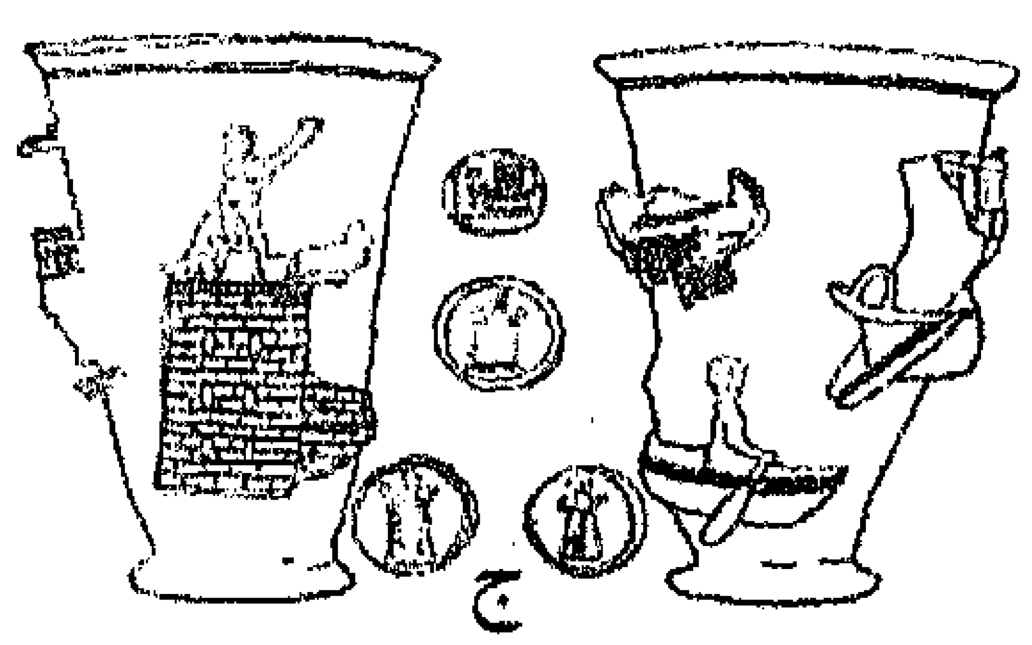
أ

إناء بزخرفة على هيئة خلايا النحل.



ب

آنية بملصوق مزخرف.



ج

آنية عليها رسم لمنارة الإسكندرية.

(شكل ٤٩) أمثلة للأوانى السكندرية، التى عثر عليها فى بجرام "أفغانستان" (طبقا لج.أكين)

لم تقل قيمة مجموعة الأنواط المصنوعة من الجبس التي تحمل رسومًا بارزة لأحداث من الأساطير اليونانية، ومشاهد للإله "أدونيس" وتقديم الضحايا، وهي مغطاة بزخارف من النباتات. كانت هذه الأنواط تصنع ليصب فيها فيما بعد معدن بهذا الشكل باستخدامها، منها معادن نفيسة، الذهب والفضة. كانت المسبوكات تستخدم زخرفة للمرايا وعلب أدوات الزينة والأواني. كانت تحفظ في الخزينة أيضًا لهذا الغرض، ولم تكن تجلب فقط للخزينة البجرمية. وقد تعلم الصناع الباكتريون والتاكسيليون والماتخريون بسرعة عمل نسخ من الأنواط المستوردة. ولكن كان عليهم، من أجل ذلك، أن يعرفوا تقنية التعامل مع الجبس، الذي كان يسمى هنا "جانتش". وقد تعلم الصناع المحليون ذلك منذ العهد اليوناني الباكتري وبمساعدة اليونانيين، الذين تعلموا صناعة الجبس في مصر، ومنها انتشرت أولاً في العالم اليوناني الروماني القديم، ثم بعد ذلك في الشرق. بعدما تعلموا هذه الصنعة شيدوا المباني المرتكزة على رءوس أعمدة على الطراز اليوناني، الذي كان منتشرًا في الأعمال المعمارية اليونانية الباكترية.

كانت قوالب التماثيل الصغيرة تصنع باستخدام تقنية الجبس، كانت التماثيل والأنواط تصنع بعد أن كان يتم نسخ أشكالها من النماذج المستوردة. وقد تم، في العصر الكوشاني، استبدال أشكال محلية تمثل الآلهة الإيرانية والبوذية المحلية بهذه الأشكال. كان يمكن مشاهدة رسوم لكل من "ديونيس"، والإيراني "أناخيتو" بقرن الخصوبة نفذت عليها بخشونة. كان أسلوب الرسم مقتبسًا، مرة أخرى، من التقليد الفني اليوناني. وليس معلومًا على وجه اليقين من أين أحضرت الأنواط الجبسية إلى بجرام. ولكن بناء على أحدها، يمكن أن نفترض أن كل الأنواط الأخرى (الشبيهة له من ناحية الطراز والأسلوب الفني) أيضًا قد أضيفت إلى هذا الكنز بواسطة التجار المصريين. كانت مرسومة عليها إيزيس فاروس، مضطجعة على فراش على هيئة زورق بمجداف تحت ظل معبد ورسم لرأس أسد (شكل٤٦).

حضر التجار المصريون أيضًا إلى مدينة "تاكسيل" التـــى لا تقــل شـــهرة، والواقعة على الفرع الكبير لنهر "هندا"، الذى كان الطريق يمر مـــن عنـــده إلـــى "باداخشان" و"كشمير" و"بكتريا" عبر كابيسة. وقد أحضروا إلى هنا أيضًا رمـــوزهم التى تمثل أشكال الآلهة. أحد التماثيل مـــشابه تمامـــا للتماثيـــل البجرميـــة، يمثـــل هربوقراط. ولكن إصبعه، كما هو مفترض، موضوع على شفتيه، وهو أيضا مرتدٍ رداءً خفيفًا. أما النوط المعدنى فهو يمثل الطفل هربوقراط جالسا فى زهرة لـــوتس متفتحة، وله هنا أجنحة مثل إله الحب اليونانى "إيروس" Eros . لقد اقتبس شـــكله القديم هذا كل من الفن الخندخرى واليونانى البوذى، فى العصر الرومانى. ولكـــن بداية تكوينه ترجع إلى عصر سابق، إلى عصر الهيلينية.

كان الملك "بور" يحكم مدينة "تاكسيل" المجيدة، حيث كـــان خـــصمًا قويـــا للإسكندر الأكبر فى ميدان المعارك، ثم أصبح فيما بعد صديقًا وفيا له، وقـــد رثـــاه من أعماق قلبه عند موته، كما أنه خلد ذكرى المقدونى العظيم بإقامة حرم مقـــدس له فى أحد المعابد احترامًا له. كانت جدران المعبد والحرم مغطاة برسوم تبين مآثر كل من الإسكندر وبور، كما صنعت لهما تماثيل وأشياء مقدسة من النحاس والذهب والفضة. هنا لا يمكن الحكم على مقدار الأسطورة أو الحقيقة، فذلك غير معروف، ولكن على أية حال فإن انتصار اليونانيين فى "البنجاب" يتوج انتصارات الإســـكندر المقدونى فى آسيا الوسطى وفى الهند، التى تكونت فيها الدول الهنديـــة– اليونانيـــة بسرعة، حيث لم تخبُ مراكز التقاليد الثقافية اليونانية.

كانت حصونها هى المدن القديمة والمجددة التى أسسها الإسكندر الأكبر، من "سيردارى" (الإسكندرية البعيدة و"خودجنت" القديمة فى شمال طادجكـــستان)، إلـــى "الهند" (الإسكندرية فى دلتا نهر الهند). لقد أنشئت كلها على طراز المدن اليونانية، وكانت مشابهة لها بما فيها من مدارس ومكتبـــات حفظـــت فيهـــا المخطوطـــات اليونانية، ومن معابد شيدت طبقًا لشكل المعمار اليونانى الذى قام بعد ذلـــك البنـــاة

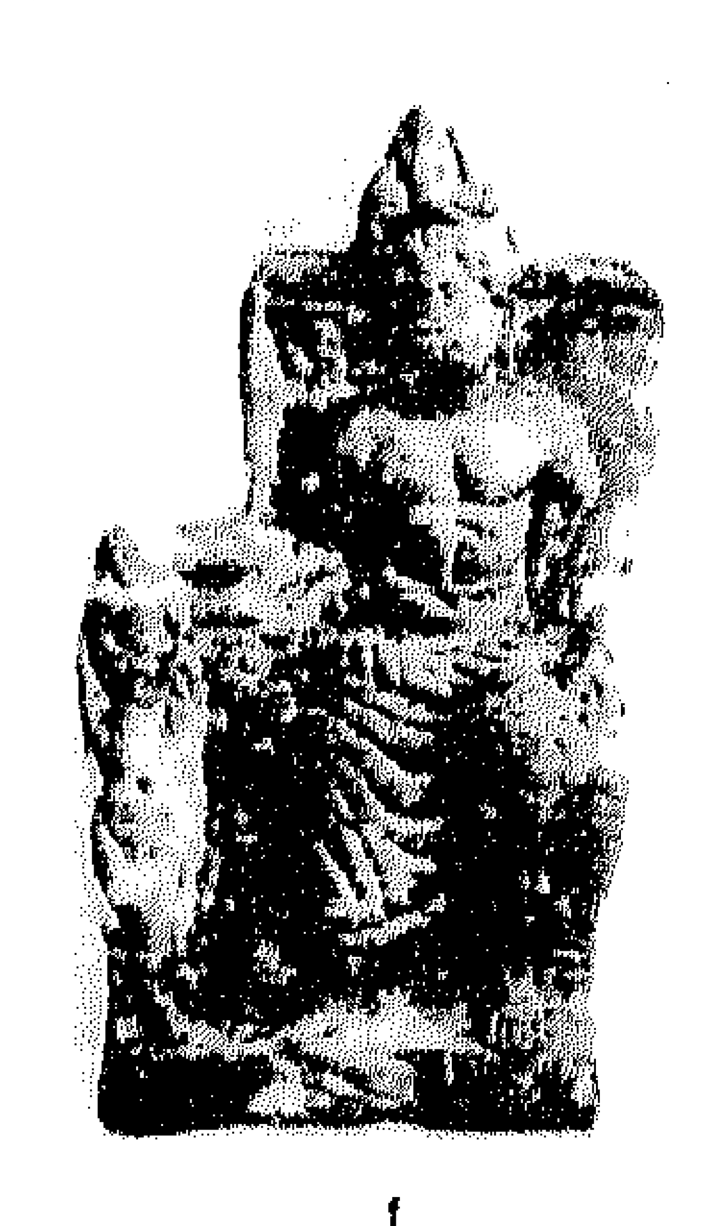
المحليون باقتباسه ، ثم فى النهاية بما فيها من تماثيل الآلهة اليونانية، فلم يربط "سدا أريان" (كاتب ومؤرخ يونانى قديم) وغيره من كتاب عصر الحضارة اليونانية الرومانية القديمة هذه المدن بالموكب المظفر لآلهة اليونان: "هرقل"، و"ديونيس" إلى الهند. ولكن هنا يجب أن يفهم أن معنى كلمة "الهند" بمفهوم أوسع، حيث إنه يشمل أيضًا آسيا الوسطى. يمكن أن تفهم هذه الانتصارات للآلهة اليونانية، حرفيا تقريبا بجرأة، حيث إن دياناتها قد أنبتت جذورًا عميقة بدرجة كبيرة.

الآلهة اليونانية والمصرية، واقتباس أشكالها فى وسط آسيا والهند

كان ديونيس وهرقل إلهين يتمتعان بشعبية كبيرة فى كل من الدولة اليونانية- الباكترية (أعوام ٢٥٦-٥٥ ق.م) وإمبراطورية الكوشان فى القرون من الثانى ق.م إلى الثانى م، ولكنهما بمظهرهما العام، لم يكونا إلهين يونانيين، ولكن إلهان محليان، يذكراننا فقط بصفاتهما بصورتهما الأصلية. لقد كتب "فلافى فيلوسترات" عن الهياكل التى عليها الكثير من الكتابات المكرسة لكثير من الآلهة اليونانية هرقل وأثينا وزيوس وكبيرى وهليوس وآخرين. وقد نسب إليهم أيضًا إلهًا مصريا، لقبه باسم أبو "أمون"، فيبدو أن بطل قصته "أبالونى ألتيانى" الذى جاء إلى "متخور" قد رأى تماثيلها، كما أن المؤلف مجهول الاسم للعمل المعروف "رحلة إلى البحر الإريترى" قد كتب عن الأماكن المقدسة فى "أرياك" الواقعة فى شمال غرب هندوستان، حيث كانت تقدس الآلهة اليونانية، فى القرون الأولى الميلادية. قد يكون الحديث فى هذه الحالة أيضًا يتناول تطابق الآلهة المحلية، مع الآلهة اليونانية. وقد تجسد تأثير الفن اليونانى على الفن الهندى فى أشكال الآلهة المحلية. فإن بوذا نفسه قد "اقتبس" رسمه من أبوللو. وكل هذا عبارة عن نتاج وجود الدولة اليونانية-

الباكترية لزمن طويل فى آسيا الوسطى وفى الهند، حيث إن فنها ورث أيضًا لإمبراطورية الكوشان، ولكن فى تركيبة من العادات الثقافية أكثر تعقيدًا.

وفى الوقت نفسه فى الحقيقة، إن عبادة الآلهة الغربية قد بقيت فى هذه المناطق البعيدة، وليست الآلهة اليونانية فقط، ولكن المصرية أيضًا، فقد جلبت تماثيل سرابيس وهربوكرات من مصر منذ العصر الكوشانى. وبجانب تماثيل بجرام وتاكسيلا، عرفت تماثيل أخرى تجسد الآلهة المنحوتة فى مدينة "خطان" البعيدة، المعروفة لكل من سار فى قافلة إلى الصين، عبر الطريق الجنوبى بتركستان الشرقية على طول منحدرات "كون- لون" الشمالية، عثر على تمثال صغير من الطين المحروق، يمثل سرابيس جالسًا على العرش الذى يقف بالقرب منه هربوقراط واضعًا إصبعه على فمه. كما عثر أيضًا فى مدينة "تورفان" على الطريق الشمالى عبر تركستان الشرقية، على تمثال لهربوكرات من الطين المحروق يلبس رداءً رومانيا، ويده على فمه، وشعره مجعد كثيف ومنفوش، يجلس على ظهر فرس يرفع قدميه الأماميتين. وهنا أيضا قدم هربوقراط وعلى رأسه تاج مصر المزدوج الذى يمثل مصر العليا ومصر الدنيا (شكل ٥٠).





أ هربوقراط على حصان، من تورفان (طبقا لأ.ميار)

ب سيرابيس مع هربوقراط، من خومان (طبقا لأ.ميار)

شكل (٥٠) تماثيل الطين المحروق من تركستان

عامة فقد عثر فى المدن التجارية المهمة، الواقعة علـــى طـــول الطـــريقين العابرين لتركستان الشرقية بغرب الصين، على منتجات مـــصرية، مـــن النوعيـــة نفسها من التمائم المصنوعة من الخزف، والتى تمثل عضو الذكورة وعلى شـــكل أوانى أمفورا صغيرة، وكذلك خرز على شكل قرع عسلى. وقد عثر عليها أيـــضًا فى "لوولان" فى الطرف الشرقى لتركستان، حيـــث يلتقـــى الطريقـــان الجنـــوبى والشمالى، فى منطقة البحيرة الشاردة "لوبنور". هل جاء التجار المصريون إلى هذه الأراضى البعيدة؟ أو حضر إليها ممثلوهم التجاريون؟ أو جلبها تجار جنوب آســـيا الذين مارسوا التجارة مع الصين وعاشوا فى مدن تركستان الشرقية؟ من الـــصعب الرد على هذا السؤال. ولكن العلماء الذين أمسكوا بتمثال خوتانى فى يدهم، يؤكدون أنه مثل التمثال التورفانى، على الرغم من أنه يرقى إلى النماذج الفيومية الأصـــلية المصرية، إلا أنه يختلف عنها بخشونة تنفيذها، فسرابيس يذكرنا أكثر بساتير.

يتم طرح هذه الكلمات نفسها عن إمكانية الصناعة المحلية لتماثيل هربوقراط الصغيرة التى وصلت إلى تجار الآثار بكابول، والمحفوظة الآن بمتحف "بروكلين" (شكل ٥٤ –٧). لا تختلف طريقة تشكيل وقواعـــد هـــذا التجـــسيد لهربـــوكرات بالأسلوب الهيلينى عن الكثير من التماثيل المماثلة الأخرى، ولكن يوجد خطأ ما فى وقفته تثير الشك فى أصلها الغربى، أما وجهها فيذكرنا تمامًـــا بشخـــصيات الفـــن الهندى اليونانى، والخندخارى.

ولا يوجد فى ذلك أيضًا أى شىء غريب، فقد نسخ الكثيـــر مـــن الأشـــياء المستوردة، ومنها التمائم المصرية، وقد تم تقليدها فى وســـط آســـيا واســـتخدمت لصناعتها مواد أخرى: الكريستال والذهب ومواد أخرى. كان أسلوب تمثيل الآلهـــة اليونانية الهلينية والمصرية مقتبسًا مباشرة فى الفن البوذى للكوشان العظـــام. أمـــا سرابيس فكان يطبع على عملات ملوك الكوشان بالإضافة إلـــى الآلهـــة اليونانيـــة

جفست وهليوس وهرقل، وكانت أسماء الآلهة تنقش فقط بالكتابة المحليـــة، بـــالخط الباكترى.

العملات بالذات هى التى يمكنها أن توضح السؤال عما إذا كانت قد اقتبست أشكال الآلهة الأجنبية فقط، أم أن هذا السك الحكومى يعكس وجود ديانتهم الفعليـــة فى مملكة الكوشان، فإن قيمة العملات عالية أيضًا لأنه قد رسمت عليها شخصيات ذات نفوذ، لا تمثل فقط أيديولوجية السلطة، ولكن أيضًا قيمًا دينية مهمة. فلا يوجـــد شك فى أن التصورات الدينية للكوشان استمدت الاقتباسات من الخـــارج بطريقـــة انتقائية بما يناسبها. كانت تسك العملات باسم الحاكم"الملك"، أى أنه كان للألوهيـــة التى تقدم على الوجه الآخر، علاقة مباشرة بالملك المرسوم علـــى الوجـــه الأول. وبذلك تكون الآلهة المجسدة على العملات الكوشانية ممثلة لفكرة التأييـــد الإلهـــى لسلطة الملك، كما أنها ترمز إلى الوفرة والازدهار وقوة القصر الحاكم الحربيـــة، والتى تقرها الآلهة (شكل ٥١).



ب أ

(أ) و(ب) عملات الملك خوبيشكى (طبقا لر.جبلو)

د ج

(ج) و(د) عملات سكندرية لفسبلسيان ودميتسيان (طبقا لر.بولى)

(شكل ٥١) عملات عليها رسوم سرابيس

كانت الرموز المماثلة لقرن الوفرة والتاج الممثلة للصفات المميزة للآلهة، كأنما تهدى للملك. كانت الآلهة اليونانية هليوس وجفست وهرقل تمثل على عملات الملكين الكوشانيين "كانيشكا الأول" و"خوفشكى" بجانب الآلهة الإيرانية. أما عملات "خوفشكى" فقد ظهر عليها أيضًا الإله اليونانى الرومانى سيرابيس. لهذه الآلهة أشكال وأدوار موازية لأشكال الآلهة الإيرانية والهندوسية ميترا وأنتيش وشيف، المرسومة على العملات الكوشانية، والتى تجسد عبادة الشمس والنار والإله المحارب.

شكل سرابيس الأخير أيضًا قريب من شكل الآلهة الإيرانية والهندية (فلنتذكر تمثال هرقل- سرابيس من بجرام). ليس من المستبعد أن سرابيس قد عكس فى المجتمع الكوشانى أيضًا أدواره الأصلية فى الألوهية الأسرية، التى ولدت فى مصر البطلمية، لأن الديانة الأسرية قد لعبت أيضًا دورًا مهما فى المجتمع الكوشانى. يمكن أن نطابق تمامًا نموذج سرابيس مع "شيفا" الهندوسى، فلنلاحظ فقط ارتباط كل منهما بالثور، بالإله المصرى أبيس والإله الهندى "تانديم" على التوالى، وبالعنصر البحرى، وكذلك بتصور الخصوبة التى يرمز لها عضو الذكورة. يلاحظ أن الملك "فاسيشكا"، الذى جلس على العرش الكوشانى بعد "خوفيشكا" قد رسم على عملاته "شيفا" فقط، وألغى كل الآلهة الباقية. ألا يبين هذا أن إله أسرة واحد منح الملك السلطة واستبعد كل الآلهة الأخرى، كما أنه من غير المستبعد أن استئثار أحد الآلهة فى البنتيون مرتبط بشكل ما بمفهوم الإله المنقذ. وقد تمكنت هذه الفكرة الدينية من أن تتأسس فى الإمبراطورية الكوشانية بواسطة نموذج سرابيس، الذى عزى إلى مجموع الآلهة المنقذة فى عالم الحضارة اليونانية الرومانية القديمة.

لقد تم تمثيل سرابيس على عملات الملك الكوشانى "خيفوشكا" بإحدى الصورتين المرسومتين، اللتين تمثلانه على العملات السكندرية فى العصر

الرومانى، فقد تم تقديمه فى عملات إمبراطورات أسرة "الأنطونيين" جالسًا على العرش (كما فى المصنعات من الطين المحروق فى خوتان) وواقفًا. ولكنه لم يعد فى الرسوم الكوشانية سرابيس اليونانى المصرى. ففى هذه الحالة انعكست عليها التقاليد الفنية المحلية، كان العرش ينتقل بطريقة جبهية صارمة، وهو ما يختلف عن القواعد الغربية، وكذلك كان الإله يتربع على واجهته بصرامة. كانت تسريحة شعره المصفف فى ضفائر ترسم على هيئة دوائر متعددة، كما كان ذلك متبعا فى رسوم العملات الكوشانية، كما يظهر هنا أحد الملامح الأخرى للرسم الكوشانى، وهو رسم أرجل الشخصية المرتدية لسروال فضفاض وقدماه مدارتان إلى الخارج. ولكن ها هو اسم سرابيس قد حفظ، على الرغم من أنه قد كتب باللغة الباكترية المحلية. ولكن كون اسم الإله الأجنبى سرابيس قد كتب على العملات الكوشانية، فهذا يدل على أهميته للثقافة المحلية الكوشانية.

تتضح أيضًا الطرق التى "وصل" بها نموذج هذا الإله اليونانى المصرى إلى آسيا الوسطى، فالمؤلف مجهول الاسم يذكر فى عمله " رحلة إلى البحر الإريترى" جزيرة ماسيرا، الواقعة عند الطرف الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية باسم سرابيس. وهذا ليس غريبًا لأن البحارة المصريين كانوا يعبدون سرابيس، كما عبده البحارة غير المصريين أيضًا. يبدو أنهم هم الذين أطلقوا هذا الاسم على الجزيرة تكريما للإله، الذى يضمن إتمام الرحلة البحرية بنجاح، خاصة على هذا البعد من مصر. ولا يمكن أن تعتبر هذه الظاهرة فريدة، حيث توجد فى العديد من العادات الأسطورية والشعبية.

كما أن التجار المصريين أو السفراء أحضروا إلى بلاط الحكام بجنوب شبه الجزيرة العربية تماثيل آلهة الثالوث السكندرى: سرابيس، وزوجته إيزيس، وابنهما هربوقراط. كان هذا هو تصرفهم عند زيارتهم لدولة الكوشان. بذلك تكون جغرافية

رحلات النساك المصريين من مختلف الفئات والمهن قد فتحت للآلهة المصرية الطريق إلى الشرق، حتى أبعد أراضى العالم القديم، ولكن لم تستبعد الطرق البحرية أبدا دور الطرق القارية التجارية الاجتماعية الثقافية. والأخيرة لا تستعرض دائما بحكم خصوصيتها، حيث إنه عادة ما تصل مظاهرها الخارجية غير مكتملة إلى الباحثين أو عن طريق استنتاجات المؤلفين القدامى، مما يُصعب من فهمها تاريخيا.

يمكن أن تكون آسيا الوسطى قد تعرفت على الإله اليونانى المصرى "سرابيس" قبل العصر الرومانى، عندما وجدت الدول اليونانية الهيلينية: السلفكيدية، والبطلسية، واليونانية الباكترية، التى ورثت حركة الثقافة اليونانية الرومانية إلى الشرق. وفيما يلى أحد الأمثلة على ذلك.

عثر فى مدينة "ديلبيردجين" (أفغانستان) على "إنتاليا" Intalia من الجادنت Jadent فى الطبقات الأثرية التى ترجع إلى العصر الكوشانى، عليها رسم جانبى لوجه سرابيس مميزًا للإمبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والثانى ق.م. ولكن هذه القطع تعتبر من الصناعة المحلية، حيث إن الإنتاليا لم تستخدم فى عصر الحضارة اليونانية الرومانية القديمة، كما أن مواقع استخراجها التى تقع فى منطقة "بامير الشرقية" بين كاشجار وخوتان قد استخدمت فى قديم الزمان. وأيضا قد تكون النماذج الأصلية لهذا الرسم قد وصلت إلى هنا عن طريق "الدولة السيليكيدية". تدل على ذلك، بطريقة غير مباشرة، الكتابات المكرسة لسرابيس القادم من جيركانيا، حيث من المعروف أنه كان يوجد معبد لهذا الإله، تم بناؤه للمهاجرين من مصر، الذين كانوا يعيشون فى الحدود الشرقية لدولة السيليكيد، وكذلك للتجار المسافرين عبر طريق القوافل.

سار تاجر منهم كما يبدو، من سماريا (بالقرب من الفيوم)، على الطريق البرى إلى الهند، ولم يتحمل عناء الطريق فمات بالقرب من سوز، القريبة من

"كرمانشاه"، فى حدود القرنين الثالث والثانى ق.م. تقريبًا. ويستدل على ذلك من الكتابة اليونانية التى على حجر قبره. وقد وجد معبد لسرابيس منذ عصر "أنتيوخ الأول" و"ستراتونيك"، فى سنوات (٨٠-٦٠) من القرن الثالث ق.م. كان يمكن لأحد هؤلاء التجار إحضار إنتايليا عليها رسم سرابيس إلى "ديلبرجين" القديمة، ثم قام الصناع الصاغة المحليون بنسخه منذ عصر الدولة اليونانية الباكترية، وقد بقيت حتى العصر الكوشانى.

كان يمكن أن تكون رسوم سرابيس فى ذلك الوقت كثيرة، لأن الاتصالات بين تلك الدول الهيلينية الشرقية لم تنقطع، كما أن الطرق البحرية كانت فى مرحلة التأسيس، كما قد تكون العلاقات مع مصر البعيدة كانت (وهى قد كانت) عن طريق وسطاء. فقد كان عدد التجار المصريين الذين قطعوا طريق الحرير العظيم إلى آخره قليلا. عامة، كانت التجارة تتم إلى بعد معين، ثم كانت البضائع تستمر فى طريقها إلى أبعد من ذلك، إلى الشرق مع ملاكها الجدد، وفى الوقت نفسه كانت تصنع نسخ محلية من الأشياء المصرية المستوردة. كان ذلك يحدث على الأرجح، عندما كان يتوقف توفر هذه البضائع المستوردة فى السوق هنا لسبب أو لآخر. ولكن كما قلنا قبل ذلك، ففى القدم كانت للأشياء معانٍ متعددة. فقد كانت التمائم الخزفية المصرية تقيم، ليس فقط بسبب ثمنها الزهيد، ولكنها كانت أيضًا تعكس ديانات محددة، كما أنها كانت تعتبر أحجبة. لذلك كان الطلب عليها كبيرًا، وأدى عدم كفاية كمياتها إلى تصنيعها محليا باستخدام المواد المتوفرة، بدءًا من الأحجار نصف النفيسة إلى الذهب. وبذلك، عندما نتحدث عن الأشياء، فإننا نعنى شكلها الخارجى ومعناها، أى فكرة التجسيد المادى.

يؤدى البعد عن المصدر الأصلى للإنتاج أيضًا إلى تغيير شكل الأشياء الخارجى، وكذلك فكرتها نفسها. فيما يلى مثال على ذلك واضح تمامًا، ففى باكتريا الشمالية، على أرض طادجكستان الجنوبية، تشهد مقابر وتوابيت المدافن الأنتروبويدية ذات الطابع المصرى بصفة خاصة على الثقافة المصرية. بالطبع

كانت تختلف عن المقابر المصرية، حيث إن فكرة التوابيت الأنتروبورفية دخلت إلى باكتريا عن طريق بارفيا، حيث كان يتم إعدادها أيضًا هناك. وعلى الأرجح، وصلت طقوس الدفن فى المقابر الأنتروبويدية إلى بارفيا من مصر عبر سوريا وميسوبوتاميا، منذ عصر المملكة الأخمنيدية. ويدل ذلك بدوره على مدى طول الفترة التى كان من المعتاد فيها استخدام التوابيت الأنتروبويدية فى البعد، خارج حدود مصر، حيث إن عادة استخدامها انتقلت عبر العديد من الثقافات، يفصل بينها كل من الزمان والمكان.

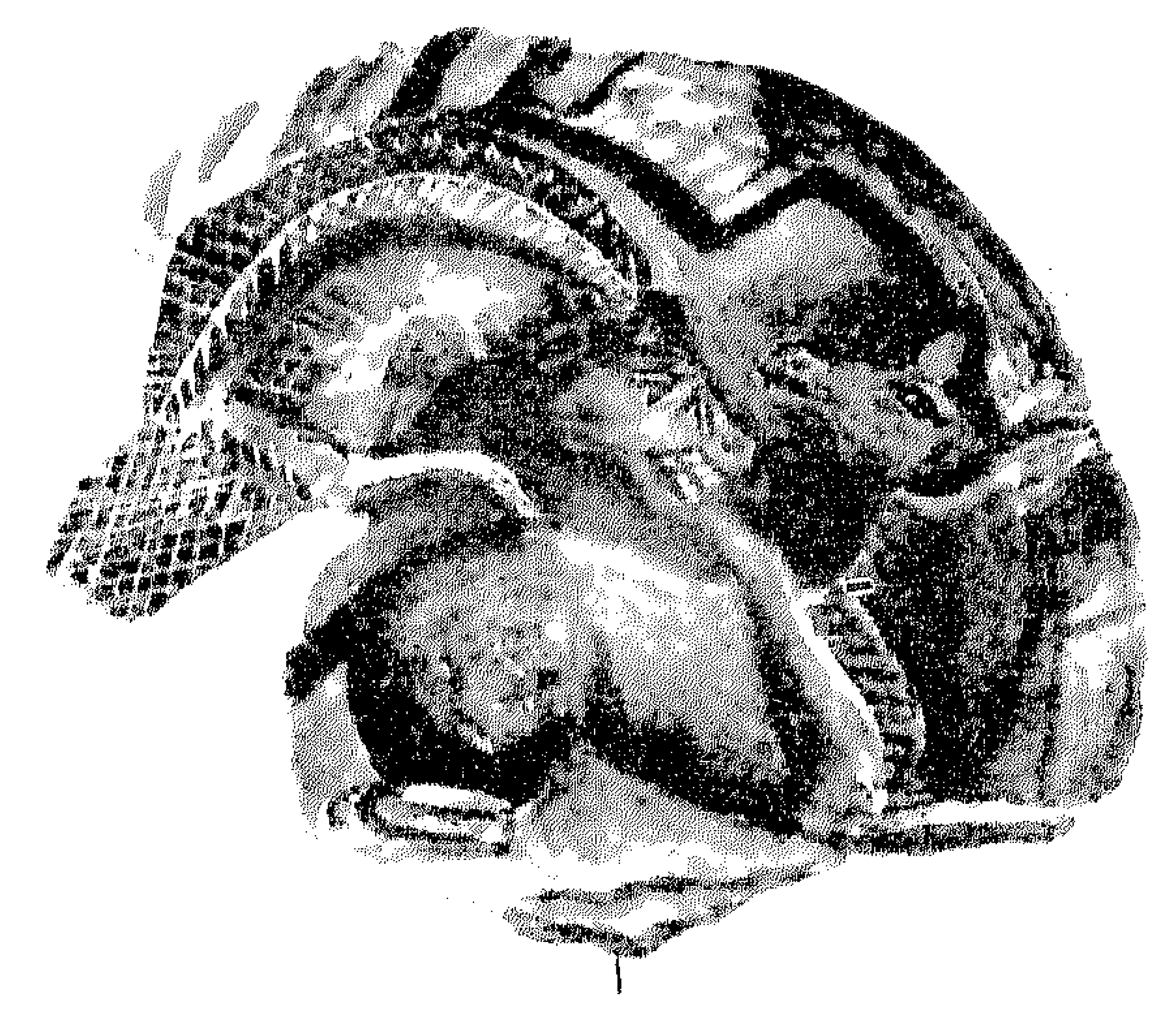
نقدم مثالاً آخر للانتشار المتسع لمنتجات الثقافات الأجنبية كتجسيد مادى لأفكار العالم الرومانى فى كل من باكتريا وخندخار، يوضح هذا المثال الآلية المعقدة جدا للاقتباس وتكوين التعايش المركب للثقافات. تعتبر ما تسمى بأطباق التواليت، التى تصنع من أنواع الأحجار المختلفة المنخفضة الصلابة بحيث يمكن أن تنفذ عليها النقوش البارزة : حجر الحية والإردواز وإستياتيت. وقد تم رسم مختلف النماذج والمناظر على القاع الداخلى لهذه الأطباق غير العميقة: ولائم الآلهة، نفذت بالأسلوب الهندى البوذى، وألوهية البنتويون اليونانى، وشخصيات الأساطير الأسكوثية الساكية، وركاب وراكبات لهيبوكامب "حيوان أسطورى له رأس فرس وجسم حية". كانت هذه المواضيع فى أساسها ترجع إلى فن الحضارة اليونانية الرومانية القديمة (شكل ٥٢).

كما يتضح من هذا السرد، فشىء ما يقرب بين أطباق التواليت الخندرية والباكترية لتقاليد الرسم المصرية، ولكن مثل هذه الأشياء كانت معروفة تمامًا فى مصر فى العصر اليونانى الرومانى، على الرغم من وجود اختلافات، فقد كانت ترسم على الأشياء المماثلة الآلهة المصرية: سرابيس، وإيزيس، وهربوكرات. ولكن لا يمكن استبعاد كون الأطباق المصرية الأصول الممكنة للنماذج الوسط آسيوية والهندية، ولا يتضح ذلك من المواضيع العامة، ولكن من تشابه التفاصيل

(على سبيل المثال، وجود رسم لزهرتى لوتس متداخلتين على الوجـــه الخـــارجى، وزخرفة على هيئة شجرة رأس السنة على التويج، وغيرها).

عند تحدثنا عن أطباق التواليت الجندخارية، فإننا نتنــاول بــشكل أو بــآخر الأشياء التى ترجع إلى نموذج الفن الهندى اليونانى الأقـدم، الـذى انتـشر فـى البنجاب، والذى اندمجت فيه كل من أساليب الحضارة اليونانية الرومانيــة القديمــة وخاصة المواضيع السائدة فى شرق البحر المتوسط، والعادات فى الفــن الهنــدى البوذى مجتمعة. ازدهرت هذه المدرسة الفنية تمامًا فى العصر الكوشانى، فعممــت كل المواضيع الجديدة فى خلال الاتصالات مع العالم الرومانى.

كان فن الصفوة الجندخارى هو فن الطبقات العليا الذى يعكس التــصورات الدينية البوذية، التى أصبح الملك كانيشكا الأول من أنصارها. كــان علــى علــم الجمال المنتمى لهذا الدين، الذى أصبح رسميا، أن يكون معتمدًا على أسس جديــدة للتمثيل الفنى، يمثل نماذج متقدمة للفن الذى كانت عليه التماثيل فى عصر الحضارة اليونانية الرومانية القديمة، التى اكتسبت المجد فى كل العــالم المــأهول. كمــا أن النماذج المصرية أيضًا وجدت لها مكانًا فى الفن الجندخارى. النماذج بالذات وليس رسمها، حيث يمكن أن نتأكد من ذلك بالرجوع للأشياء التى عثــر عليهــا. الفــن الجندخارى، هو فن الديانة البوذية برسومه البارزة فى المنشآت المعمارية. كان من ضمن إحدى مجموعات النقوش من "بوتكارا" (باكستان) أربعة من الرسوم البارزة تمثل شخصيات جالسة على زهرة لوتس. ويمكن أن تميز بينها بدقة إحدى الصور القديمة لتمثيل هربوقراط (شكل ٥٣). ولكن المحتوى البــوذى الفريــد لا يــسمح بالتفكير فى آلية الانتقال الميكانيكى لنموذج هذا الإله الشاب إلى أعماق المــضمون الفكرى البوذى. يمكن أن يتلخص الحديث فقط فى اقتباس نموذج هذا الإلــه، بمــا يعكس شكل الإله المحلى.



أ

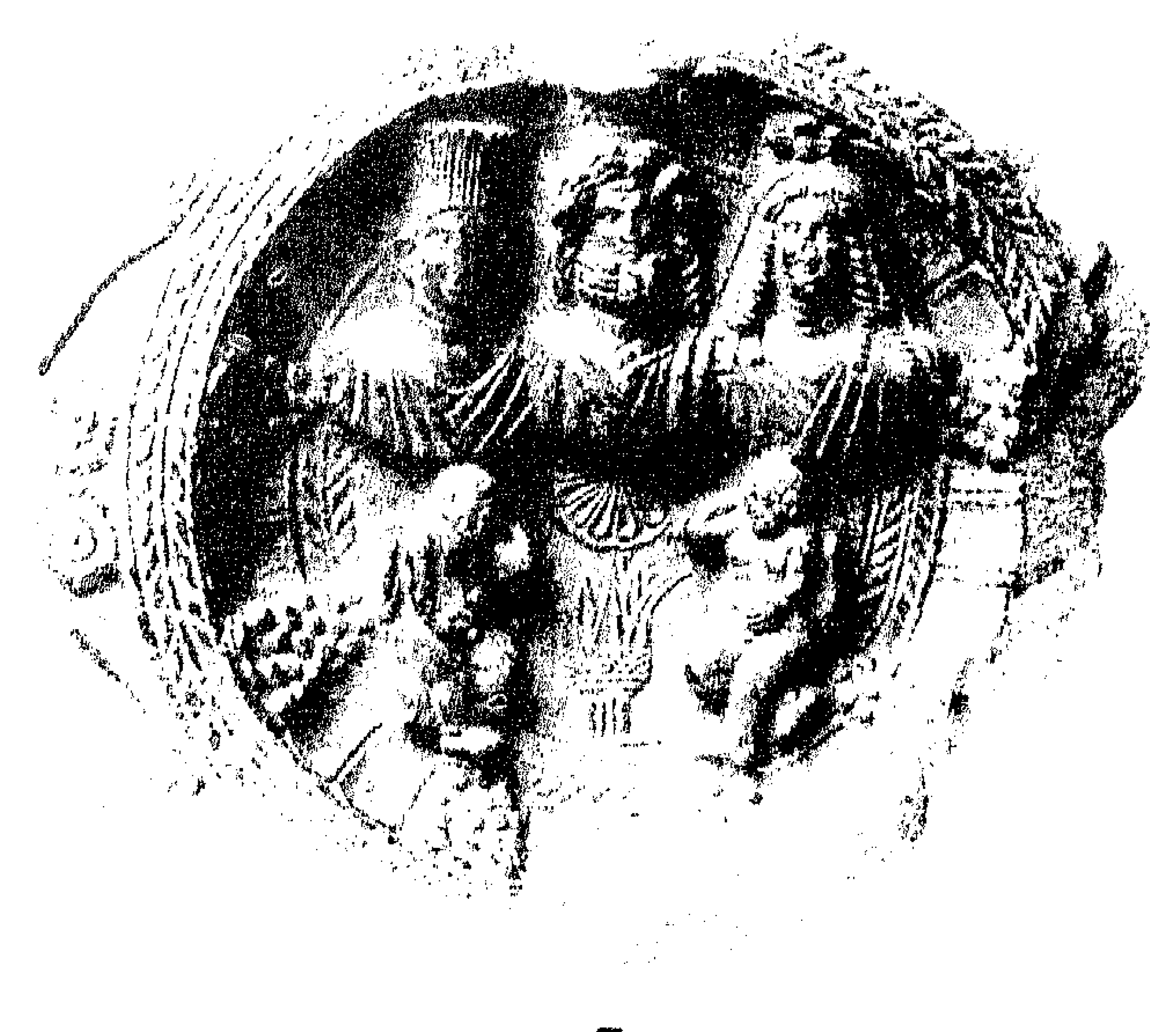
طبق تواليت من ترميز (طبقا لليتفينسكى)



ب

طبق تواليت من يافان (طبقا لليتفينسكى)

(**شكل ٥٢أ**) أطباق التواليت من آسيا الصغرى ومن مصر



ج

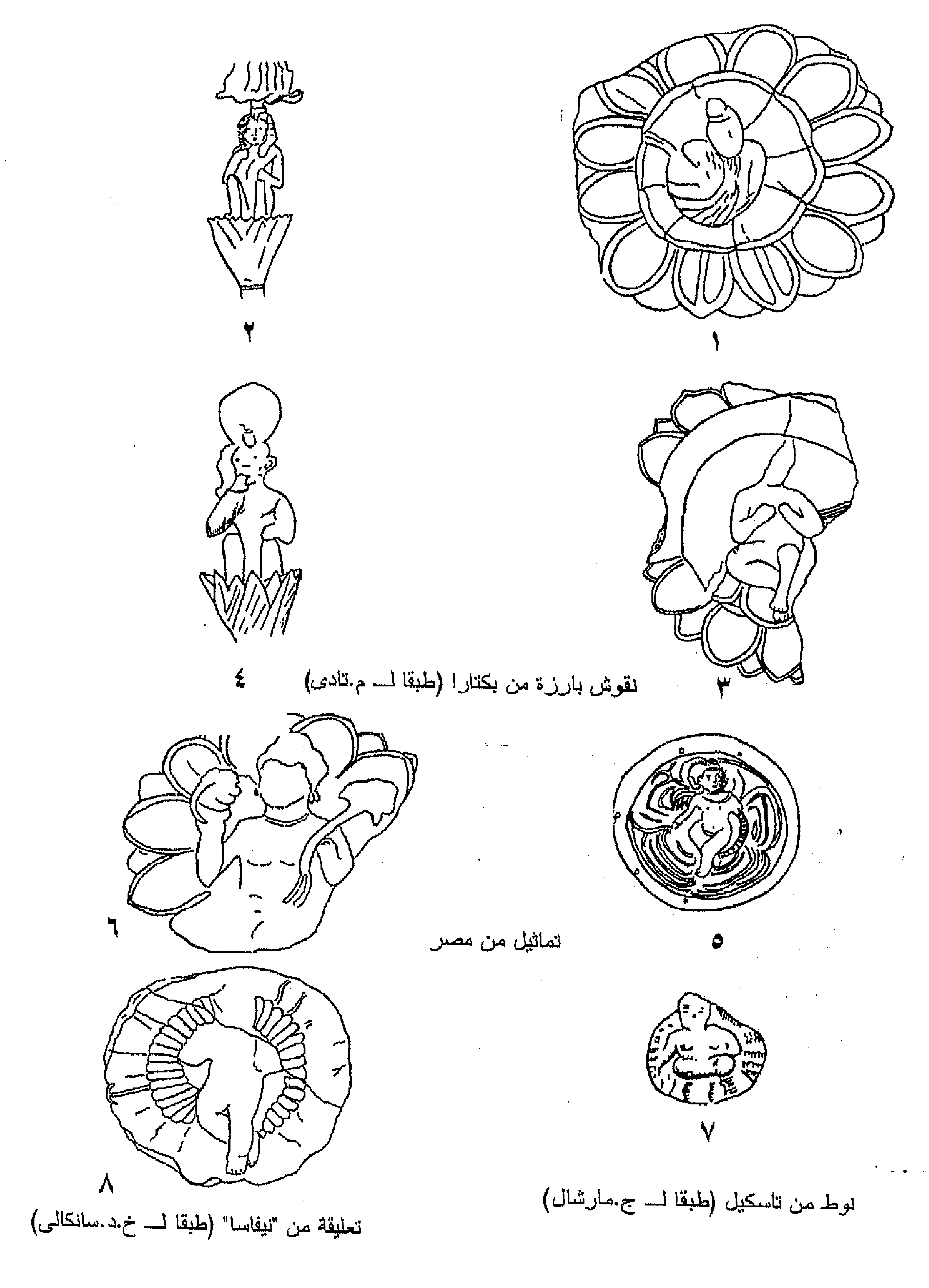


د

ج- د- أطباق تواليت من مصر (طبقا لفرانكفور)

يا ترى من الذى رسمه الرسامون والنحاتون الجندخاريون على الحجر فى هذه الحالة، بناءً على طلب رجال الدين البوذى؟ هذا النموذج الذى وجد فيه التصور الدينى الفلسفى تشابه، فى هذه الحالة، مع تصور "هربوقراط" بصفة اله للشمس، كما هو مسجل فى رسمه بصورة شاب جالس فى زهرة لوتس متفتحة. فى البوذية يماثله "مايترى" الذى رسم فى وسط زهرة متفتحة.

تبين المقارنة بين نماذج "مايترى" و"هربوقراط" على الأقل، معرفة الحكماء البوذيين بديانة هذا الإله المصرى، على الرغم من أنهم، على الأرجح، لم يقدسوه. ولكن حقيقة واقع الاقتباس الذى قدمناه (مرة أخرى هذا الاقتباس انتقائى)، مهمه جدا من وجهة نظر تفاعل العادات الدينية والعقائدية للثقافات المختلفة. نقصد التفاعل بالذات، حيث توجد أمثلة على العلاقة العكسية، على الرغم من أنها أكثر ندرة. على سبيل المثال، فإن نفس هربوقراط يجلس بالطريقة البوذية فى بعض الرسوم المصرية.كما أن سرابيس نفسه تقبل هذه الوقفة، ونضيف إلى ذلك عدة معلومات ووقائع تشهد على انتشار البوذية فى الغرب. يدور هنا الحديث عن تناول بعض الباحثين مراسيم الملك "أشوكا" المتعلقة بإرسال السفراء إلى الدول الهيلينية، فقد عثر فى "بترا" (الأردن) على بقايا بناء تم اعتباره معبدًا بوذيا (من القرنين الثالث والثانى ق.م). كما يعتبر أيضًا العثور على رسوم على أنواط فى مصر دليلاً على نظام العلاقات بين الثقافتين المصرية والهندية. عند تلخيص ما قدمناه أعلاه يمكن أن نستنتج أن أحد هذه النماذج نفسه قد اقتبس لأسباب مختلفة، قد يكون بسبب صفاته أو بسبب هيأته. ولكن، على أية حال، إذا كان الحديث لا يدور عن اقتباس عقيدة إحدى الديانات بصورتها الخالصة الأولى، فهو قد حدث بطريقة موجهة إلى هدف، طبقًا للتصورات والعادات المحلية، بغض النظر عن الثقافات الأجنبية الشعبية التى دخلت فيها البدع التى وجدت. فلنوضح ذلك باستخدام نموذج هربوقراط فى وسط آسيا والهند وأفغانستان وباكستان (شكل٥٤).



(شكل ٥٣) رسوم هربوقراط ومايترى:

كانت تماثيل رءوس أطفال مجعدى الشعر وأصابعهم على أفواههم تصنع فى خوارزم المجاورة للدولة الكوشانية. كانت أربعة من هذه التماثيل ترجع إلى مجمع قصر "توبراك-كال". من الواضح تمامًا أن أصل هذه التماثيل هو شكل "هربوقراط"، ولكن كان التنفيذ الفنى لهذه التماثيل طبقًا للأسلوب الخوارزمى، فهو لم يكن أسلوبًا مصريا ولا حتى مصريا هيلينيا، ولكنه كان يمثل تركيبة منهما مع أسلوب الرسم الهندى. تميز هذه التوليفة الفن الجندخارى، كما أنه لا توجد أسباب لاستبعاد إمكانية انتشار هذه المدارس الفنية على أرض آسيا الوسطى، حيث إن العلاقات بين "جندخارة" و"خوارزم" كانت تتم بطرق حيوية، منها طريق "أموداريا".



أ

تمثال من مصر (طبقا لـــ ج.ريدير)



ب

تمثال من تاكسيلا (طبقا لـــ م.ويلر)

(شكل ٥٤ ا) تماثيل هربوقراط

ولكن توجد أمثلة للتأثير المصرى الخاص، فقد كان يوجد تمثال إلهة تحمل على يديها طفلاً فى وسط مجموعة من التماثيل بقصر "تـوبراك- كـالا"، وكـان الشكل المعروف تماما للإلهة إيزيس وهربـوكرات يمثـل أصـل هـذا التمثـال الخوارزمى، وفى هذه الحالة لا يتم التركيز على الفكرة العامة للأمومة فـى كـل الثقافات القديمة، ولكن أصبح هنا الطفل الإلهى هو البطل الرئيسى.

كانت لشكل الطفل الإله جذور عميقة فى آسيا الوسطى، فقد كان يجسد فـى الديانات القديمة أحد عناصر عقيدة الإخصاب، الإله الذى يموت ويحيا مرة أخرى. مواضيع الأساطير عامة تقريبًا فى التصورات الدينية التقليديـة، وقـد اسـتوعبتها الديانات العالمية التى جاءت بعد ذلك بكثير، الإسلام بصفة خاصة، فيمـا يخـص وصف حياة المقدسين. فعلى سبيل المثال، يوجد فى خوارزم نفسها وفـى "سـجدا" يستكشف نموذج الطفل (أحيانًا يرجع أصله إلى علية القوم) الـذى يمـوت نتيجـة للاعتداء عليه (مفقود)، وهو يعتبر من المقدسين.

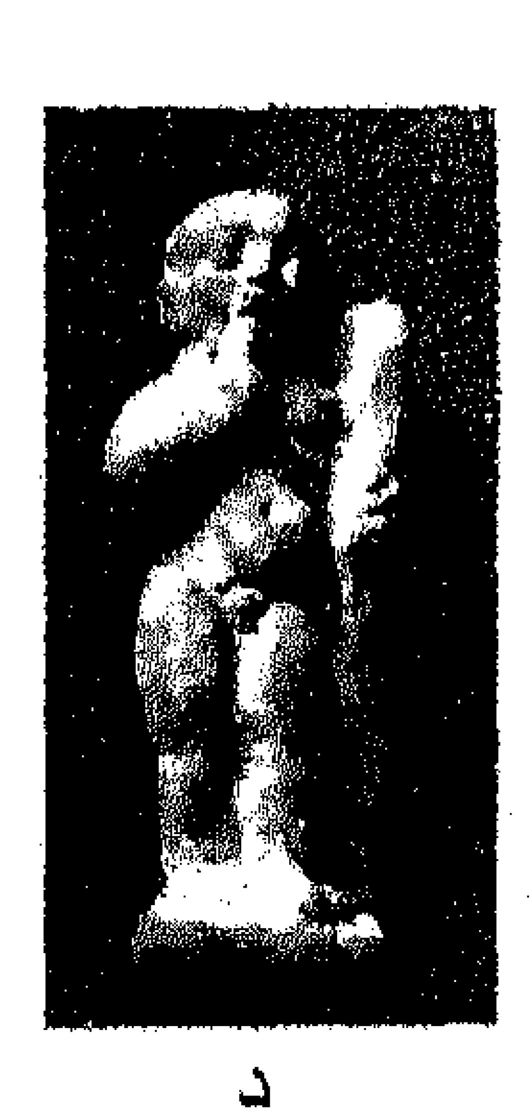
أ
هربوقراط جالس على إوزة
من خرسونيس (طبقا لكابيلينا)



ب
تمثال من مصر (طبقا لـــ ج.ريدير)



ج
هربوقراط من أفغانستان
(طبقا لـــ ك.بارلياسك)



د
هربوقراط من مونتشاك-تيبا
(طبقا لـــ س.ك.كابانوف)



هـ
تمثال من مصر (طبقا لـــ ج.ريدير)

٥٤ ب) تماثيل هربوقراط

كان يعثر على رفاته فى الماء، كما كان يروى أحيانًا أنه قد تم تقطيع جسده (هذا يشابه أسطورة أوزوريس)، كما كانت تتم زيارة قبره فى مناسبات عديدة (فى الاحتفال بالعام الجديد "تفروز")، وكان رمزه عبارة عن زهرة حمراء اللون. يوجد مثيل فى التقاليد الثقافية المختلفة لكل ما تم سرده تقريبًا، حيث انتشرت التصورات عن الإله الذى يموت ويعود إلى الحياة مرة أخرى. هذه الآلهة هى: أوزوريس، وأدونيس، وأتيس، وديونيس. يدلل وجود مثل هذه التصورات المتعلقة بنموذج الطفل الإلهى فى وسط آسيا، على مواضيع اقتباس نموذج رسم هربوقراط. وعلى الرغم من ذلك، وللحق، يجب أن نوضح أن نموذج الإله الذى يموت ثم يعود إلى الحياة مرة أخرى الموجود فى مصر، والذى يجسده أوزوريس، ولكن التضحية التى أصبحت سمة ابنه البالغ "الإله حورس" تلخصت فى شيء مختلف، فقد دخل فى معركة مع "ست" فقد فيها عينيه، وهو ما يرمز إلى موت البطل. ولكنه عند استعادته لعينيه أعطاها لأوزوريس. وهذا كان يعنى أسطورية عودة الحياة إلى أوزوريس، الذى أصبح أميرًا لمملكة الموتى. أما حورس نفسه فقد أصبح الحاكم الأوحد لمصر، وأصبحت عين حورس هى الرمز العام للتضحية فى التصورات الدينية المصرية القديمة، التى تظهر فى الطقوس الحياتية.

كانت توجد أيضًا رسوم صغيرة لهربوقراط، وبيس، و"بتاح- سكير- أوزوريس" (شكل ٥٥) ضمن التمائم الكثيرة المصنوعة من الخزف المصرى والمواد الأخرى، التى تم جلبها إلى أرض وسط آسيا القديمة. ولكن كان شبههم الخارجى معممًا، فقد كان هربوقراط وحده على هيئة طفل، بينما كان كل من بيس وبتاح-سكر- أوزيريس، على الأرجح، قصيرى القامة أو ببساطة، قزمين، كانا يحظيان باحترام فى مصر بصفتهما مخلوقين غير عاديين. كما سبق أن ذكرنا، كان هربوقراط يمثل وإصبعه على فمه وبخصلة شعر طفل.أما بيس فكان دائمًا ملتحيًا، وفمه مفتوحًا واسعًا، ورأسه متوجة بريش منفوش، ويقف على ساقين

قصيرتين مقوستين، وكثيرًا ما كان ممسكا بسكينين، وكان مظهره الخارجى عامة، مفزعا. وعلى الرغم من ذلك كان هذا الإله مرتبطًا، عند المصريين، بالأمومة والمرح والرقص. أما بتاح – سكر – أوزيريس فهو ينتمى إلى الآلهة الأعلى، وقد جمع بين القدرة الإبداعية لإله مدينة ممفيس "بتاح"، وصفة الآلهة المرتبطة بالتصورات عن عالم الموتى "سكر" و"أوزوريس". كانت هذه الآلهة تمثل برأس عليها غطاء رأس صغير.



أ
ياكشا من الهند



ب
بتاح– سكر– أوزيريس من مصر (العصر المتأخر)



ج
بيس (العصر المتأخر)

(شكل ٥٥) الآلهة الأقزام والآلهة الأطفال

وبغض النظر عن الاختلافات فى المعانى العامة لهذه الآلهة، فإن التشابه فى هيئتها الخارجية، خاصة فى المراحل المتأخرة للحضارة المصرية القديمة، وكذلك فى العصر اليونانى الرومانى، قد أدى إلى اعتبارها مشابهة لبعضها بعضًا تمامًا. كانت تعتبر آلهة عظيمة قادمة من الفضاء، قادرة على كل شيء، وعلى منح كل الخير، وعلى وهب الخصوبة للناس والطبيعة، فكان يتم تقديسها كأنها آلهة-كهنة وكان الناس يتوجهون إليها بصلواتهم فى حياتهم اليومية.

كما قلنا من قبل، فإن هذه الآلهة المصرية قد التحمت مع آلهة البنتيونات الأخرى التى لها هيئة طفل أو قزم، فى العصرين الهيلينى والرومانى: ميترا وأتيس وايروت. كان كل ذلك نتيجة هدم الحواجز بين مختلف الثقافات فى عصور أول إمبراطوريات عالمية، فقد أصبحت الآلهة غير المعروفة من قبل "آلهتنا" القريبة منا فى سياق الثقافة الجديدة، حيث تم تأليهها مع الآلهة المحلية التى تشابهها من حيث الشكل الخارجى، والتى عامة تمثل تصورًا مشابهًا للآلهة المتعلقة بالتصور عن الخصوبة التى تجسد الآلهة التى تموت ثم تعود إلى الحياة مرة أخرى. وقد انعكست هذه الفكرة فيما بعد فى الكتابات المقدسة: "إذا كانت حبة القمح، التى تسقط على الأرض، لا تموت، بل تبقى واحدة، وإذا ماتت فإنها تعطى محصولاً وفيرًا"، فيجب أن يموت الإله حتى تستمر الحياة. وتتلخص فى ذلك فكرة التضحية. لحكمة الكتاب المقدس، المقدمة على هيئة حكايات لها مغزى، جذور تاريخية عميقة.

لم تكن رواية الكتاب المقدس غريبة لسكان الإمبراطورية الكوشانية، حيث إنهم كانوا يتصورون الإله– الحبة على هيئة مخلوق شاب. تقدم إثنوجرافية شعوب وسط آسيا الكثير من أمثلة المحافظة على الطبقات القديمة جدا لمثل هذه المعتقدات، التى تظهر فى طقوس بذر الحبوب الزراعية فى عيد النيروز (العام الجديد).

تجد فكرة خصوبة الأرض، التى تظهر فى الطقوس ما يشابهها فى مراسم الحياة العملية المتعلقة بطقوس الدفن، فكثير من الشواهد من مختلف الحضارات تؤكد صحة هذه المعلومة، حيث يتم بذر الحبوب على قبور الموتى. ترجع هذه العادات إلى التصورات عن وجود علاقة ما خفية بين الإله الطفل والمحصول الوفير فى العام الجارى، ففى الأسطورة الهندية للإله الأعلى "فيشنو" صفة إله النباتات، ومن المهم جدا أن هذا الإله المبدع العظيم يظهر أحيانًا على هيئة قزم، وأقدم نموذج له هو "فامان" أى القزم. وبهذه الهيئة بالذات قام الإله فيشنو بخطواته

الثلاث التى قاس بها الكون فى الفضاء، كما تم تمثيله أيضًا على هيئة صبى له عدة أيد أحيانًا. وكانت إحدى أيديه أحيانًا موضوعة على فمه. وهذه الحركة أيضا تمنح أساسا للحديث عن اقتباسهم لصورة هربوقراط.

كما توجد فى الهند شخصيات أخرى تشبه صورها هربوقراط والآلهة المصرية من الأقزام، هى "ياكشى" المخلوقات أنصاف الآلهة، العطوفة على الإنسان. وقد ارتبطت بها التصورات عن الخصوبة والغنى، كما أنها اعتبرت حامية للكنوز المخفية فى الأرض أو المخبأة فى الكهوف (فلنتذكر الأقزام الأوروبية). كانت "الياكشى" تصور على هيئة شاب جميل، أو على العكس، على هيئة قزم مشوه. وكان شكلها الخارجى المرسوم على كثير من التمائم مشابهًا جدا لشكل بتاح-سكر- أوزيريس. وقد تم تمثيل "ياكشى بوتى" فى التراث الهندى البوذى كنصف إله فى مشاهد دنيوية. فتظهر ياكشى الأطلنطى كما لو كانت تستبدل بنفسها أبنية رأسية، أما بوتى فهى تكتسب تماما وكلية شكل إيروت Erot (إله الحب)، فى المناظر التى ترمز إلى الخصوبة، وتصاحب الآلهة البالغة، كما أنها تَجْدل أعدادًا لا تحصى من ضفائر الزهور وعناقيد العنب.

و لكننا نذكر بأن آلهة الوسط الديونيسى، كانت معروفة لسكان سجدا وخوارزم وباكتريا، فقد كانت تمثل طبقًا للعادات الفنية المحلية، ولكن كان يوجد هنا أيضا تأثير لرسوم الحضارة اليونانية الرومانية القديمة، و"إيروت" هو أحد هذه الآلهة. يكفى أن نتذكر أشكال إيروت، المصنوعة من رقائق النحاس (شكل ٥٦) وهو يجرى ممسكا بزهرة لوتس أو عنقود عنب أو عصفور. وجدت هذه الأشياء فى "المخابئ السرية" التى كانت تحتوى على هدايا مخصصة للآلهة التى كان قد بنى لها معبد "أوكس" فى مدينة "تختى- سنجين" الصغيرة (بقايا المدينة القديمة) على ضفة نهر "أموداري" بالقرب من مدينة "ترميز"، عند المعبر القديم على النهر من باكتريا الجنوبية إلى أفغانستان. وبالإضافة إلى ذلك، يجب ألا يتم نفى تأثير

الصبيان المصريين – أبناء النيل الذين تم تمثيلهم بصفات مماثلة – الذين يكون حجمهم مساويًا لذراع بصورة قاطعة، على أشكال الإله إيروت المحلية.




(شكل ٥٦) أشكال لإيروت، من "تختى-سانجين"

(طبقا لـ ب.أ.ليتفيسكى وإ.ب.بيتشيكيان)

وبذلك نكون قد قدمنا أمثلة لاقتباسات التراث الإيرانى والهندى البوذى من الثقافة المصرية فى المراحل المختلفة للاتصالات بينها فى قديم الزمان، ففى بعض الحالات يمكن التحدث عن تكييف ديانات الآلهة المصرية، وفى حالات أخرى يمكن التحدث عن مطابقتها مع آلهة البنتيون الهندى الإيرانى، التى تماثلها من ناحية الوظيفة والشكل، بحكم التصورات العامة المشتركة فى ظل الاتصالات المتواصلة. أصبح العالم المأهول أكثر تقاربًا، وفى الحقيقة تطلب ذلك عدة قرون.

بالفعل، فإن العالم صغير، وبصفة خاصة عالم الحضارة. وهل سوف يقوم المتشكك البائس من معاصرينا من أعلى عقليته التكنوقراطية بالتأكيد على تفوق زمنه على اكتشافات العصر القديم، وبالارتياب فى الحقيقة العادية، فى أن كل ما

هو جديد هو شيء جيد من قديم منسى؟ فهو قد يفترض، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، أن الهند قد اكتشفت فى عصر الاكتشافات الجغرافية الكبيرة، أما الحكمة والفلسفة فهى فقط لعلماء العصر الحديث، كما أن الوثنية تعرف بالجاهلية والبدائية، وقد تمت مواجهتها بازدهار العقيدة والقيم الروحية التى قدمتها الديانات العظيمة للإنسانية، مع بقاء حضارات قديم الزمان كأساطير وقصص عن أماكن بعيدة، كما لو كانت أحلامًا لم تتحقق.

وكما يقال، لا أحد يختار والديه. ونحن أيضًا، من يعيش فى بداية القرن الحادى والعشرين، نمثل ورثة الحضارة الإنسانية العامة المستمرة فى الزمان والمكان، والمتعاقبة فى الواقع.

لذلك فإن على كل متشكك أن يتذكر، على سبيل المثال، أن الهند ما زالت تتاجر فى العصر الجديد مع أوروبا بنفس الأسس التى تكونت منذ العصر الرومانى، عندما كان التجار المصريون يبادلون الأحجار الكريمة والتوابل بكميات كبيرة من العملات الذهبية والفضية. وكان العلماء والنساك يسيرون على الطرق البرية والبحرية طلبًا للحكمة الهندية. أما الهنود فكانوا بدورهم ينشرون البوذية فى أوروبا، فقد تلاحمت الديانات القديمة مع المسيحية بطرق خفية على غير العالمين. يمكن أن نستنتج استنادًا على الوقائع، بصورة مجازية، أنه بحكم تأثير قانون تطور الحضارة الإنسانية العامة، فإن الإسكندر المقدونى الذى لا يقهر قد أحنى رأسه ذات الكبرياء أمام عظمة الحضارة المصرية، كى يرفعها بعد ذلك وهى فى خوذة متوجة بقرنى الإله الكبير "أمون".

من وجهة النظر الأخلاقية، فإن الأحداث التاريخية المرتبطة بتكوين إمبراطوريات عالمية، أى بهدم وموت الكثير من الناس، يتم تقييمها بطريقة سلبية. ولكن إزالة الحواجز التى لا يمكن اجتيازها بين الثقافات كانت شرطًا ضروريا لكى تطور نفسها. وفى الحالة المعاكسة كان لا يمكن تفادى وصولها إلى نهاية طريق

مسدود. وقد قدَّم التجار وعلماء الدين القدامى طريقًا غير دموى، وبينـــوا بأنفـــسهم كمثال مميزات إقامة العلاقات السلمية. وعند قراءة مؤلفاتهم، يمكن غرف الحكمـــة والمعرفة المحفوظة فيها، لذلك توجد رغبة للسير مـــرة أخـــرى علـــى طـــريقهم، والمشاركة فى سحر الحضارات القديمة، والسير على الأرض التى منحت فى يوم ما ملجأ للسيدة مريم العذراء وطفلها المؤله.

المراجع

١ – بداية علم المصريات فى روسيا

1. Авдиев В.И. Академик Б.А. Тураев // Известия АН СССР. – Серия историческая. – Т. 3. № 4. – 1946.
2. Авдиев В.И. Труды В.С. Голенищева в области изучения древнеегипетской религии // Древний Египет. – М., 1950
3. Баллод Ф.В. Ваза с изображением Беса. Из собрания В.С. Голенищева № 2185 // Памятники Музея изящных искусств в Москве. – М., 1913.
4. Бок В.Г. Бронзовый коптский сосуд //ЗВОРАО. – Новая серия. – Т.VII. – 1894.
5. Бок В.Г. О коптском искусстве. Коптские узорчатые ткани // Труды VIII Археологического съезда в Москве в 1890 г. – Т.III. – 1897.
6. Бок В.Г. Материалы по археологии коптского Египта. – СПб., 1901.
7. Бороздина Г.Н. Лук и стрелы египетского царевича Амени. – М., 1915.
8. Бороздина Г.Н. Египетские скульптурные модели. Памятники Музея Изящных искусств при Московском университете. Вып. II. – М., 1917.
9. Бороздина Г.Н. Древнеегипетский танец. – М., 1919.
10. Барон Брамбеус. Фантастические путешественники. – СПб., 1883.
11. Варшавский С., Рест Ю. Рядом с Зимним // Звезда. – № 11. – 1967.

12. Викентьев В.М. Древнеегипетская повесть о двух братьях // Культурно-исторические памятники древнего Востока. – Вып. 4. – М., 1917.

13. Викентьев В.М. Революция в древнем Египте // Новый Восток. – № 1 – М., 1922.

14. Викентьев В.М. Фараон Тутанхамон и его время // Новый Восток. – № 3. – М., 1923.

15. Волков И.М. Древнеегипетский бог Собек // Записки историко-филологического факультета Петроградского университета. – Пг., 1917.

16. Гесс Ф.Ф. Об обратных изображениях в древнеегипетском рельефе и рисунке // Изд. акад. истор. – Т. I . Мат. культура.

17. Гнедич П.П. История искусств. – Т. I . СПб., 1897.

18. Голенищев В.С.Об экземпляре «Книги мертвых» Г' Ор-а сына Нис-пасср-ан-а и Та-га' ап-ы // ИРАО. – Т.IX. Вып. 5. – 1880.

19. Голенищев В.С. Эпиграфические результаты поездки в Вади Хаммамат // ЗВОРАО. – Т. II. Вып. 1 – 2. – СПб., 1887.

20. Голенищев В.С. Археологические результаты путешествия по Египту зимой 1888 – 1889 гг. // ЗВОРАО. – Т.V. Вып. I. 1891.

21. Голенищев В.С. Описание Ассирийских памятников имп. Эрмитажа СПб 1897.

22. Голенищев В.С. Гиератический папирус из коллекции В.Голенищева, содержащий отчет из путешествия египтянина Уну-Амона в Финикию // Сборник в честь В.Р. Розена. – СПб, 1897.

23. Гульянов А.И. Замечание о дендерском зодиаке в письме к издателю «Телескопа» М.В.– Типограф Лазерского Института Восточных языков, 1831.

24. Данциг Б.М. Ближний Восток в русской науке и литературе (дореволюционный период). – М., 1973.

25. Канцельсон И.С. Материалы по истории египтологии в России //Очерки по истории русского востоковедения. – М., 1956.

26. Козьмина-Бороздина Т.Н. Развитие египтологии в России //Новый Восток. - № 3. – М., 1923.

27. Коростовцев М.А., Ходжаш С.И. Адриан Викторович Прахов //Очерки по истории русского востоковедения. – III. – М., 1960.

28. Коростовцев М.А., Ходжаш С.И. Владимир Георгиевич Бок //Очерки по истории русского востоковедения. – III. – М., 1960.

29. Коциовский А. Иератическая часть берлинского папируса 3008. Призывание Исиды и Нефтиды. – Пб., 1913.

30. Норов А. Путешествие по Египту и Нубии в 1834 – 1855 гг. – Ч.I– СПб., 1840.

31. Павлов В.В. В.С. Голенищев о египетском искусстве // Древний Египет. – М., 1960.

32. Прахов А.В. Критические наблюдения над формами изящных искусств // Зодчество древнего Египта. – Вып. I. – СПб., 1880.

33. Редер Д.Г., Рубенштейн Р.И. Шестидесятилетие академика В.В. Струве // ВДИ. – № 1. – 1949.

34. Рославский-Петровский А. Руководство к истории главных народов древнего Востока и их цивилизаций. Изд. специального курса, читанного в Харьковском Университете в 1864/65 акад. году. – Вып. I. Египте. – Харьков, 1865.

35. Савельев П. О жизни и трудах О.И. Сенковского // Собр. соч. Сенковского. – Т.I. – СПб.. 1858.

36. Стасов В.В. Египетская сказка открытая в Петербургском Эрмитаже // Вестник Европы. – Т. 17. Кн. 2. – СПб., 1882.

37. Струве В.В. Петербургские сфинксы. – СПб., 1912.

38. Струве В.В. Эрмитажная стела Харемхета // Ежегод. Рос. Инст. Ист. Иск. – Пб., 1922.

39. Струве В.В. Б.А. Тураев – крупнейший историк древнего Востока //ВДИ. – № 2. – 1948.

40. Тураев Б.А. Бог Тот. Опыт исследования в области древней египетской культуры. – Лейпциг, 1898.

41. Тураев Б.А. Описание египетских памятников в русских музеях и собраниях// ЗВОРАО. – Т. XII. – 1899.

42. Тураев Б.А. Описание египетского отдела Одесского общества истории древностей. – Одесса, 1912.

43. Тураев Б.А. Доисторическое блюдо Голенищевского собрания № 2947 // Памятники музея изящных искусств в Москве. – Вып. I-II. – М., 1912.

44. Тураев Б.А. Поздние заупокойные папирусы иероглифического письма // Памятники музея изящных искусств в Москве. – Вып. I-II. – М., 1912.

45. Тураев Б.А. Рассказ египтянина Синухета и образцы египетской документальной автобиографии. – М., 1912.

46. Тураев Б.А. Дверцы наоса с молитвами богине Тауэрт. № 3914 Голенищевского собрания // Памятники музея изящных искусств в Москве. – Вып. III. – М., 1913.

47. Тураев Б.А. Барельефы с изображением божества Туту // Памятники музея изящных искусств в Москве. – Вып. IV. – М., 1913.

48. Тураев Б.А. Музей изящных искусств при Московском университете. Описание египетского собрания. Статуи и статуэтки Голенищевского собрания // Литературн. памятники древнего Востока. – Вып. 5,6. – М., 1917 – 1918.

49. Франк-Каменецкий И.Г. Религия Амона и Ветхий Завет // Сборник трудов проф. и препод. госуд. Иркутск. университета. – Вып. I. – Иркутск, 1920.

50. Шампольон Х.Ф. О египетском иероглифическом письме // Классики науки. – 1950.

٢ - الرحالة وأصحاب مجموعات الآثار الروس فى مصر

1. Андреевский В. Египет, Александрия, Каир, его окрестности, Саккара и берега Нила до первых порогов. – СПб., 1886.
2. Голенищев В. Археологические результаты путешествия по Египту зимой 1888-1889 г. – СПб., 1890.
3. Григорович-Барский В. Путешествие к святым местам. – СПб., 1778.
4. Гумилев Н. Избранное. – М., 1990.
5. Данцинг Б.М. Русские путешественники на Ближнем Востоке. М., 1965.
6. Дюгамель А.О. Автобиография. М., 1885.
7. История отечественного востоковедения. М., 1990
8. Картавцов Е.Э. По Египту и Палестине. СПб., 1896.
9. Кацнельсон И.С. Встреча России с Египтом (первая треть XIX в.) //Тутанхамон и его время. М., 1976.
10. Ковалевский Е.П. Путешествие во внутреннюю Африку. – В 2-х тт. – СПб., 1849.
11. Мордовцев Д. А. Поездка к пирамидам (чудеса в стане фараонов) //Полное собрание сочинений. – Т. XI. Кн.I. – Спб., 1905.

12. Муравьев А.Н. Путешествие по Святым местам в 1830 году. – СПб.,1835.

13. Никитенко А.В. Авраам Сергеевич Норов. Биографический очерк. – Спб., 1870.

14. Норов А. Путешествие по Египту и Нубии. – В 2-х частях. – СПб., 1853.

15. Рафалович А. Путешествие по Нижнему Египту и внутренним областям Дельты. – СПб.. 1850.

16. Ростовцев М.И. Поездка в Египет. – М.. 1908.

17. Сенковский О.И. Собрание сочинений. – Т. 1 – СПб.. 1858.

٣ – عند أصول العلاقات

1. Алексеева Е.М. Предметы из египетского фаянса VI в. до н.э. – IV в. в Северном Причерноморье // КСИА. Вып. 130. – 1972.

2. Алексеева Е.М. Античные бусы Северного Причерноморья. – Ч.1. – М., 1975.

3. Алексеева Е.М. Античные бусы Северного Причерноморья. – Ч.2. – М., 1982.

4. Амударьинский клад: каталог выставки / Вступ. слово и сост. Е.В. Зеймаль. – Л.. 1979.

5. Античная география / Под ред. М.С. Бондарского. М.,1953.

6. Бикерман Э. Хронология Древнего Мира. – М., 1976.

7. Бичурин И.Я. Собрание сведений о народах, обитавших в Средней Азии. – Т. I-II. – М.–Л., 1950.

8. Богаевский Б.Л. Земледельческая религия Афин. – Пг., 1916.

9. Бонгард–Левин Г.М. Древняя Индия и Античность (общая характеристика традиций) // Древний Восток и мировая культура. – М.. 1982.
10. Борозна Н.Г. Некоторые материалы об амулетах – украшениях населения Средней Азии // Домусульманские верования и обряды в Средней Азии. – М., 1975.
11. Вельгус В.А. Известия о странах и народах Африки и морские связи в бассейнах Тихого и Индийского океанов (китайские источники ранее XI века). – М., 1978.
12. Веселовский Н.И. Курганы кубанской области в период римского владычества на Северном Кавказе. – М.. 1905.
13. Виноградов В.Б. Место египетских амулетов в религиозно-магической символике кавказцев // Археолого-этнографический сборник. – Т.II. – Грозный, 1968.
14. Геродот. История в девяти книгах / Пер. и прим. Г.А. Стратоновского. – М., 1972.
15. Голубцова Е.С. Идеология и культура сельского населения Малой Азии I – III вв. – М., 1977.
16. Грач Н.Л. Открытие нового исторического источника а Нимфее. (Предварительное сообщение) // ВДИ. – № 1. – 1984.
17. Древние авторы о Средней Азии (VI в. до н.э. – III в. н.э.). Хрестоматия / Под ред. Л.В. Баженова. – Ташкент, 1940.
18. Захаров А.А. Фрагмент египетского украшения с юга России // Российская Ассоциация научно-исследовательских институтов общественных наук. Труды отделения археологии Института археологии и искусствознания. – Ташкент, 1926.
19. Зеймаль Е.В. Кушанская хронология (материалы к проблеме). – М., 1968.
20. Зелинский А.Н. Древние пути Памира // Страна и народы Востока. – Вып. III. – М.. 1964.

21. История Африки. Хрестоматия. – М.. 1979.

22. Картер Г. Гробница Тутанхамона. – М., 1959.

23. Кобылина М.М. Изображение восточных божеств в Северном Причерноморье в первые века н.э. – М.. 1978.

24. Когда Анну сотворил небо: Литература древней Месопотамии. – М., 2000.

25. Коровина А.К. Фаянсовые подвески из некрополей Тирамбы и Фанагории // ВДИ. – № 1. – 1971.

26. Коростовцев М.А. Древнеегипетские находки в СССР // Вестник истории мировой культуры. – № 2. – М., 1957

27. Коростовцев М.А. Религия древнего Египта. – М., 1976.

28. Кругликова И.Т., Пугаченкова Г.А. Дильберджин: раскопки 1970-1973 гг. – Ч.2. – М., 1977.

29. Культура древнего Египта. – М., 1976.

30. Литвинский Б.А. Таджикистан и Индия: Примеры древних связей и контактов // Индия в древности. – М.. 1964.

31. Украшения из могильников Западной Ферганы. – М., 1973.

32. Литвинский Б.А., Пичикян И.Р. Кушанские эроты: один из аспектов античного влияния на центральноазиатскую культуру // ВДИ. – № 2. – 1979.

33. Лобачева Н.П. Из истории календарных обрядов у земледельцев Средней Азии // Древние обряды, верования и культы народов Средней Азии. – М., 1986.

34. Лубо–Лесниченко Е.И. Великий шелковый путь //Вопросы истории. – № 9. – М., 1985.

35. Лукас А. Материалы и ремесленные производства древнего Египта. – М.,1958.

36. Маслов Ю. Якши – духи добрые и злые // Азия и Африка сегодня. – № 5. – М., 1987.

37. Матье М.Э. Мифы древнего Египта. – Л., 1940.

38. Матье М.Э., Ляпунова К. Художественные ткани коптского Египта. – М., 1951.

39. Межгосударственные отношения и дипломатия на древнем Востоке. – М., 1987.

40. Мифы народов мира: Энциклопедия. – Т.2. – М., 1982.

41. Мухиддинов И. Обряды и обычаи Припамирских народностей, связанные с циклом сельскохозяйственных работ // Древние обряды, верования и культы народов Средней Азии. – М., 1986.

42. Неверов О.Я. Магические амулеты императорской эпохи: исследование феномена и опыт классификации // Искусство и религия. Сборник научных трудов Государственного Эрмитажа. Л., 1981.

43. Неверов О.Я. Геммы античного мира. – М., 1983.

44. Павсаний. Описание Эллады. – Т.1. – М.-Л., 1938.

45. Пигулевская Н. Византия на путях в Индию: из истории торговли Византии с Востоком в IV – VI вв. – М.-Л., 1951.

46. Пиотровский Б.Б. Египетские предметы в Северо-Кавказском крае //СГАИМК. – № 16. – 1931.

47. Пиотровский Б.Б. Древнеегипетские предметы, найденные на территории Советского Союза // советская археология. – № 1. М.. 1958.

48. Плутарх. Моралии: Об Исиде и Осирисе // Пер. с древнегреч. Н.Н. Трухиной // ВДИ. – № 3-4. – 1977.

49. Перипл-Псевдоарриан. Плавание вокруг Эритрейского моря // ВДИ. – № 2. – 1940.

50. Пугаченкова Г.А. Бактрийско-индийские связи в памятниках искусства // Древняя Индия: историко-культурные связи. – М., 1982.

51. Пугаченкова Г.А. Халчьян: к проблеме художественной культуры Северной Бактрии. – Ташкент, 1966.

52. Пугаченкова Г.А. Храм бактрийской богини Дальверзин-тепе // Древний Восток и мировая культура. – М., 1981.

53. Пьянков И.В. «Шелковый» путь от Гиераполя в Серику: азиатский участок // Памироведение. – Вып. II. – Душанбе, 1985.

54. Ртвеладзе Э.В. Несколько древнеегипетских предметов из Северной Бактрии // Советская археология. – № 2. – М., 1977.

55. Сарианиди В.И. Афганистан: сокровища безымянных царей. – М., 1983.

56. Сказки древнего Египта / Сост. Г.А. Беловой, Т.А. Шерковой. – М., 1998.

57. Сказки и повести древнего Египта. – Л., 1979.

58. Снесарев Г.П. Реликты домусульманских верований и обрядов у узбеков Хорезма. – М., 1969.

59. Согомонов А.Ю. Греческая колонизация Леванта: этнические и социо-культурные контакты эпохи архаики // ВДИ. – № 1. – 1985.

60. Ставиский Б.Я. О культурных связях древней Средней Азии с домусульманским Египтом: к постановке вопроса // Древний Восток. -- СБ. I. – М., 1975.

61. Ставиский Б.Я. Средняя Азия, Индия и Рим: к вопросу о Международных связях в кушанский период // Индия в древности. – М., 196.

62. Страбон. География в 17 книгах / Пер. .А. Стратановского. – м., 1964.

63. Сымонович Э.А. Египетские вещи в могильниках Неаполя Скифского // Советская археология. – № 1. – М.. 1961.

64. Топрак-кала: дворец // Труды Хорезмской археолого-этнографической экспедиции. – Т. 14. – м.. 1984.

65. Тураев Б.А. Описание египетских памятников в русских музеях и собраниях. – СПб, б/г (отдельный оттиск).

66. Уварова П.С. Могильники Северного Кавказа. – Вып. VIII. – М., 1900.

67. Филострат Флавий. Жизнь Аполлония Тианского. – М., 1985.

68. Фрезер Дж. Дж. Золотая ветвь: исследование магии и религии. – М., 1980.

69. Хвостов М.М. История восточной торговли греко-римского Египта: 332 г. до н.э. – 284 г. по Р.Х. – Казань. 1907.

70. Шеркова Т.А. Скульптурка египетского божества из могильника Тупхона: Южный Таджикистан // ВДИ. – № 4. – 1981.

71. Шеркова Т.А. Сарапис на монетках Хувишки // Восточный Туркестан и Средняя Азия в системе культур древнего и средневекового Востока. – М., 1986.

72. Шеркова Т.А. Судьба египетских вещей в кушанской культуре // Проблемы интерпретации памятников культуры Востока. – М., 1990.

73. Шеркова Т.А. Египет и Кушанское царство (торговые и культурные контакты). – М., 1991.

74. Шеффер Э. Золотые персики Самарканда: книга о чужеземных диковинах в империи Тан. – М., 1981.

75. Штаерман Е.М. Латинские надписи, опубликованные в 1944-1949 гг. // ВДИ. – № 4. – 1950.

76. Щапова Ю.Л. Очерки истории древнего стеклоделия: по материалам долины Нила, Ближнего Востока и Европы. – М., 1983.

77. Юсупов Х. Древности Узбоя. – Ашхабад, 1986.

78. Я открою тебе сокровенное слово: Литература Вавилонии и Ассирии. – М., 1981.

79. Ancient Egyptian Materials and Technology / Ed. By P.T. Nicholson and I. Shaw. – Cambridge, 2000/

80. Asthana Shashi. History and Archaeology of Indian Contacts with other Countries from Earliest Times to 300 B.C. – Delhi, 1976.

81. Banerjea J.N. The Development of Hindu Iconography. – Calcutta, 1941.

82. Banerji A. Kushbnas in Eastern India //JNES. – 1951. – Vol. XIII, pt. I.

83. Bell H.J. Cults and Creeds in Graeco-Roman Egypt. – Liverpool, 1954.

84. Bernard P. An Ancient Greek City in Central Asia // Scientific American. – 1982. – Vol. 246. № 1.

85. Bersina S. In the Ways of Sarapis, Isis and Harpocrates. Investigation and Conservation Problems. – Moscow, 1988.

86. Blanchard R.H. Handbook of Egyptian Gods and Mummy Amulets. – Cairo, 1909.

87. Bonner C. Studies in Magical Amulets Chiefty Graeco-Aegyptian. – Ann Arbor, 1950.

88. Casson L. Ships and Seamanship in the Ancient World. – Princeton, 1971.

89. Casson L. Egypt, Africa, Arabia and India: Patterns of Seaborne Trade in the First Century // Bulletin of American Society of Papyrologists. – 1984. – Vol. XXI. № 1-4.

90. Casson L. The Periplus Maris Erythraei: Text with Introduction, Translation, and Commentary. – Princeton, 1989.

91. Charlesworth M.P. Trade Routes and Commerce of the Roman Empire. – Cambrige, 1924.

92. Coarelli F. The Painted Cups of Bergam and the Ambrosian Iliad // EW (new series). – 1962. – Vol. 13. pt. 4.

93. Cunningham A. Coins of the Kushanas, or Great Yue-ti. Numismatic Chronicle and the Journal of the Numismatic Society. – 3-d ser. – L, 1892.Vol. XII.

94. Dalton O.M. The Treasure of the Oxus. – L., 1964.

95. Dar S.R. Toilet Trays from Gandhara and Beginning of Helenesm in Pakistan // Journal of Central Asia. – 1979. – Vol. 2 № 2.

96. Darresy G. Statues de divinites. Le Caire, 1905-1906 // Service des antiquites de l'Egypte. Catalogue general de des antiquites egyptiennes du Musee du Caire. – T. I – II.

97. Dictionary of Roman Coins / Commenced by the Late. Ed. By S.W. Stewenson, C.R. Smith, F.W. Maaden. – L., 1964.

98. Dio Chrysostomus / With an English transl. by J.W. Cohoon and L. Crosby. – L., 1932-1940.

99. Dobbins K. The Commerce of Kapisene and Gandhara after the Fall of Indo-Greek Rule // JESNO. – 1971. – Vol. XIV, pt. III.

100. Frankfort H.-P. Les palettes du Gandhara //MDAFA. – T. XXIII. – 1979.

101. Fraser P.M. Current Problems Conserning the Early History of the Cult of Sarapis // Opuscula Atheniensia. VII. – Lund, 1967.

102. Fraser P.M. Ptolemaic Alexandria. – Vol. I. – III. – Oxf., 1972.

103. Gobl. Roman Patterns for Kushana Coins // JNSI. – 1960. – Vol. XXII.

104. Goetz H. An Unfinished Indian Temple at Petra, Transjordania // EW. – 1974. – Vol. 24.

105. Golenischeff W. Ermitage imperial Inventaire de la collection egyptienne. – SPb., 1891.

106. Grene F. Trois Documents Religieux de Bactriane Afghane // Studies Iranica. – Leiden, 1982. Vd. 11...

107. Grimm G. Kunst der Ptolemaer und Romerzeit im Agyptischen Museum Kairo. – Mainz, 1975.

108. Hackin J. Nouvelles Recherches archeologiques a Begram: 1939-1940 // MDAFA. – 1954. – T. XI.

109. Hornbostel W. Sarapis. – Leiden, 1973.

110. Hundtingfort G.W.B. (ed. and transl.) The Periplus of the Erythrean Sea. – L., 1980.

111. Ingholt H. Gandharan Art in Pakistan. – N.-Y., 1957.

112. Johnson A. Roman Egypt to the Reign of Diocletian. An economic Survey of Ancient Rome. – Baltimore, 1936/

113. Kater-Sibbel G.J. Preliminary Catalogue of Sarapis Monuments. – Leiden, 1973.

114. Knight A.E. Amentet: An Account of the Gods, Amulets, Scarabs of the Ancient Egyptians. – L., 1915.

115. Kurz O. bergam et L'occident greco-roman // MDAFA. – 1954. – T. XI.

116. Magie D. Egyptian Deities in Asia Minor // AJA. – 1953. – Vol. – 57. – № 3.

117. Maillard A. A propos de deux statuettes en terre raportes par la mission Otani: Sarapis and Harpokrates an Asia Centrale // JA. – 1975. – № CCLXIII.

118. Marshall J. Taxila : An Illustrated Account of Archaeological Excavations. – Vol. I-III. – Cambridge, 1951.

119. Newburg F. Glass in Antiquity. – L., 1949.

120. Parlasca K. Eine Harpokratesstatuette aus Afghanistan im Brooklyn Museum // Artibus Aegypti (Separatum). – Bruxelles, 1983.

121. Petrie W.M.F. Amulets. – L., 1914.

122. Petrie W.M.F. Naukratis, pt. I, 1884-85. – L., 1886.

123. Petrie W.M.F. Roman Ehnasya (Herakleopolis Magna) 1904. – L., 1905.

124. Petrie W.M.F. The Palace of Apres (Memphis II). – L., 1909.

125. Pinch G. Magic in Ancient Egypt. – L., 1994.

126. Pirrene J. Le Development de la Navigation Egypt-Inde dans l' antiquite // Actes du 8-e Coll. D'hist. Maritime. – L., 1970.

127. Plinius Caius Secundus. Natural History / Transl. by H. Rackham. – In 10 vols. – L., 1944.

128. Poole R.S. Catalogue of the Coins of Alexandria and the Nomes. – L., 1892.

129. Ptolemaios. Geographie / Ed. J/ Ronca. – Teil I // IsMEO. – 1971.

130. Rashcke M.G. Papyrological Evidence for Ptolemaic and Roman Trade with India //Proceedings of the XIV International Congress of Papyrologists. – Oxf., 1975.

131. Rashcke M.G. New Studies in Roman Commerce with the East // H.Temporini Hsgb. Aufstieg und Niedergang der romischen Welt. – B., 1978.

132. Rawlinson H.G. Intercourse between India and the Western World from the Earliest Times to the fall of Rome. – Cambridge, 1916.

133. Ray H.P. The Yavana presence in Ancient India // JESNO. – 1988. – Vol. XXXI, pt. III.

134. Reisner G.A. Amulets. – Vol. I – II. – Le Cairo, 1907.

135. Roeder G. Agyptische Bronzegigeren Staatliche Museen zu Berlin Mitteilungen aus der agyptischen Sammlung. – Bd. VI. Tafelband. – B., 1956.

136. Rosenfield I.M. The Dynastic Arts of The Kushans. – Berkeley-LA, 1967.

137. Rostovtzev M.I. Foreign Commerce of Ptolemaic Egypt // Journal of Economic and Business History, – Cambridge, 1932. – Vol.4.

138. Sandman-Holmberg M. The God Ptah. – Lund, 1946.

139. Sarianidi V. Bactrian Gold from the Excavations of the Tillja-Tepe Necropolis in Northern Afghanistan. – Leningrad, 1985.

140. Schof W. Parthian Stations of Isidor of Charax; an Account of the Overland Trade Route Between the Levant and India in the First Century B.C. – Filadelfia, 1914.

141. Sedlar J.W. India and Greek World; a Study in the Transmission of Culture. – New Jersey, 1980.

142. Seligman C.G., Beck M.C. Far Eastern Glass; Some Western Origin // Bulletin of the Museum of Far Eastern Antiquities. – Stockholm, 1938. – № 10, pt.12.

143. Sign M.M. Indian's Overseas Trade as Known from the Buddhist Canon // IHQ. – 1961. – Vol. 37. № 2-3.

144. Skowronek S. On the Problem of the Alexandrian Mint. – Warzawa, 1967.

145. Stambaugh J. Sarapis under the Early Ptolemies. – Leiden, 1972.

146. Stein A. Ancient Khotan. – Vols. I-II. – Oxf., 1907.

147. Stein A. Serindia. – Vols I-IV

148. Stein A. Innermost Asia. – Vols. – I-IV. – OXF., 1928.

149. Taddei M. On a Hellenistic Model Used in some Gandharan Reliefs in Swat // EW. – 1965. – Nev ser. – Vol. 15. № 3-4.

150. Taddei M. Harpokrates – Brahma – Maitreya: a Tentative Interpretation of a Gandharan Reliefs from Swat // Extratto della Riuista Dialoghi di Archaelogia. Roma: Casa Editrce il Saggiatore, 1969. – Cambridge, 1951.

151. Toll N.P. Necropolis: The Excavations at Dura-Europos // Preliminary Report on the Ninth Season of Work 1935-1936. – Pt. II. – New Haven, 1946.

152. Toll N.P. The Excavations at Dura-Europos // Final Report IV. – New Haven, 1949.

153. Touraieff B. Objects egyptiens et egyptisants trouves dans la Russie meridionale // Revue archeologique. – P., 1911. – IV ser. – T. XVIII.

154. Warmington E. The Commerce between the Roman Empire and India. – L., 1974.

155. Welles C.B. The Discovery of Sarapis and the Foundation of Alexandria. // Historia. – Wiesbaden, 1962. – Bd. XI. Hf.3.

156. West L.C., Johnson A.C. Currency in Roman and Byzantine Egypt. – Princeton, 1944.

157. Wheeler M. Roman Coins First Century B.C. – Fourth Century A.D., Found in India and Ceylon // Ancient India. – 1946. – Vol. II. July.

158. Wheeler M. Rome beyond the Imperial Frontiers. – L., 1955.

159. Whitcomb D., Johnson J.H. Egypt and the Spice Trade // Archaeology. – 1981. – Vol. 34. № 6.

٤ – قائمة الاختصارات

1. ВДИ – Вестник древней истории. М.-Л.
2. ЗВОРАО – Записки Восточного Отделения имп. Русского археологического общества. СПб.
3. ИРАО – Известия Российского археологического общества.
4. КСИА – Краткие сообщения Института археологии АН СССР. М.
5. СГАИМК – Сообщения Государственной Академии истории материальной культуры. М.-Л.
6. AJA – American Journal of Archaeology. N.-Y.

7. EW – East and West. Rome.
8. IsMEO – Istituto Italiano per il Medio ed Estremo Oriente. Rom.
9. JA – Journal asiatique.P.
10. JESNO – Journal of th Economic and Social History of the Orient. Leiden.
11. JNES – Journal of Near Eastern Studies. Chicago.
12. JNSI – Journal of Numismatic Society of India. Bombay.Varanasi.
13. MDAFA – memoires de ia Delegation Archeologiques francaise en Afghanistan. Paris, La Caire.

المؤلفتان فى سطور :

جالينا ألكسندروفا بيلوفا

- مديرة مركز بحوث علم المصريات- أكاديمية البحث العلمي الروسية.
- حاصلة على الدكتوراه العليا D.sc فى علم التاريخ عام ١٩٩٥ فى موضوع "مصر وجيرانها بإفريقيا".
- وعلى الدكتوراه فى فلسفة التاريخ Ph.d عام ١٩٧٨ فى موضوع "تكون الجهاز الإدارى فى النوبة فى الفترة من ٣٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد".
- رأست عدة بعثات أثرية في مصر بمناطق ممفيس والإسكندرية ودير النباتى وتل ابراهيم أنادى. كما رأست فريق ترميم الكنيسة المعلقة.
- عضو الجمعية العالمية لعلماء المصريات، وعضو رابطة دراسة مصر (بريطانيا)، وعضو الجمعية الأوروبية لعلماء المصريات، وعضو شرف جمعية National Geographic (الولايات المتحدة الأمريكية)، وعضو أكاديمية المحافظة على الحياة. وعضو مجلس إدارة جمعية تنمية العلاقات الثقافية والعلمية مع روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق (مصر).
- محررة فى دورية "كنوز كلمة الشرق".
- نشر لها أكثر من تسعين مؤلفًا علميا عن حضارة مصر القديمة.

تاتيانا ألكسييفنا شيركوفا

- كبيرة الباحثين بمركز بحوث علم المصريات- أكاديمية البحث العلمي الروسية.
- حاصلة على الدكتوراه فى فلسفة التاريخ عام ١٩٨٨، فى موضوع "مصر والدولة الكوشانية: العلاقات التجارية والثقافية".
- شاركت فى أعمال البعثات الأثرية إلى ممفيس وتل إبراهيم أنادى.
- شاركت فى أعمال قاعدة المعلومات الشرقية الأوروبية عن علم المصريات.
- عضو بالجمعية العالمية لعلماء المصريات، وعضو الجمعية الأوروبية لعلماء المصريات.
- محررة بدورية "كنوز كلمة الشرق".
- نشر لها أكثر من خمسين مؤلفا علميا عن حضارة مصر القديمة.

المترجم فى سطور :

على فهمى عبد السلام

• بكالوريوس الهندسة الميكانيكية من جامعة الإسكندرية (١٩٧٠)، وماجستير سباكة المعادن من معهد التبين للدراسات المعدنية (١٩٧٢)، ثم دكتوراه من معهد موسكو للصلب والسبائك بروسيا- الاتحاد السوفييتى سابقا- (١٩٨٠).

• عين مدرسًا مساعدًا (١٩٨٠) وتدرج حتى أستاذ ورئيس قسم السباكة بمعهد التبين للدراسات المعدنية (١٩٩٢) ثم رئيس تخصص الفلزات غير الحديدية (١٩٩٨) ورئيس قسم هندسة التعدين والفلزات (٢٠٠٤) ثم وكيل نفس المعهد للعلاقات الخارجية.

• عمل مساعدًا لمدير مركز الوثائق الفنية والجامعية فى بعثة التعاون العلمى لسفارة فرنسا (١٩٨٠).

• مدرس وباحث بكلية علوم الشمس والأرض والتعدين فى جامعة يولا بنيجيريا (١٩٨٣).

• نشر أكثر من سبعين بحثًا علميا، وخمسين كتابًا مؤلفًا ومترجمًا من الروسية إلى العربية والإنجليزية، ومن الإنجليزية والفرنسية إلى العربية، وعدة قواميس للمصطلحات العلمية، منها ترجمة كتاب "مصر فى عصرنا الحديث" ضمن إصدارات المشروع القومى للترجمة.

• مدير مكتب جلاسكو فى القاهرة (١٩٩٦) ثم نائبا مدير فوسيكو (١٩٩٨).

• مؤسس معمل "الفرن الشمسى" فى معهد التبين للدراسات المعدنية.

• تولى مهمة الترجمة الفورية من الروسية إلى العربية والعكس فى العديد من المؤتمرات واللقاءات الرسمية، أهمها مؤتمر "صناع السلام" فى شرم الشيخ.

• رئيس تحرير النشرة العلمية المعهد التبين للدراسات المعدنية ورئيس تحرير "مجلة السباكة" ومشرف على إصدارات "تكنولوجيا السباكة".

• عضو العديد من الجمعيات العلمية المصرية والأجنبية، ويرأس جمعية تنمية التعاون الثقافى والعلمى مع روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق.

المراجع فى سطور :

أوليج إيفانوفيتش فومين

• تخرج فى معهد الدراسات الدولية بموسكو (١٩٦٢)، ثم فى معهد اللغات الشرقية (١٩٦٦)، وحصل على الدكتوراه فى العلوم التاريخية (١٩٧٨) من أكاديمية العلوم الاجتماعية.

• مستشرق خبير فى التاريخ الحديث للبلدان العربية، عمل مترجمًا بإدارة السياحة التابعة لمجلس وزراء الاتحاد السوفييتى ثم فى الجمهورية العربية اليمنية (١٩٦٢-١٩٦٦).

• عمل (١٩٦٦ - ٢٠٠٣) فى وظائف: مشرف لجنة منظمة الشباب، ومسئول بمدينة موسكو عن العلاقات مع البلدان العربية، وممثل اتحاد جمعيات الصداقة السوفييتية، ومدير المركز الثقافى السوفييتى بسوريا ثم تونس، والسكرتير الأول لسفارة الاتحاد السوفييتى بسوريا ثم تونس، ومسئول الإعلام عن البلدان العربية، ثم عمل فى مصر (٢٠٠٣-٢٠٠٦) ممثلاً للمركز الروسى للتعاون العلمى والثقافى الدولى التابع لوزارة الخارجية الروسية، والمدير العام للمراكز الثقافية الروسية ، ومستشار سفارة روسيا الاتحادية فى ج.م.ع.

•نائب رئيس الجمعية الفلسطينية الأرثوذكسية الإمبراطورية، وجمعية الصداقة السوفييتية- السورية (١٩٧٥-١٩٩١)، واتحاد جمعيات الصداقة الروسية مع البلدان العربية، وأكاديمية التراث الروحي الشرقي بمدينة موسكو. وعضو اتحاد الصحفيين الروسي واتحاد المترجمين الروسي، ثم عضو مجلس إدارة جمعية تنمية التعاون الثقافي والعلمي مع روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق.

•نشرت له ستة كتب، وأكثر من أربعمائة مقالة عن قضايا حركة التحرير الوطنية العربية، ونزاع الشرق الأوسط، ونضال الشعب الفلسطيني، والعلاقات الروسية العربية. وترجم روايات ومقالات صحفية كثيرة.

•شارك بمراجعة ترجمة كتاب "مصر في عصرنا الحديث" من إصدارات المشروع القومي للترجمة.

•حصل على العديد من الميداليات والشهادات التقديرية.

الإشراف اللغوى: محمد عيسوى

الإشـــراف الفنى: حســـن كامـــل

ترجع العلاقات المصرية الروسية تاريخياً إلى ما بعد انهيار الإمبراطورية البيزنطية فى القرن الخامس عشر، فقد اهتمت روسيا بالمسيحية الأرثوذكسية، وتوجه الروس إلى الأماكن المقدسة فى سيناء، وكان أول روسى يزور دير سانت كاترين، الأرشمندريت جريفينى (1400)، ونُشر بعد ذلك كتاب فى سان بطرسبورج أصبح دليلاً للحجاج الروس إلى سيناء .

الكتاب الذى بين أيدينا يلقى الضوء على مكانة الروس، من علماء ومثقفين وفنانين ورحالة ورجال دين ومغامرين وغيرهم، فى فك رموز الحضارة المصرية القديمة وأسرارها، والمشاركة فى إعداد علم المصريات وتطويره، فمنهم من قام بإجراء البحوث العلمية و الحفر والتنقيب عن الآثار، ومنهم من بحث عن الآثار،وغيرهم قام بدراستها والحفاظ عليها فى المتاحف الروسية أو المتاحف العالمية الأخرى، ومنهم من حضر ضمن رحلات إلى مصر فقاموا بوصفها وما تحمل أرضها من آثار، ومنهم من اهتم بعلم القبطيات مما ساعد على تغلغل حب مصر والشغف بتاريخها القديم بين الروس والشعوب الأخرى، وأسهم فى علم المصريات، وبصفة خاصة بعد كشف شامبليون (الفرنسى) لأسرار كتابة اللغة الهيروغليفية.



